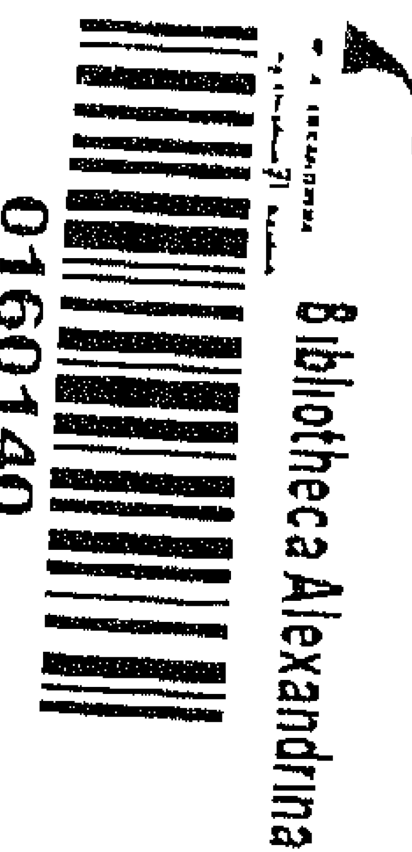
أدب الرحلات عند العرب

(١)

الرحلة فى الأدب العربى

(حتى نهاية القرن الرابع الهجرى)







صر عبد الرازق الموافى

ة الآداب - جامعة القاهرة

أدب الرحلات عند العرب

(١)

الرحلة فى الأدب العربى

(حتى نهاية القرن الرابع الهجرى)

د. ناصر عبد الرازق الموافى

كلية الآداب - جامعة القاهرة

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

دار النشر للجامعات المصرية - مكتبة الوفاء
٤١ ش شريف ت ٣٩٢١٩٩٧٠ / ٣٩٣٤٦٠٦

الإهداء

إلى أستاذي الدكتور/ حسين نصار

قطرة من بحر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو ءاذان يسمعون بها. فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور﴾

صدق الله العظيم

الحج (٤٦)

تصــديــر

هذه الدراسة :

محاولة لتتبع الرحلة العربية : نشأتها، وتطورها من حيث هى، ثم المراحل التى مرت بها – نصاً مدوناً – حتى أمست أثرا أدبيا، وغاية لذاتها.

وقد كان على هذه الدراسة أن تلتفت إلى شيئين :

أولهما: أنه ليس ثمة دراسات نقدية حقيقية فى الأدب العربى توفى هذا النوع حقه.

وثانيهما: أن الدراسات الحالية تقتصر على رحالين بأعينهم، ولا تتعداهم، مما ألحق الغبن بآثار أدبية ممتازة، وبرحالين مميزين، وبفترات زمنية بعينها.

ولهذا، اقترحت الدراسة بعض الأسس التى يمكن – على هدى منها – دراسة هذا النوع. وهى أسس قابلة للمناقشة والتعديل – طالما كان ذلك فى صالح هذا النوع. كما سعت إلى تتبع الجذور الأولى لتدوين الرحلات، والمتمثلة فى تسرب بعض تفاصيل الرحلات إلى كتب الجغرافيا الوصفية التى اعتمدت الدراسة الميدانية منهجا، ثم فى كتب الأدب الجغرافى التى أحدثت شيئا من التوازن بين الرحلة – كأدب – والعلم، ثم أخيرا تستقل الرحلة بذاتها، ويدرك العرب أهميتها، فينشئون لها نوعا يواكبها هو «أدب الرحلة».

ولتحقيق هذا كله، انقسمت هذه الدراسة إلى أربعة فصول وخاتمة، كان الفصل الأول منها بمثابة محاولة للاقتراب من عالم الرحلة العربية، معرفا بها فى اللغة والاصطلاح، وبالمراحل التى مرت بها من حيث هى، ومعللا لتوقف درسها عند نهاية القرن الرابع الهجرى، ومبينا لأنواعها. ثم سعى إلى التمييز بين الجغرافيا الوصفية والأدب الجغرافى وأدب الرحلات ـ تلك المراحل التى مرت بها الرحلة أثراً مدوناً، ليخلص إلى مهاد نظرى يتعرض لمفهوم أدب الرحلات من خلال التعريفات المتيسرة ومناقشتها، مركزا على الخصائص المميزة للمضمون، ثم الخصائص المميزة

للشكل من حيث: طريقة التدوين، والبنية، واللغة.

ثم تنتقل الدراسة إلى الجانب التطبيقى، فتتعرض للنصوص المصنفة فى إطار كل مرحلة، مخصصة الفصل الثانى لكيفية تناول كتب الجغرافيا الوصفية للرحلة ومعطياتها من خلال سبعة نصوص، ثم تخصص الفصل الثالث لكيفية تناول كتب الأدب الجغرافى للرحلة ومعطياتها من خلال سبعة نصوص أيضا، ثم تنتقل إلى درس كيفية تناول كتب أدب الرحلات للرحلة ومعطياتها من خلال عشرة نصوص.

ووفقا لتنوع النصوص تنوعت طريقة التناول، وكان التركيز على النص نفسه فى الغالب - إلا أن يكون الرحال مجهولا، فيتم التعريف به من خلال نصه، وما يمكن استنباطه عن الرحال من بين ثناياه.

وفى الغالب يتم التعريف بالنص وصاحبه أولا، ثم تتم دراسته من خلال خصائصه المميزة، مع تجنب الأحكام التقويمية ما أمكن ذلك - فتحا لباب الاجتهاد فى هذا النوع الذى مازال ينتظر الكثير من الدراسات كى تفى ببعض جوانبه.

فى سبيل التقويم الموضوعى لتراث الرحلات المندرج فى الإطار الزمنى لهذه الدراسة بفروعه الثلاثة : الجغرافيا الوصفية، والأدب الجغرافى، وأدب الرحلات - لابد من الوقوف على واقعه المعاصر - أعنى الحالة التى وصلنا عليها. وهذا الوقوف ضرورى لأنه سيوضح مدى جدوى دراسة نصوصه.

الحقيقة التى يجب إقرارها، أن هذا التراث وصلنا فى صورة مشوهة وناقصة لا تساعد على وصفه وتقويمه بدقة، وإن كان هذا لا يعنى الانتظار حتى تكتمل الصورة، والخلود إلى الراحة، بل المطلوب الاجتهاد للخروج بأفضل النتائج مما هو متاح.

العوامل التى أدت لهذه الصورة المشوهة كثيرة، منها ما هو متعمد، ومنها ما هو غير متعمد :

أول هذه العوامل عائد إلي الرحالة أنفسهم، فلكل كتاب مسودة أو اثنتان أو ثلاث. وهذا التعدد أدى إلى عدم وصول النص فى صورة موحدة، خاصة أن الناقلين أخذوا عن هذه النسخ المتعددة، مما رسخ هذا الواقع.

ثانيا: بعض الرحالة لم يدونوا رحلاتهم بأنفسهم، بل عهدوا إلى بعض معاصريهم بتدوينها - بعد حكاية الخطوط العامة، مع ترك الحرية لهم لنسج تفاصيل حولها، أو بتسليمهم المسودات لينقحوها... إلى آخر ذلك من ضروب الاتكاء على الغير.

ثالثا : استنادا لأسباب غير موضوعية قام بعض اللاحقين باختصار النصوص، وذلك بتجريدها من كل ما هو أدبى ذاتى، والإبقاء على كل ما هو علمى موضوعى، وتكاد تهمة الاختصار تلصق بمعظم النصوص التى وصلتنا.

رابعا : هناك نصوص ضاعت كاملة، وأخرى ضاعت، ولكن وصلتنا أجزاء منها منقولة فى المعاجم والموسوعات الجغرافية، وهى نصوص مختارة للاستشهاد فحسب، ولذا فإن كل ما يتصل بشخص الرحال - أولا يفيد فى موضع الاستشهاد - محذوف منها.

خامسا: يأتى دور النساخ الذين جنوا جناية كبيرة على هذه النصوص، فلم يكونوا أمناء فى الغالب، أو كان مستواهم العلمى ضعيفا، فتدخلوا تدخلا سافرا فى النصوص، سواء بحذف مالا يعجبهم أو بإضافة ما يروق لهم، أو بالتعليق عليها، المهم أن ضروبا من التشويه تسبب فيها النساخ.

سادسا : ما لم تصبه يد الضياع، كان فى حاجة إلى تحقيق علمى، والذى حدث أن الذى اضطلع بهذه المهمة مجموعة من المستشرقين متعددى الأهواء والمشارب، منهم المتقن لعمله، ومنهم الضعيف المتهاون. صحيح أن خدمات جليلة قدموها لهذا الفرع من التراث العربى، ولكن - فى المقابل - هناك نماذج صارخة لانعدام الأمانة العلمية والتشويه المتعمد، تجعل مراجعة ما نشر ضرورة ملحة. كما أن معظم الطبعات نشرت فى القرن التاسع عشر، وهى طبعات رديئة وصعبة القراءة، تستلزم جهودا مخلصة لإعادة نشرها فى صورة لائقة. يضاف إلى ذلك كله أنها

نادرة، يصعب الحصول عليها.

سابعاً : زد علي ذلك هذا التقاعس من قبل الباحثين العرب تجاه هذا الفرع، وانشغالهم بنصوص أقل قيمة، أو الترجمة عن اللغات الأخرى، قاطعين بذلك كل صلة لهم بهذه النصوص. والجغرافيون المعاصرون معنيون بهذا الاتهام أساسا.

إن كل هذه العوامل تضافرت لتقدم صورة غير حقيقية لهذا الفرع القيم من تراثنا، ولتضع عقبات جمة أمام الراغبين فى دراسته، رغم «أنه يقدم مادة دسمة متعددة الجوانب، لا يوجد مثيل لها فى أدب أى شعب معاصر للعرب، وقد أثبت البحث العلمى المعاصر أن مادة الأدب الجغرافى العربى أبعد من أن تكون قد استوفت حقها من الدراسة والاستقصاء حتى أيامنا هذه» (١)

وهناك عوامل ساعدت على عدم استقلال أدب الرحلات كفن أدبى عربى، لعل أهمها ما يلى:

١ - أن معظم الرحالة كانوا ينتقدون سابقيهم ممن كتبوا فى مجالهم .ويزرى الواحد منهم بجهود عيره، مدعيا أنه السابق الذى لا يلحق، وأنه يخترع على غير مثال، ويمهد لهذا الادعاء بنفد جهود سابقيه نقدا سلبيا.

٢ - أن الجهد النقدى البناء انعدم، بسبب عدم وضوح معالم هذا الفن الأدبى، ويسجل هنا أن الحركة التنظيرية لهذا الفن الأدبى معدومة تماما، وأن أدب الرحلات لم يصنف فى فنون النثر العربى ولو مرة واحدة.

٣ - أن أصحاب الإسهامات لم يكونوا من الأعلام البارزين لعصرهم، بل كان أعلبهم دائم الترحال فى البلاد، ولهذا فإن الاهتمام بما يكتبون لم يتوفر.

٤ - وهؤلاء المساهمون لم يقصدوا للتجويد الفنى فى أغلب الأحيان، كما تجنبوا الحديث عن ذواتهم، مما ساعد على نسبة ما كتبوا للعلم دون الأدب.

٥ - بل إن بعضهم كان يرى الرحيل الدائم مبررا للتقصير والخلل فى مؤلفاته،

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافى العربى - أغناطيوس كراتشكوفسكى. ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم. لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٦٣ - ١٩٦٥ ، ٢٥/١

ويبرز فى هذا المجال السعودى وابن الفقيه.

٦ - يضاف إلى ذلك أن الغبن أصاب أصحاب الإسهامات المتميزة فى هذه الفترة؛ بسبب التركيز على رحلتى ابنٍ جبير وابن بطوطة كنموذجين لأدب الرحلات العربى. وليت هذين النصين درسا دراسة فنية تكون أنموذجا لدراسة أدب الرحلات، إنما ما حدث هو أن الدراسين لهما اكتفوا ببعض التعليقات الجزئية حول بعض المواضع، وهى تعليقات عامة تتناول النواحى الاقتصادية والاجتماعية، والسياسية، والدينية.. وغيرها.

وكى توجد نماذج متميزة من «أدب الرحلات»، لابد أن يضعها رحالون متميزون. وهذا التميز توفر بصورة لافتة لدى الرحالة العرب، ولكن المؤسف أنه لم ينعكس على نماذجهم وإسهاماتهم نظرا لظروف ذاتية وموضوعية مرتبطة بعصرهم.

إن أغلب النماذج التى تتناولها هذه الدراسة قضى أصحابها معظم حياتهم راحلين، حتى إن الاستقرار كان أمرا غريبا عليهم، والنماذج المبرزة لهؤلاء تتمثل فى المسعودى، وابن حوقل، والمقدسى.

ومن خلال التفاصيل الجزئية الصغيرة التى ندت عنهم - دون قصد - أمكن التعرف على ملامح شخصياتهم، وهكذا يمكن أن نقرر - بكل اطمئنان - أن شروط الرحال المتميز توفرت فيهم. بل إنهم قدموا خدمة جليلة لهذا الفن حين أفردوا قطعا من كتبهم للحديث عن رحلاتهم والظروف المحيطة بها، ويبرز فى هذا المجال كل من اليعقوبى والمسعودى، وابن حوقل، والمقدسى، إضافة إلى النموذج المتميز للغاية - أعنى ابن فضلان الذى وصل بهذا الفن إلى ذروته، والذى لقى من الغبن - بين مواطنيه - ما يستدعى الدهشة.

ومعلوم أن الشعر فن العرب المفضل، وأن النثر لم يلق من العناية ما لقيه الشعر، وأن العرب لم يدونوا معارفهم بشكل منظم إلا بعد ظهور الإسلام بفترة ليست وجيزة، ومن ثم فإن تدوين النماذج التى تتضمن حصاد رحلات تأخر للغاية، حتى وصل العرب إلى مرحلة من التقدم الحضارى تكفل لهم الإحساس بخطر وأهمية هذا النوع من التدوين. يضاف إلى ذلك أن معظم أصحاب الرحلات كانوا أناسا

عاديين، ولم يكن يربطهم بالسلطة صلة، ولذا لم تدر كتاباتهم فى فلكها، ومن ثم كان الإهمال مصيرها. غير أن بعض الرحالة تنبه لهذا الأمر، فأهدى كتابه لأحد رموز السلطة، ثم أعاد إهداءه إلى آخرين ممن يناوئون الأولين، وأجرى تعديلات تتفق وميول الأسياد الجدد.

وهذا السلوك - وإن كفل لصاحبه ذيوعا وشهرة، ولكتابه استمرارا - يسجل وجود نماذج عالية النبرة من النفاق السياسى الممجوج، ويكفى ذكر موقف ابن حوقل من الحمدانيين، والأندلسيين، والفاطميين، وموقف المقدسى من السامانيين، والفاطميين كدليل على ذلك. ولكن يسجل - فى المقابل - كل تقدير لابن فضلان، لأن موقفه كان دوما فى صالح أمته وقضاياها، ولم يلاحظ عليه أى ميل لنفاق أو مجاملة.

ولعل الميزة الكبرى لبعض النماذج التى تنتمى لهذا النوع، أنها لم تكتف بتسجيل تجاربها فحسب، وإنما حرصت على تضمين تجارب السابقين المدونة فى نصوص قصيرة، ومن ثم حفظتها من الضياع. حتى إن القيام بهذا الدور الإيجابى غطى أحيانا - على الإسهام الأصلى لصاحب الكتاب. ومن أبرز النماذج فى هذا الصدد، ما فعله ابن خرداذبه وابن الفقيه،وابن رسته، ولكن أبرزها - على الإطلاق - وأكثرها قربا من أدب الرحلة، ما خطه قلم بزرك بن شهريار الناخذاه الرامهرمزى، وسيظل ما فعله الرجل مدعاة للإعجاب والتقدير، والدعوة موجهة للباحثين كى يقتربوا من عالم هذا الكتاب النادر القيم والمغبون فى آن.

وما فعله أصحاب المعاجم والموسوعات الجغرافية المتأخرون - من حفظ مثل هذه النماذج - يستوجب التقدير، فلولاهم لضاع معظم هذا التراث، ولأصبحت معرفتنا به ضحلة للغاية. إن المصادر الوفيرة التى اعتمد عليها هؤلاء المتأخرون فى كتاباتهم لدليل على الثراء الكمى والنوعى الذى تميز به هذا الفرع من تراثنا.

والظاهرة اللافتة فى هذه النصوص المضمنة أنها قصيرة نسبيا، مما يعطى انطباعا بأن أغلبها كان عبارة عن تقارير رسمية فى البداية، وأن التركيز - فيما وصلنا منها كاملا - كان على الرحلة نفسها ،ولذا فإنها أقرب إلى أدب الرحلات منها إلى

الجغرافيا الوصفية، والأدب الجغرافى. ومما يلاحظ أيضا أن النصوص المعتمدة على رحلات، والمصنفة على أنها أدب جغرافى أو جغرافيا وصفية - أطول - فى مجموعها العام - من النصوص المصنفة على أنها من أدب الرحلة، وأن الأخيرة لم تنل اهتماما كافيا؛ نظرا لأن التركيز على الرحلة ذاتها وعلى انطباعات الرحال وذاته - لم يكونا قد نالا القدر الواجب من التفهم والاحترام والتقدير، وذلك رغم أن النصوص المنتمية لأدب الرحلات تميزت بالأصالة والطرافة على مختلف الأصعدة، ومثّل كل نص نموذجا فريدا غير مسبوق، وجهدا غير مسروق، ولذا فإن مضمون وشكل كل نص يختلف عما سبقه وما لحقه، مما يشى بأن مرونة أدب الرحلات لاحد لها.

وهذا التفرد والتميز أدى إلى نتيجة مهمة هى : أن أدب الرحلات لم يرتبط تطوره بتقدم الزمن، فثمة نماذج من القرن الثالث الهجرى تتفوق - فنيا - على مثيلاتها من القرن الرابع الهجرى، ونماذج من النصف الأول من القرن الرابع تتفوق على نماذج من النصف الثانى منه.. إلخ.

ورغم أن نصوص الرحلات تميزت بالأصالة، ومحاولة تجنب التكرار، فإن السمات المشتركة بين النصوص المندرجة فى إطار كل اتجاه من اتجاهات تدوين الرحلة - واضحة. ولكن الملاحظ - فيما يتعلق بالمضمون - أن نصا من هذه النصوص جميعا لم يخل من الطابع المعرفى أو الموسوعى، ويبدو أن التعليم كان هدفاً أساسيا بديهيا لدى كل الرحالة، ولكن عنصر الإمتاع هو الذى كان يحتاج إلى تأكيد.

يلى الطابع المعرفى فى نسبة الشيوع - الطابع الشعبى، فالنقدى، فالفكاهى، فالوثائقى، فالفردى، فالإنسانى، بينما يختفى الطابعان : الجمالى، والكشفى تماما من النصوص المندرجة فى إطار هذه الحقبة.

ورغم أن معظم النصوص يغلب عليها طابع بعينه، فإن نصوصا أخرى تتميز باحتوائها على عدة طوابع مضمونية، كنصوص: التاجر سليمان، وأبى دلف، والمسعودى، وابن حوقل، والمقدسى، والإمام الشافعى، وابن فضلان.

ولعل أكثر هذه النصوص ثراء من حيث المضمون - نص المقدسى، الذى بذل فيه صاحبه جهدا كبيرا، وضمنه كل ما ترامى إلى علمه بعد تنظيمه وتبويبه، ولهذا فإن المقدسى نال شهرة كبيرة فى أوساط الاستشراق، وأصبح مصدرا مهما لكل الدراسات الحضارية التى تتناول عصره، بل إن كتب الرحلات - بعامة - أصبحت المصدر الأهم لدراسة هذه الحقب، حتى إن باحثا ممتازا مثل «آدم متز» اعتمد هذه النصوص كوثائق يستند عليها لرسم لوحة حضارية غاية فى الروعة للقرن الرابع الهجرى، وهذا ما يمكن ملاحظته بسهولة بعد تصفح كتابه: «الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى».

والغريب أنه : رغم ذلك الاهتمام بها كمصادر حضارية، فإنها غير معتبرة كفن أدبى مستقل، ولعل ذلك يعود إلى موقف الرحالة أنفسهم، وعدم حرصهم على تأكيد المضامين الفنية فى كتاباتهم.

إن الاهتمام بالطابع المعرفى أمر طبيعى، والاهتمام بالطابع الشعبى كذلك. ولعل الاهتمام بالطابع الأخير يعود إلى إدراك الرحالين أنهم متوجهون بكتاباتهم إلى عامة الناس - الجمهور، وأنهم لا يقدمونها إلى طبقات خاصة فى المجتمع، ولذا فإن مراعاة ذوق الجمهور كان أمرا طبيعيا. وكان اهتمام الرحالة بالطابع النقدى دليلا على انتقالهم من مرحلة التسجيل والنقل الحرفى، إلى مرحلة التحليل والتفسير، ثم التقويم. وهذا أثر طيب من آثار الرحلات نفسها، ولعل أبرز من انتبهوا لهذا الجانب : المقدسى والمسعودى وابن حوقل والتاجر سليمان وابن فضلان - وإن اختلط الطابع النقدى عند ابن فضلان، وابن حوقل، والمقدسى بالطابع الفكاهى الذى يحمل فى طياته سخرية من فئات وأجناس بعينها.

وإهمال الطوابع : الفردية، والإنسانية، والجمالية، والكشفية هو سمة هذه المرحلة ككل، وإذا كان بعض الرحالة قد تنبه لقيمتها، فإن توجههم كان توجها فرديا لا ينفى القاعدة العامة، ولعل أكثر الرحالين تضمينا لهذه الطوابع كان المقدسى، يليه بزرك بن شهريار، وابن فضلان.

وفيما يتعلق بسيادة طوابع مضمونية بعينها عند أصحاب الاتجاهات المختلفة -

يشار إلى أن الطابع المعرفى كان قاسما مشتركا عند أصحاب «الجغرافيا الوصفية» تلاه الطابعان، الشعبى، والوثائقى. أما أصحاب نصوص «الأدب الجغرافى» فاشتركوا فى طوابع مضمونية ثلاثة : الطابع المعرفى، والطابع الشعبى، والطابع النقدى، مع إضافة طوابع أخرى فى حال المقدسى خاصة، والتركيز على الطابع الفكاهى عند ابن حوقل. أما أصحاب نصوص «أدب الرحلات» فقد تصدر الطابع المعرفى قائمة اهتماماتهم، تلاه الطابع الشعبى، فالنقدى، فالفكاهى، فالفردى، مع الإشارة إلى التميز الواضح لكل من : ابن فضلان، وبزرك بن شهريار، والأسف لضياع النص الكامل لرحلات الغزال الأندلسى، والإشادة بالدور المتميز الذى لعبه العلماء فى هذا المجال – خاصة الفقهاء وأصحاب الحديث، ولعل نموذجى الإمام الشافعى والإمام الرازى يدلان على ذلك. والملاحظة الهامة – فى هذا الصدد – أن أصحاب كتب أدب الرحلات كانوا أكثر تفتحا من أصحاب كتب الأدب الجغرافى والجغرافيا الوصفية، فالصنفان الأخيران اقتصرا على وصف مملكة الإسلام بعامة أو إقليم بعينه خاصة، بينما تعدى أصحاب كتب أدب الرحلات هذه الحدود، وجاءت أغلب أوصافهم لأراضٍ وشعوب غير عربية أو إسلامية، مما يعنى انفتاحا مستنيرا على العالم، وإدراكا حقيقيا لدور الرحلة والرحالة فى التقريب بين الشعوب.

وفيما يتعلق بطريقة التدوين، يلاحظ أن التدوين المكانى كان السائد فى هذه الحقبة، تلاه التدوين الزمانى فى كتب أدب الرحلات خاصة، ثم التدوين الاستدعائى، وأخيرا التدوين الموضوعى، بينما لم يحظ التدوين الانتقائى بنصوص مفردة إلا فى فترات تالية.

وبينما يسيطر التدوين المكانى على نصوص الجغرافيا الوصفية، ينازعه التدوينان: الموضوعى والاستدعائى فى حال نصوص الأدب الجغرافى، ويشارك التدوين الزمانى التدوين المكانى فى كل نصوص أدب الرحلات، ولعل هذا يشير إلى ضرورة تلازمهما فى أى نص من هذا النوع.

طبيعى أن يسود التدوين المكانى نصوص الجغرافيا الوصفية، بينما يعنى تبادله مع التدوين: الاستدعائى والموضوعى – فى كتب الأدب الجغرافى ـ أن أصحابها –

وإن كانوا يكتبون علما، فإنهم لم يغفلوا الجوانب الأدبية، وحاولوا أن يوازنوا بين الجانبين، ولكن كفة العلم كانت ترجح دائما. ولم يتحقق التوازن بين كفتى العلم والأدب إلا فى كتب أدب الرحلات التى مزجت الزمان والمكان، واعتمدت - فى المقام الأول - على شخص الرحال الذى كفل الترابط بين أجزاء العمل الواحد، بحيث دارت جميعا فى فلكه، ولم تشذ عنه، فكان عامل توازن وجذب، لا عامل تفريق وتمزيق.

إن شخص الرحال يكاد يكون مختفيا فى نصوص الجغرافيا الوصفية، بينما يظهر على فترات متقطعة فى حال الأدب الجغرافى، أما فى أدب الرحلات فحضوره دائم وفاعل. وهذا الحضور هو الذى يكفل الوحدة الموضوعية للعمل، ويضفى عليه السمة الفنية، مما يجعله جديرا بالانضمام إلى حظيرة الأدب.

ومن حيث البنية، يلاحظ أن البنية المحورية تسيطر على أغلب نصوص الجغرافيا الوصفية، والأدب الجغرافى، ولا تترك للبنية النمطية إلا نصين فقط، بينما العكس حادث فى حال نصوص أدب الرحلات، إذ تسيطر البنية النمطية ولا تترك إلا نصا واحدا للبنية المحورية، بينما لا تحظى البنيتان : الانتقائية أو الفنية بنصوص مفردة، إنما يمكن القول : إنهما متضمنتان بشكل أو بآخر فى معظم النصوص. ويعنى هذا أن البنية المحورية تناسب الجغرافيا الوصفية والأدب الجغرافى؛ لأن الجانب العلمى أكثر وضوحا فيهما، وأن البنية النمطية التي تتبع خط سير الرحلة من لدن التفكير في انطلاقها وحتى عودتها هى أنسب البنى لأدب الرحلات، لأنها تتيح التركيز على الرحلة نفسها، وما يحدث للرحال فيها، مما يجعل المجال واسعا لتضمين العناصر الأدبية.

إنه لا يمكن فرض طريقة تدوين معينة، أو بنية بعينها، على الرحال باعتباره فنانا، وإنما يمكن استخلاص أن ثمة طريقة تدوين مثالية وأن ثمة بنية مثالية. وهذا الاستخلاص يتم عن طريق تتبع النصوص التطبيقية الإبداعية، وعندها يمكن القول: إن طريقة التدوين المثالية هى تلك الطريقة التى يتفق عليها الرحالون عمليا فى إبداعاتهم. ولاشك أن الرحالين كانوا يراعون عوامل عديدة أثناء شروعهم فى

إبداع أعمالهم، لعل أهمها مراعاة الجمهور الموجهة إليه هذه الأعمال، وهذا يعنى أن صلة وثيقة تربط بين أدب الرحلات والجمهور.

العقبة الرئيسية التى تقف فى سبيل التقويم الدقيق لأسلوب أدب الرحلات العربية – فى هذه الحقبة – تتمثل فى عدم الثقة فى صحة ودقة النصوص التى وصلت إلينا، وانعدام الثقة هذا مرده إلى المؤلف نفسه، أو إلى الناسخ، أو إلى المحقق ـ إذا كان ضعيفا، ومع هذا – يمكن ملاحظة أن النشاط اللغوى لأصحاب كتب الرحلات ينقسم إلى قسمين رئيسين :

الأول : يتمثل فى تلك الملاحظات اللغوية التى حرص الرحالة على تدوينها عن كل إقليم يحلون به، أو عن جماعات لغوية، مما يساعد على رسم خريطة لغوية دقيقة للعالم الإسلامى فى حقب بعينها.

الثانى : يتمثل فى تلك السمات العامة التى تجمع كتاب هذا النوع، والتى تتناسب مع طبيعة الموضوع الذى يكتبون فيه، ويمكن – هنا – التفريق بوضوح بين فرق ثلاث :

الفريق الأول : يستخدم النثر العلمي الخالص، بكل ما له من خصائص وأهمها: السهولة، واليسر، وعدم التكلف أو الميل للتزيين، أو عدم استخدام الخيال بدرجاته كافة، والقصد المباشر إلى الهدف. وهذا الاتجاه غلب على أصحاب كتب الجغرافيا الوصفية.

الفريق الثانى : يستخدم النثر العلمى أيضا، ولكنه يزوده – من حين لآخر بعض اللمحات المنتمية للنثر الأدبى الفنى، خاصة استخدام المحسنات البديعية فى المقدمات: مقدمة الكتاب، ومقدمة كل فصل. ولهذا يمكن القول: إنه نثر علمى متأدب، وإن ظلت الصبغة العلمية مسيطرة. وهذا الاتجاه غلب على أصحاب كتب «الأدب الجغرافى».

الفريق الثالث: لم يكن فى ذهنه أنه يكتب فى الجغرافيا، ولذا جاء نثره أدبيا خالصا، يميل إلى القص البدائى الساذج الذى يتتبع خط سير الرحلة من لدن بدايتها، وحتى نهايتها.

إنه لا اهتمام لدى الفريق الأول بالأسلوب إلا باعتباره وسيلة فحسب، أما الفريق الثانى فظل موقفه مذبذبا بين : اعتبار الأسلوب وسيلة وبين اعتباره غاية، أما الفريق الثالث فقد أولى الأسلوب اهتماما أكبر، فأصبح قريبا من الغاية. ولكن ما يجب التنبيه عليه أن المنتمين للفريق الأخير كانوا بعيدين عن التكلف تماما، وأن أسلوبهم كان أدبيا، لأنه كان أداة تعبير عن موضوعات أدبية إنسانية، وعن تجارب انفعلوا بها، وتأملوها، ثم سجلوها فى شكل أدبى.

وعند أصحاب كتب «أدب الرحلة»، وبعض أصحاب كتب «الأدب الجغرافى» الذين ينحون منحى أدبيا – ظهرت بعض الخصائص التى تميز أسلوب «أدب الرحلة»، منها :

– استخدام المفردات السهلة المألوفة، وشرح المفردات الأعجمية ـ إن وردت. وقد يسهل الأسلوب ويرق حتى يصل إلى درجة استخدام الألفاظ العامية، أو لدرجة الركاكة.

– غلبة الجملة الفعلية على الجملة الاسمية، لدلالتها على الحركة، وهذه الجملة الفعلية تستخدم الأفعال الدالة على الحركة بصورة ملحوظة، وليس هذا غريبا، لأنه يتفق مع طبيعة الرحلة.

– وعند استخدام الجملة الاسمية، فإنها تكون قصيرة غالبا ؛بحيث تتفق وطبيعة الرحلة، كما تتكون من الركنين الرئيسيين للجملة: الاسم والخبر، وخاصة الاسم والخبر المفردين.

– وهم يميلون إلى استخدام السرد القصصى، باعتبار أن الرحلة حكاية لها بداية ووسط ونهاية، كما يستخدمون الوصف أحيانا حين ينفعلون إزاء موقف معين. أما أفضل ميزاتهم فتتمثل فى الاستخدام الذكى للحوار الكاشف الدال، ويبرز فى هذا المجال كل من: الإمام الشافعى، وابن فضلان، وبزرك بن شهريار، والمقدسى.

– ويبرز عند أصحاب كتب الأدب الجغرافى الاستشهاد بالقرآن الكريم، والحديث الشريف، كما يستشهدون بالشعر بشكل لافت. والملحوظ فى الاستشهاد بالشعر تكرار أشعار بعينها فى معظم كتب هذا الاتجاه.

– وثمة طوابع أسلوبية يختص بها كتاب معينون، مثل استخدام «كان» بكثرة، وتوكيد الضمير المتصل بضمير منفصل، وجر ضمير الغائب بالكاف، واستخدام أفعال التفضيل بكثرة.

– وبصدد الطابع الأخير يشار إلى ذلك النمط الذى نشأو نما على أيدى الرحالة، أى : نمط الفضائل والمثالب، فلا يكاد كتاب يخلو من المساهمة بنموذج أو أكثر من هذا النمط.

ويمكن – بشكل عام – القول بأن أسلوب الكتب المنتمية لأدب الرحلات كان أسلوبا خاصا، بحيث لم يتفق مع الأسلوب السائد فى عصره، فبينما كان استخدام المحسنات البديعية على أشده فى القرن الرابع الهجرى – على سبيل المثال – فإن لجوء أصحاب كتب أدب الرحلة إليه كان نادرا، بل إنهم عملوا على تجاوزه، واستخدام ما كان سهلا ممتنعا.

* * *

لقد سعت هذه الدراسة إلى رسم لوحة عامة للنصوص التى تناولت الرحلات حتى نهاية القرن الرابع الهجرى، واستعانت على ذلك بأسس تم استخلاصها من النصوص نفسها، فكانت الدراسة النقدية معلما لها يميزها عن غيرها من الدراسات فى هذا المجال – تلك الدراسات التى أوقفت جهدها على الوصف، وركزت على المضمون – دون التفات إلى البناء الفنى.

والأمل أن تخرج إلى النور قريبا – بمشيئة الله – دراسات أخرى أعددتها لتكوّن سلسلة توفى هذا النوع حقه، وتكون حافزا للآخرين حتى يقتربوا من عالم هذا النوع الأدبى المتميز

ولا يفوتنى أن أقدم الشكر للأستاذ الدكتور حسين نصار والأستاذ الدكتور محمود على مكى لما قدماه لى من عون صادق، ونصح مخلص – حتى تخرج هذه الدراسة على هذا النحو.

والله أسأل أن يتقبل عملنا هذا خالصاً لوجهه، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وينفعنا بما علمنا – إنه نعم المولى، ونعم النصير.

الفصـــل الأول

الرحلة العربية.... وأدب الرحلات

«المفهوم»

الرحلة العربية... وأدب الرحلات

فيما يشبه الإجماع، اتفق الباحثون على أن الرحلة العربية مرت بأطوار متعددة، حتى بلغت أوج ازدهارها فى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى، وهو ازدهار أدت إليه عوامل كثيرة، كان أهمها الازدهار الحضارى فى القرن نفسه.

هذا الازدهار الحضارى العام، وازدهار الرحلة بشكل خاص، أملى على أصحاب الرحلة النابهين أن يدونوا وقائع رحلاتهم يحدوهم إلى ذلك أسباب متعددة.

وحسب الهدف ومدى تمكنه من الرحال، وتحكمه فيه، انقسم نتاج الرحلات المدونة إلى ثلاثة أقسام رئيسية :

أ – جغرافيا وصفية، يسيطر عليها النهج العلمى.

ب – أدبى جغرافى، يوازن بين النهج العلمى، والأسلوب الأدبى.

جـ –أدب رحلات، يمثل الأدب فيه محور الانتباه – وإن لم يخل من الجانب العلمى الذى يرد فى صورة غير مباشرة.

لقد توزعت النصوص التى تتناول الرحلات العربية على هذه الأقسام الثلاثة، وكان النتاج كبيرا من حيث الكم، ثريا من حيث الكيف.

هذه النصوص حظيت بقدر كبير من الاهتمام باعتبارها مصادر حضارية، وعلمية، واجتماعية... إلخ، وكانت الثقة فيها كبيرة، ولكن.. واكب هذا الاهتمام إهمال لها باعتبارها «نصوصا أدبية» فلم تحظ بدراسات أدبية ملائمة – لا قديما ولا حديثا – باستثناء محاولات قليلة. وهذا الموقف شارك فيه الباحثون العرب، والمستعربون– على السواء.

ويلاحظ أن كثيرا من المستعربين قدموا خدمات جليلة لهذا الفرع من الدراسات، حتى إنه يمكن اعتباره الفرع الأول الذى نال اهتمامهم، فحققوا النصوص تحقيقا علميا دقيقا، وراعوا أسسا منهجية صارمة فى تحقيق النصوص

ونقدها، فالنص الفرد كان يعاد تحقيقه وطبعه أكثر من مرة فى سنوات متقاربة - إذا ظهرت مخطوطة جديدة، أو تلقى محققه ملاحظات من قارئيه.

هذا كله أتاح الفرصة لدراسة فنية لم تتحقق حتى الآن بالشكل المرجو بسبب النظر لهذا النوع على أنه فرع من الجغرافيا.

إن الدراسات العربية لا يمكن - بحال - مقارنتها بالدراسات الأوروبية فى هذا المجال، فالمقارنة ستكون فى غير صالح الباحثين العرب. ولكن.. «يتزايد الشعور - الآن - بأن الباحثين الذين ينتمون إلى الوسط الثقافى الإسلامى، قد يكونون أقدر على تقدير وتقويم هذه الثمار الرائعة، كما إنهم - فى هذا السبيل - قد يمكنهم أن يتوقوا كثيرا من المزالق، ويتغلبوا على شيء من الصعاب الثقافية، واللغوية، والدينية، والاجتماعية، التى تعترض سبيل الباحث الغريب - مهما كان مدققا فى عمله، متجاوبا فى روحه»[1].

والملاحظ أن الدراسات العربية - فى هذا المجال - سلكت نهج المستعربين، وانقسمت إلى اتجاهين :

أ - دراسة الموضوع بشكل عام.

ب - الاقتصار على رحلة واحدة فقط.

الفريق الأول درس هذه النصوص إما باعتبارها نصوصا جغرافية خالصة، أو من وجهة النظر التاريخية، مكتفيا بترتيبها ترتيبا زمنيا، مع اقتباس بعض الفقرات، والتعريف بصاحبيها تعريفا عابرا. ولكن هذه الدراسات قلَّ خطرها عندما طوّق صلاح الدين عثمان هاشم عنق الأدب العربى بترجمته المتميزة لكتاب «كراتشكوفسكى» النفيس «تاريخ الأدب الجغرافى العربى».

وثمة دراسات اقتربت من الأدب، أو حامت حوله دون أن تختص به، أو تنفذ إلى صميمه - إضافة إلى بعض المقالات التى ضمنتها دوريات كرست أعدادا خاصة لأدب الرحلات.

---

(١) جهود المسلمين فى الجغرافيا. نفيس أحمد. ترجمة فتحى عثمان. القاهرة دار الهلال د ت ١٥، وقد أعيد نشره باسم «الفكر الجغرافى فى التراث الإسلامى عام ١٩٨٤. دار القلم. الكويت

أما الفريق الثانى، فقد تناول رحالا - أونصا - بالدرس : إما فى مقدمة تحقيقه للنص، أو متتبعاً إياه فى رحلته، باحثا، ومنقبا، ومحللا، غير أن الجانب الفنى باهت فى أغلب تلك الجهود.

المحصلة : أن نصوص الرحلات العربية - فى الإطار الزمنى لهذه الدراسة لم تحظ بدراسات توفيها حقها، وترفع عنها الغبن الذى لحق بها من جراء استخدام مناهج غير ملائمة فى دراستها، وهذا كله يدعو إلى درسها من منظور جديد.

* * *

الرحلة.. فى اللغة

إذا اعتبرنا أن الحجم الذى تحتله مادة ما فى معجم لغوى دليل على أهميتها، فإن مادة «رحل» نالت اهتماما خاصا من «صاحب اللسان»، باعتبارها مادة متداولة على نطاق واسع، ونابعة من واقع البيئة العربية. جاء فى «لسان العرب» أن :

- «الرحيل والإرحال بمعنى الإشخاص والإزعاج. يقال : رحل الرجل إذا سار، وأرحلته أنا. ورجل رحول، وقوم رحَّل: أى يرتحلون كثيرا. ورجل رِحَّال : عالم بذلك مجيد له... والراحلة من الإبل : البعير القوى على الأسفار والأحمال.. وناقة رحيلة: أى شديدة قوية على السير.. وارتحل البعير رحلة : سار فمضى، ثم جرى ذلك فى المنطق، حتى قيل : ارتحل القوم عن المكان ارتحالا، ورحل عن المكان يرحل، وهو راحل من قوم رحَّل.

- «والترحُّل والارتحال: الانتقال، وهو : الرِّحلة والرُّحلة. والرحلة اسم للارتحال للمسير.

- «والمرحلة : المنزلة يرتحل منها، وما بين المنزلتين مرْحَلَة»[1] .

ويُلاحظ ما يلى على هذه المادة :

أ - أن مشتقات المادة جميعا تدور حول محور واحد هو الحركة، والرحلة فى جوهرها حركة وانتقال.

(١) لسان العرب. ابن منظور تحقيق عبد الله الكبير وآخرين، ط دار المعارف ١٩٧٩. ص ص ١٦٠٩ - ١٦١١.

ب - أن التقليبات المختلفة للمادة مثل : حرل - لرح - لحر.. إلخ - غير مستعملة فى العربية، ولعل هذا يعود إلى استئثار تلك المادة - بهذا الترتيب - بالنصيب الأوفر من حيث الاستخدام، مما أدى إلى الجور على التقليبات الأخرى.

جـ - اسم الفاعل من رحل: راحل، وصيغة المبالغة: رَحّال. وهذه الصيغة كانت اسما أو لقبا لبعض الجاهليين، كعروة الرحال الذى كان سببا فى يوم «الفجار»، وكذا أورد «ياقوت» فى معجمه هذا الاسم «رحال بن عنقرة»[1]. وقد تزاد التاء للمبالغة، فيقال : «فلان الرَّحَّالة»، ولكن هذه الصيغة تختلط مع جمع التكسير حين نقول : «الرحالة المسلمون»، ولذا يفضل الاكتفاء بالصيغة الأولى دون زيادة التاء، حتى لا تختلط بجمع التكسير.

* * *

الرحلة.. فى الاصطلاح

عرّف الإمام الغزالى السفر - والرحلة- بأنهما: «نوع حركة ومحالطة»، أو : «نوع مخالطة مع زيادة تعب ومشقة»، وأوضح أن «الفوائد الباعثة على السفر لا تخلو من هرب أو طلب، وأن الإنسان لا يسافر إلا فى غرض، والغرض هو المحرك»[2].

وعرفها «بطرس البستانى» بأنها : «انتقال واحد - أو جماعة - من مكان إلى مكان آخر، لمقاصد مختلفة، وأسباب متعددة»[3].

وتقدم د/ صلاح الدين الشامى خطوات حين عدها «إنجازا أو فعلا فرديا أو جماعيا لما يعنيه اختراق حاجز المسافة، وإسقاط الفاصل المعين بين المكان والمكان الآخر، ويتأتى هذا الإنجاز من أجل هدف معين، ويجاوب هذا الهدف إرادة الإنسان

(١) معجم البلدان. ياقوت الحموى - دار صادر/ . بيروت ١٩٨٦ ٥/٤٠٥.

(٢) إحياء علوم الدين - الإمام الغزالى مكتبة الدعوة الإسلامية «القاهرة» م د. ت ٢/٢٤٥، ٢/٢٥٠، ٢/ ٢٦٠.

(٣) دائرة المعارف. بطرس البستانى. مطبعة المعارف بيروت ١٨٨٤، ٨/ ٥٦٤.

وحركة الحياة على الأرض بشكل مباشر أو غير مباشر.. وقد تكون الرحلة هواية تشبع حاجة الإنسان وترضيه، وقد تكون احترافا يخدم حاجة الإنسان ويشبعه، ولكنها تكون – في الحالتين – استجابة مباشرة لحوافز ودوافع محددة تدعو بكل الإلحاح للحركة والتنقل»[1].

إن التعريفات السابقة تجمع على أن الرحلة فى جوهرها حركة، وهذه الحركة ذات هدف – وإلا كانت سفها – قد يتحقق وقد لا يتحقق، وسيتم – في الحالتين كلتيهما – اكتساب خبرات عملية وفكرية ناجمة عن المخالطة. وبذلك يتم التقابل بين الرحلة فى اللغة والاصطلاح حيث يجمعهما أنهما «حركة».

الرحلة والحركة:

الحركة جوهر الرحلة، وهى مكون أصيل من مكونات الإنسان، لأن الحركة دليل حياة ـ كما يقول ياقوت الحموى، والسكون ـ عنده ـ «من دلائل الموت، وأن تتحرك حركة ضعيفة يؤمل أن تقوى، أحب إلى من أن تسكن».[2] وهى عند أبى حيان التوحيدى «أوضح برهان على كل موجود حسى».[3] بل إن من يتحرك حركة ولو بسيطة يستحق «مكافأة لأنه انتقل من مكان إلى مكان، أو فكر فى أن يترك الأرض التى ضاق بها، أو البيت الذى مل الإقامة فيه»[4] وإذا كان «الذهاب يقتضى العودة ثانية، فإن دلك تحرك دائم، وفى كل حال ـ ذهاب أو عودة ـ فإن تلك حركة، والحركة ـ أية حركة ـ شيىء ممتاز».[5] وليست كل حركة رحلة، وما يميز الرحلة عن غيرها أنها غاية لذاتها، أى أنها حركة من أجل الحركة ذاتها ـ ابتداء، بينما غيرها وسيلة. ولأن الرحلة حركة أصيلة، فإن الرحالين يتغاضون عن وصف فترات التوقف والسكون العارض لعذر قاهر أو عير قاهر، بل إن كثيراً من الرحالين أعلن ضيقه وبرمه بالملل الذى يحل به من جراء طول المقام فى مكان

---

(١) عالم الفكر. د/ صلاح الدين الشامى عدد يناير ١٩٨٣، الكويت، ص ١٣.

(٢) معجم البلدان جـ٢/ ٤٢٠

(٣) الإمتاع والمؤانسة. أبو حيان التوحيدى تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، بيروت ١٩٥٣، حـ١/ ١٥٦

(٤) غريب فى بلاد عربية أنيس منصور دار الشروق القاهرة ١٩٧٥ ص٥

Travel Quest.M.A.Michael.London 1950.P.289

واحد، مما دفعه إلى استنزاف كل طاقات المكان الذى حل به، محولا الحركة من التوسع الأفقى إلى التوسع الرأسى... المهم أن تكون هناك حركة ـ غير أن المبدأ أنه كلما سمت همة الرحال إلى زيارة أماكن بعيدة ـ جديدة ـ باذلا جهداً نحو الحركة المتوسعة أفقيا، فإن ذلك يدلك على سعة أفقه وتوفره على طاقات خلاقة.

وهذه الحركة ليست على المستوى البدنى فحسب، وإنما يجب أن تشمل المستويات كافة، لابد أن تعمل جميع الحواس بطاقتها القصوى، وأن تكون مستنفرة وفى حالة يقظة دائمة ـ حتى ينعكس ذلك إيجابيا على وصف الرحلة. ويجب أن يكون فى الحسبان أن قوة حركة الرحلة ليست على وتيرة واحدة، فمن شأن الرحلة «أن تبدأ وهى فى أشد حالات التشوق واللهفة والإصرار، ولكن عندما تخرج بالفعل، وتتحرك على الطريق، وتضرب فى الأرض– قد لا تملك الحماس لكى تتعجل، ولا تجد المبرر لكى تواصل التحرك من غير توقف، ولا يبقى لها بعد ذلك إلا الإصرار ـ مهما بعدت الشقة ـ على استمرار التحرك وبلوغ الغاية. ولا شىء مهماً يمكن أن ينهى العزم أو أن يحبط الإصرار.. ولا مانع من التوقف طويلا، والتخلف من حين لآخر لالتقاط الأنفاس... ولا تعارض أبداً بين التشوق واللهفة التى تحفز الرحلة وتتعجل خروجها من ناحية، والتأنى والتوقف أكثر من وقفة على الطريق من ناحية أخرى... طلبا للرزق الحلال وجمع نفقات الرحلة»[1].

دوافع الرحلة وأسبابها:

يحرك الرحلة ويخرجها شيئان:

١ ـ دوافع ذاتية.

٢ ـ أسباب عامة.

الدوافع الذاتية هى الأساس الذى تبنى عليه الرحلة، ثم تأتى الأسباب الظاهرية والعامة لتكون مبرراً مقبولاً للقيام بهذه الرحلة.

(١) الرحلة عين الجغرافيا المصرة. د. صلاح الدين الشامى. منشأة المعارف. الإسكندرية ١٩٨٢. ص ٩٨ ـ ٩٩.

الأساس أن الرحلة غاية، وأنها ضرورة، بمعنى أنها ليست ـ فى حال الرحال الأصيل ـ ترفاً ولا سبباً لنيل شهرة. إنها «عادة ضارة» كما يقول أحد الباحثين، ولكن هذا الضرر قد يتحول إلى نفع إذا أفلحت فى تحقيق أهدافها.

إن المقصود بالضرورة هنا: «الضرورة الذاتية التى تدفع الإنسان للرحيل رغم أنها قد تكون مضادة لرغباته، أو منافية لتوجهاته العقلية، ومخالفة لاستحسان الآخرين... وربما كان فى نية الرحال أن يعود عندما يرضى بعضا من فضوله وحب استطلاعه، وعندما يخمد حافزه لرؤية الأقطار الأخرى وسكانها، ولكن الرحلة من أجل الرحلة ذاتها كالإبحار الممتع، أو مجرد طواف الأرض، ليست إلا المحركات الطبيعية للرحلة»[1].

ورغم ذلك فإن الرحلة «حالة عقلية»، بمعنى أنها ليست ضربا من تغييب الوعى.. بل هى محاولة لإعادة هذا الوعى فى صورة قوية.

وما يلى محاولة لرصد أهم دوافع وأسباب الرحلة دون ادعاء حصرها.

إن الرحلة تخرج من أجل:

- الكشف عما يجمع ولا يفرق، عما هو أصيل غير عارض، عن حقيقة الكون.

- الرغبة فى العزلة والتأمل لأنهما «اثنتان من الحاجات الضرورية اللازمة لأى شخص مفكر.. وما يسمى بحالة الانشراح لا يمكن انتظارها بل يجب أن نسعى إليها بأنفسنا»[2] ذلك الانشراح هو الذى يؤدى للتجلية والكشف والإبداع.

- البحث عن الجمال المفقود، والسلام المنشود، والفوضى الفطرية: «إننا مفتقرون للجمال.. والسلام واحد من الاشياء التى نبحث عنها... إنك تبحث عن السلام حيث لا يوجد الإنسان، أو ـ على أى حال ـ حيث مازال الإنسان على الفطرة»[3]

---

1 - Travel Quest P.P.241&243.

2 - Ibıd. P.14.

3 - Ibid.P.9

- الوحى والإلهام من أجل الإبداع، وقد كان بعض الشعراء العرب يرحلون إلى البادية إذا تعذر عليهم قول الشعر، فتعمل الصحراء الخالية على تصفية الذهن وتجويد القريحة. سئل الشاعر الأموى «نصيب»: «أتطلب القريض أحيانا فيعسر عليك؟ فقال: إى والله لربما فعلت، فآمر براحلتى فيشد عليها رحلى، ثم أسير فى الشعاب الخالية، وأقف فى الرباع المقوية، فيطربنى ذلك، ويفتح لى الشعر»[1].

- وقد يكون الملل الناجم عن الحياة الرتيبة التى يحياها الإنسان دافعاً للرحلة، والرغبة فى التجديد والتغيير قد تلح على الرحال، فتقض مضجعه وتقلق باله، فلا يستريح إلا إذا خطا الخطوات العملية التنفيذية من أجل الرحيل.

- وقد يخرج الرحال إرضاء لفضوله وحب استطلاعه.

- وقد تكون الغيرة الشخصية، أو طلب الشهرة من دوافع الرحلة.

- وقد تصبح الرحلة داء لا يمكن الخلاص منه، فيطلق على صاحبها اسم «الجوال» أو «جوالة».. وقد حظى بهذا اللقب مسلمون كثيرون.

- وباعتبار الرحلة مصدراً حيا من مصادر زيادة الخبرات، فإن كثيرين يلجأون إليها من أجل تنمية قدراتهم الذاتية على مواجهة الحياة فى مختلف الظروف.

- وقد تكون الرحلة من أجل العلم، فهى معلم ممتاز على المستويين: النظرى والعملى، كما أنها وسيلة للإيمان، أو لتثبيته وتأكيده، وذلك من خلال ما يراه الرحال من عجائب وغرائب وبديع صنع.

- وقد تكون الرحلة من أجل القيام بأعمال رسمية، خدمة للدولة التى ينتمى إليها الرحال، كالسفارات الرسمية، ورحلات البريد... إلى عير ذلك.

- وقد تكون ظروف تاريخية معينة داعية للرحلة، كتحرير القدس وزيارة الرحال العربى «ابن جبير» لها، وكاتجاه الأوروبيين إلى الكشف والرحلات كوسيلة من وسائل تعويض الفشل الذى منيت به الحملات الصليبية.

---

(١) الأغانى ١/٣٧٥

وقد تكون الرغبة الشخصية لحاكم وراء الرحلة، كرحلة «سلام الترجمان» للتأكد من قوة السد وسلامته، ورحلات الكثيرين للتأكد من صحة وجود أهل الكهف، أو الكشف عن منابع النيل.

- وقد تكون الرحلة من أجل الجهاد أو تأديب الخارجين.
- وقد تكون من أجل التجارة والكسب المادى بعامة.
- وقد تكون من أجل تأدية فرائض دينية كالحج، أو زيارة المقدسات والأولياء.
- وقد تخرج وفى نيتها نشر دين والدعوة إليه.
- وقد تكون الظروف التى تمر بها دولة سبباً فى الرحلة، خاصة إبان قوة تلك الدولة وازدهارها الحضارى، مما يحفز مواطنيها على رؤية البلاد الأخرى.
- وقد تكون الظروف المواتية والتسهيلات الممنوحة للرحلة وأصحابها دافعا للقيام بها فقد اهتم الإسلام - على سبيل المثال - بأبناء السبيل، وجعل لهم نصيبا مفروضا من الزكاة والصدقات، كما بث فى نفوس أبنائه حب الغرباء، وتمثل هذا الحب فى جهد فردى، أو جهد جماعى أسفر عن تكوين جماعات مهمتها القيام بحاجة الغرباء كجماعة «الفتيان»، وناصر كبار رجال الدولة مثل هذه الجماعات، وانضم إليها بعض الخلفاء والسلاطين والأمراء والوزراء والقواد. وكذا حث الإسلام على السفر، وخفف من واجبات المسلم أثناءه، ومن المحتمل « أن إباحة تعدد الزوجات فى الإسلام كانت تخفف بعض متاعب السفر، ولا تجعل الرحالة المسلمين محل شكوك أو مصدر متاعب اجتماعية، فكان بعضهم يتزوج فى البلاد التى ينزل فيها فترة من الزمان».[(١)]

ومن هنا كان التأكيد على وجوب معرفة أسباب كل رحلة ودوافعها. وفى حالة كون السبب ظاهريا لابد من التماس دافع ذاتى يكمن فى داخل الرحال ويحركه، وإذا لم يتوفر هذا الدافع ـ أصلاً ـ فقدت الرحلة قيمتها، وأصبحت مجرد وظيفة يقوم بها إنسان- إن طوعاً وإن كرها.

---

(١) الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى. د/ زكى محمد حسن دار المعارف، ١٩٤٥، ص١١

وفى هذا الصدد تجدر الإشارة إلى وجود فارق أساسى بين دوافع وأسباب الرحالة القدماء، ودوافع وأسباب الرحالة المحدثين، ويتمثل هذا الفارق فى انبهار القدماء بكل ما هو من عمل الإنسان، وإغفالهم ــ فى الأغلب ــ للطبيعة البكر، بينما يغفل الرحالة المحدثون كل ما قد تدخلت فيه يد الإنسان بالتعديل أو التحريف، إنهم يبحثون عن كل ما هو بكر وفطرى وبدائى.

التغير العظيم الذى حدث للرحلات فى رأى أحد الباحثين ــ هو «التغير من الاهتمام بالإنسان وأعماله إلى الطبيعة وجمالها.... إنه لم يكن هناك حب للطبيعة منذ كان الناس لا يحملون أى تقدير لجمالها إلا إذا تعرضوا لعمل الإنسان فيها أو «لبست ثوبنا»، وفى هذه الأيام سافر الناس أساساً ليروا مماثليهم، وليعلموا المزيد عنهم، ولكننا تخلينا عن بعض غرورنا منذ ذلك الحين، وأصبحنا فى السبيل لأن نرى الطبيعة أعظم فنان، وأن عمل الإنسان يشوه ــ فى الغالب ــ أكثر مما يحسن فيها».[1]

إلا أن هذا الرأى يصدق فحسب على الرحالة الأوروبيين، أما الرحالة المسلمون فقد وازنوا بين الرغبة فى رؤية بديع صنع الله ــ تعالى ــ فى كونه، وبين ما صنعته يد الإنسان ــ خليفة الله فى الأرض.

---

1 - Travel Quest P.3.

أنواع الرحلة العربية

في تناول الباحثين المعاصرين لتصنيف الرحلات العربية ـ أو الرحالين، ظهر اختلافهم بينا، ففريق اتبع النهج التاريخي، فلجأ إلى الفترة الزمنية كحكم، وغيرهم خلط بين المنهجين: التاريخي والجغرافي،وفريق ثالث استنطق النصوص فأخرج أنواعا لا رابط بينها، وفريق ذهب يعدد ما هو ممكن لا ما هو واقع بالفعل، وفريق ـ أخير ـ اقترب من الحق.

فالدكتور «أحمد رمضان» قسم الرحالة ـ لا الرحلة ـ إلى: رحالة جغرافيين، ورحالة مشارقة، ورحالة مغاربة. والخلط في المنهج واضح.

والدكتور «شوقي ضيف» صنف الرحلات إلى: رحلات جغرافية، ورحلات بحرية، ورحلات في الأمم والبلدان. وحال هذا التصنيف كسابقه.

أما الدكتور« حسين فوزى» فقد ميز بين فرق أربع وصفت البلدان:

١ ـ فريق جمع معارف غيره من معاصرين وقدماء، كالبيروني، والإدريسي، وأبي الفدا.

٢ ـ فريق تنقل في البلاد، ووصف ما رأى وعرف، مثل: التاجر سليمان، وأبي دلف، وابن جبير، وابن بطوطة.

٣ ـ فريق عني ـ بحكم مقره أو وظيفته ـ بتدوين ما سمعه من الرحالين والتجار، وما تحويه أضابير ديوانه من معارف، أمثال: ابن خرداذبه، والجيهاني، وأبي زيد الحسن السيرافي.

٤ ـ فريق سافر إلى بعض الأصقاع، ولكنه لم يكتف بمشاهداته الشخصية بل راح يضيف إليها ما طالعه في كتب غيره، أو سمعه في حله وترحاله من أفواه السفار وهواة المعارف الجغرافية، ومن هؤلاء المسعودي، والبيروني، وياقوت الحموي(١).

(١) حديث السندباد القديم د/ حسين فوزى دار المعارف ١٩٤٣ ص٣٧

وأغرب هذه التصنيفات ـ تصنيف د/ محمد الفاسى فى مقدمة تحقيقه لكتاب «الإكسير فى فكاك الأسير»؛ إذ يقسم الرحلات إلى خمسة عشر نوعا هى:

١ ـ «الرحلات الحجازية
٢ ـ الرحلات السياحية
٣ ـ الرحلات الرسمية
٤ ـ الرحلات الدراسية
٥ ـ الرحلات الأثرية
٦ ـ الرحلات الاستكشافية
٧ ـ الرحلات الزيارية
٨ ـ الرحلات السياسية
٩ ـ الرحلات العلمية
١٠ ـ الرحلات المقامية
١١ ـ الرحلات البلدانية
١٢ ـ الرحلات الخيالية
١٣ ـ الرحلات الفهرسية
١٤ ـ الرحلات العامة
١٥ ـ الرحلات السفارية»(١)

وواضح أن الخلط شديد فى هذا التصنيف، كما أن بعض الرحلات يفكك ويجزأ، فما الفرق ـ مثلا ـ بين الرحلات الرسمية والسياسية والسفارية؟! وما الفرق بين الرحلات الحجازية والسياحية والأثرية والاكتشافية؟! وما الفرق بين الرحلات الدراسية والاكتشافية والعلمية والفهرسية؟! يضاف إلى ذلك أن الرحلات الخيالية نوع قائم بذاته، ولا يدخل فى «أدب الرحلات». والتعريفات التى يوردها صاحب هذا التصنيف تعوزها الدقة؛ فالرحلة الحجازية ـ مثلا ـ «هى التى يضعها صاحبها بعد الرجوع من قضاء فريضة الحج»، والرحلة الأثرية هى: «التى تكون الغاية منها البحث عن الآثار ووصفها»، والرحلة الزيارية هى: «التى يقصد صاحبها من سفره زيارة أضرحة الأنبياء والأولياء ومشاهدهم».

وأقرب هذه التصنيفات للواقع، تصنيف د/ صلاح الدين الشامى فى كتابيه: «الرحلة: عين الجغرافيا المبصرة» و«الإسلام والفكر الجغرافى»؛ إذ يقسم الرحلة

(١) الإكسير فى فكاك الأسير: محمد بن عثمان المكناسى تحقيق د/ محمد الفاسى الرباط ١٩٦٥، المقدمة

إلى ستة أنواع، منها ثلاثة كانت قبل الإسلام هي:

١ ـ رحلة الحج. ٢ ـ رحلة الحرب. ٣ ـ رحلة السفارة.

وثلاثة أخرى أضافها الإسلام هي:

٤ ـ رحلة الحج. ٥- رحلة طلب العلم. ٦- رحلة التجوال والطواف[١]

ولكن ما يجب التنبيه عليه أن الجاهليين عرفوا رحلة الحج، وإن اختلفت طبيعتها عن طبيعة رحلة الحج الإسلامية.

بيد أنه يمكن إجراء بعض التعديلات على هذا التصنيف؛ ليتناسب مع الواقع، ولتنحصر الرحلة فى أنواع قليلة تضمها، فرحلة التجارة قديمة قدم البشرية، ومازالت تتطور وتطوروسائلها، حتى أصبحت أهم الرحلات التى عرفها الإنسان. والتعديل المقترح لها أن تسمى: «رحلة التجارة والعجائب»؛ حيث اقترنت الرحلة التجارية ـ المندرجة فى النطاق الزمنى لهذا البحث ـ بشىء من التضليل المتعمد رغبة فى الإبهام.

ورحلة الحرب سميت فى الإسلام: « رحلة الجهاد» والجهاد فريضة دينية على كل مسلم توفرت فيه شروط بعينها، ويشبهها فى هذا ـ إلى حد ما ـ رحلة الحج التى هى فريضة دينية أصلا؛ ولذا يمكن جمعهما فى نوع واحد هو «الرحلة الدينية».

ورحلة السفارة وليدة التقدم الحضارى، ونشوء الدول التى كانت ترسل مندوبين رسميين نيابة عنها؛ من أجل التفاوض فيما بينها، وكان هذا التفاوض يطول مجالات شتى، بل إن الدولة كانت تتبنى رحلات أخرى منظمة ـ كرحلات البريد ـ وتحوطها برعايتها، وتبسط عليها سلطانها ـ رغم أنها لم تتخذ شكل السفارة، لذلك فإن البديل المطروح «لرحلة السفارة» هو: «الرحلة الرسمية» وهو اسم أعم وأشمل من الأول.

ورحلة طلب العلم ـ أو الرحلة العلمية ـ اسم مقبول.

---

(١) الرحلة عيى الحغرافيا المنصرة د/ صلاح الدين الشامى مشأة المعارف الإسكندرية ١٩٨٢،٧١،٩٢.

أما الرحلة الأخيرة ـ وهى رحلة التجوال والطواف ـ فلا يمكن أن تستقل بذاتها؛ لأنها مضمنة فى الرحلات السابقة جميعا، فقد يكون هذا المتجول محاربا أو تاجرا أو عالما. والذى يخرج من أجل التجول ـ كهدف ـ كان خروجه استجابة لدافع ذاتى، بيد أن هذا لم يكن ليقبل منه فى عصره، وكان عليه أن يختار نوعا من الأنواع السابقة ليندرج فى إطاره.

المحصلة: أن أنواع الرحلة العربية أربعة:

١ ـ الرحلة الرسمية.

٢ ـ رحلة التجارة والعجائب.

٣ ـ الرحلة العلمية.

٤ ـ الرحلة الدينية.

وقد يتنازع نوعان رحلة بعينها، وهنا يتم إدراجها فى النوع الذى يغلب عليها، وقد تخرج بعض الرحلات عن هذا التصنيف، بيد أن خروجها سيكون شذوذاً، والشذوذ لا يقاس عليه، ويمكن ـ حينئذ ـ وضعها فى نوع قريب منها.

الجغرافيا الوصفية.. والأدب الجغرافي.. وأدب الرحلة

الأساس فى النصوص التى يتناولها هذا البحث أنها نتاج رحلات واقعية، وأن طريقة التدوين هى التى تصنف هذه النصوص بين الجغرافيا الوصفية والأدب الجغرافى وأدب الرحلة، فإذا اختفت العناصر الأدبية والذاتية - أو ندرت - صنف النص على أنه جغرافيا وصفية. وإذا حاول الرحال أن يوازن بين الموضوع والذات فإن عمله يصنف على أنه أدب جغرافى. أما إذا طغت العناصر الأدبية الذاتية فإن عمله يصنف على أنه «أدب رحلة» يتتبع خط سير الرحلة. وهذه المصطلحات الثلاثة لم يتحدد مفهومها بشكل قاطع - خاصة الأخيرين، وكان عدم التحديد فى صالح «الجغرافيا الوصفية» و«الأدب الجغرافى»، وعلى حساب «أدب الرحلة».

ورغم أن بعض الباحثين أدرك أن هذه المصطلحات يمكن أن تندرج فى إطار الأدب بشكل عام، فإن تناوله للنصوص التى تدخل فى هذا المجال أكد ميله نحو ربط الأدب بالجغرافيا، دون تغليب أحدهما على الآخر. يقول «كرامرز» فى مقاله بدائرة المعارف الإسلامية: «إن هذه المصنفات كلها نزودنا بمعلومات متشابهة، ولكنها - على الجملة أدخل فى الأدب منها فى الجغرافيا»[1]. وإلى هذا الرأى نفسه ذهب د/ شوقى ضيف فى معرض حديثه عن الجغرافيين العرب الذين «أصبحت كتبهم الجغرافية كتبا أدبية، تعتمد على المشاهدة، وحكاية ما رآه الجغرافى تحت عينه، وسمعه بأذنه، وهى من هذه الناحية أقرب إلى أن تكون كتب رحلات منها إلى أن تكون كتبا جغرافية بالمعنى الذى نفهمه اليوم»[2].

وقد أدرك «كراتشكوفسكى» الطابع المزدوج لتلك النصوص - واسم كتابه دليل على ذلك، فقد ميز بين «اتجاهين أساسيين فى الأدب الجغرافى العربى، فهو من ناحية يولى وجهه شطر العلوم - أعنى العلوم الدقيقة - وذلك بالمعنى الذى نفهمه حاليا إذا ما أردنا تحديد علم الجغرافيا. ومن ناحية أخرى يولى وجهه شطر

---

(١) الجغرافيا عند المسلمين ٣٠

(٢) الرحلات د/ شوقى ضيف، دار المعارف ١٩٧٦، ١٢

الأدب الفني بالغاً ببعض آثاره في هذا المجال ذروة الإبداع»[1] .

من الواضح ـ الآن ـ أن ثمة علاقة تجمع بين الأدب والجغرافيا في هذه النصوص، إما باعتبارهما صنوين، أو باعتبار الجغرافيا فرعا من فروع الأدب الذى كان يعنى ـ عند العرب ـ الأخذ من كل شىء بطرف.

هنا يجب التأكد على أن الرحال الذى دون وقائع رحلته، كان يعتقد اعتقادا جازما أنه يكتب في الأدب بمعناه الواسع، وهذا ما يجعل أى باحث غير متقبل لتجريد أى نص ـ سواء أكانت مسحة جغرافية تسوده أم لا ـ لتجريده من كونه أدبا.

الجغرافيا الوصفية تقف ـ في الأغلب ـ على النقيض من أدب الرحلات، ذلك أنها تهدف إلى الوصف الجغرافى العلمى أساسا، مستخدمة منهج العلم وأسلوبه،دون أن يكون لهذا الأسلوب خصائص أدبية.. كل التركيز على توصيل المعلومات توصيلا مباشرا لا تراعى فيه النواحى الجمالية أو الذاتية.

إن الجغرافى عندما يدرس مكانا يعتبره ـ غالبا ـ جمادا، أو مادة بحث منفصلة عنه، بينما يعتبره الرحال كائنا حيا، ينفعل به ويتفاعل معه . يربط المكان ـ وما عليه ـ بنفسه، ثم بالزمان، ليخرج لنا ـ موقفا أو «تجربة» تستحق الوصف.

إن الجغرافيا «دراسة ميدانية قبل كل شىء، وميدانها سطح الأرض، وما يتصل بسطح الأرض من معالم وظواهر، وتقتضى مثل هذه الدراسة ثلاث عمليات رئيسية هى: المشاهدة، والتسجيل، والتفسير»[2] .

والجغرافيا الوصفية يشاركها أدب الرحلة فى معظم هذه العمليات، غير أن منظور كل منهما للظاهرة محل الوصف مختلف تماما.

إن كلا منهما يعتمد على الدراسة الميدانية، لكن التسجيل يفصل بين كتاب فى «أدب الرحلة»، وآخر فى «الجغرافيا الوصفية» ذلك التسجيل الذى يتأتى ـ

(١) تاريخ الأدب الجغرافى ١٨/١

(٢) الجغرافيا فى القرن العشرين جريفيث تيلور وآخرون. ترجمة د / محمد السيد غلاب، ومحمد مرسى القاهرة ١٩٧٤، ٧١/٢

غالبا ـ في صورتين: «في الصورة الأولى يكون التسجيل في كتاب يهتم صراحة بالرحلة، ويحتوي بالفعل حديثا يتناول كل ما يحرص الكاتب على تسجيله. وفي الصورة الثانية يكون التسجيل في كتاب جغرافي يهتم ـ صراحة ـ بالجغرافيا الوصفية، ويلتقط من حصاد الرحلة ما يناسب الصور الوصفية الجغرافية»[1].

وليس التسجيل ومنهجه ما يفرق بين أدب الرحلة والجغرافيا الوصفية فحسب، بل يتعدى ذلك ليفرق بين أدب الرحلة وكل ما عداه؛ فالخروج للصيد أو النزهة أو الغزو أو الكشف.. هذا الخروج لا يعد من أدب الرحلة ـ إلا إذا دون تدوينا أدبيا يحمل خصائص وسمات أدبية.

أما مصطلح «الأدب الجغرافي» فإنه يقدم الأدب باعتباره الأصل، ثم تأتي الجغرافيا كفرع، إنه أدب يتناول موضوعا جغرافيا من وجهة نظر أدبية تفرضها شخصية الرحال ومكوناته الثقافية السابقة.

قد يتبع كتاب «الأدب الجغرافي» النهج العلمي، ولكن بأسلوب أدبي، بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر، وبحيث تطل شخصية الرحال بين آن وآخر، لتقيم نوعا من التوازن بين الموضوع والذات وبحيث يتعلم القارىء ويستمتع في آن. إنها ازدواجية تهدف إلى التقديم عير المباشر للمعلومة، أو لتخفيف حدتها وجفافها، بحيث لا يمل القارىء.

إن النص يصنف على أنه «جغرافيا وصفية» أو «أدب جغرافي» حسب موقفه من «أدب الرحلات» فما مفهوم «أدب الرحلات» ؟

---

(١) الإسلام والعكر الجعرافى د/ صلاح الدين الشامي مشأة المعارف الإسكندرية ١٩٧٨، ١٤١.

أدب الرحلات... المفهوم

ثمة اجتهادات لتعريف أدب الرحلات، تحتمل الصواب والخطأ، وتمثل - جميعا - خطوات تساعد على استقرار هذا المفهوم.

ورد فى «معجم المصطلحات الأدبية» أن أدب الرحلة هو: «مجموعة الآثار الأدبية التى تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته فى بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق، ولتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التى يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا فى آن واحد»[1].

وعند د/ أنجيل بطرس أن «أدب الرحلات هو ما يمكن أن يوصف بأدب الرحلات الواقعية، وهى الرحلة التى يقوم بها رحال إلى بلد من بلاد العالم، ويدون وصفا لها يسجل فيه مشاهداته وانطباعاته بدرجة من الدقة والصدق وجمال الأسلوب.. وهناك صفتان عامتان لابد من توافرهما فى أدب الرحلات، وهما:

أولا: أن يكون من يكتب عن الرحلات رحالا بطبعه محبا للرحلات.

ثانيا: أن يكتب بالأسلوب الذى يجعل وصفه للرحلة يعكس روح الرحلة، والرغبة الشديدة التى تتملكه للقيام بها.

وهكذا يمكن القول بأن طرفى هذا النوع من الأدب هما: الموضوع أو الرحلة ذاتها من ناحية، وشخصية الرحال من ناحية أخرى.. ولعل خير أمثله أدب الرحلات هو ما بكشف عن شخصية الرحال، بقدر ما يقدم بنجاح وصف البلاد التى ينتقل بينها، والناس الذين يلتقى بهم.. فإذا كان الوسط الذهبى هذا، ففى أحد طرفيه توجد الأمثلة التى تقع فيها شخصية الرحال فى مركز الانتباه، وفى الطرف الآخر تقع الرحلة الجافة التى لا تحمل أثرا لشخصية صاحبها، وتفقد

---

1 - A Dictionary of literary Terms. Magdi wahba.Lebanon.P.577.

الشخصية المميزة، بعد أن تصبح مجموعة من الحقائق العارية من السمة الإنسانية التى تميز العمل الأدبى».[1]

ووصفت لجنة منح جوائز الدولة التشجعية الكتاب الفائز فى فرع «أدب الرحلات» عام ١٩٦٣ بأنه: «سياحة طويلة فى عالم كثير التفاوت والاختلاف والتنوع فى كل شىء، وهو كتاب متعدد الجوانب والمواضيع والشئون.. ولكن هذا التنوع كله يربط ما بينه شخصية متميزة للكاتب، فيها نوع من الأصالة فى النطر والأسلوب، ورغبة ملحة فى أن يكون كتابه صورة لذات نفسه، وتعبيرا عن انطباعات الجيل الجديد وخواطره».[2]

وفى مجال استعراضه لأنواع المقالة الذاتية، خصص د/ محمد يوسف نجم النوع الرابع لـ«وصف الرحلات» وذهب إلى أن «قيمته متأتية من أنها تصور لنا تأثر الكاتب بعالم جديد لم يألفه والانطباعات التى تركها فى نفسه: ناسه وحيواناته ومشاهده الطبيعة وآثاره، فهى بذلك مغامرة ممتعة تقوم بها روح حساسة فى أمكنة جديدة وبين أناس لم يكن لها بهم سابق عهد.. فالرحلة إذن ليست سوى تجربة إنسانية حية يتمرس بها، ويجعل التعرف إلى دقائقها واستكناه خفاياها وكده؛ فيخرج منها أكثر فهما وأصدق ملاحظة، وأغنى ثقافة وأعمق تأملات... وشر ما يعترى هذه المقالة تدنى الكاتب إلى العاطفية المسرفة، وتكلفه المواقف التى وقفها غيره أمام المشاهد التى يستوعبها بصره وبصيرته»[3].

وأدب الرحلات ذو قيمة عالية فيما يرى د/ محمد الفاسى، وهو نوع قائم بذاته، وأساس «هذا النوع هو شخص المؤلف وأنيته، ووصفه ما يعرض له فى سفره، وذكر الإحساسات التى يشعر بها أمام المناظر التى يمر بها، مع إطلاعنا على أحوال البلاد التى يزورها، وعلى عوائد أهلها وأخلاقهم وأفكارهم، وهو ـ فى كل هذا ـ يعبر عن نفسه وعن عواطفه، وعن وجهة نظره الحاصة فى كل

---

(١) الرحلة فى الأدب الإنجليزى د/ أنجيل بطرس مقال بمجلة الهلال عدد يوليو ١٩٧٥

(٢) جوائز الدولة فى الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية. صدرت فى كتاب عام ١٩٦٥ (عن جوائز عام ١٩٦٣)

(٣) فن المقال. د/ محمد يوسف نجم. دار الثقافة. بيروت، ١٩٦٦، ص٥ ١١

مسألة»[1].

ويستطيع الباحث المدقق ـ كما يقول د/ سيد حامد النساج ـ أن «يظفر بمئات من الكتب في أدب الرحلات، أى ذلك النثر الذى يتخذ من الرحلة موضوعا، أو بمعنى آخر ـ الرحلة عندما تكتب فى شكل أدبى نثرى متميز، وفى لغة خاصة، ومن خلال تصور بناء فنى له ملامحه وسماته المستقلة».[2]

إن التعريفات والتعليقات السابقة لم ترد فى بحث مستقل، وإنما وردت على هيئة مقالات، أو تعليقات، أو فى مقدمات كتب. ومع ذلك فهى اجتهادات ومحاولات مشكورة، تكاد تجمع على أن أدب الرحلة يعتمد على عدة أسس، أهمها أنه:

– يقوم على رحلة ـ أو رحلات ـ واقعية فى زمان ومكان محددين.

ـ وأن الذى يقوم بها رحال تمكن حب الرحلة منه، يصف انطباعاته ومشاهداته فى هذه الرحلة.

ـ وأن الوصف يجب أن يوازن بين شخص الرحال من ناحية، والرحلة ـ كموضوع ـ من ناحية أخرى، دون التركيز على طرف واحد قد يؤدى إلى التردى فى شرك العاطفية المسرفة، أو الجفاف التام.

– ويستخدم النثر المعبر عن ذات الرحال، والحامل لخصائصه ـ دونما تكلف أو إسراف.

– مع المحافظة على بنية تكفل تماسك العمل ووحدته، ليس فرضا عليه أن يلتزم معمارا بعينه– ففى أدب الرحلات سعة ومرونة قد لا تتوفران لغيره ـ بل له أن يحتار معمارا ـ ولا بأس فى أن يكون مبتكرا ـ ذا معالم واضحة يكفل تحقيق الترابط بين أجزاء العمل، من لدن البداية وحتى النهاية.

– وهو فن قائم بذاته، له أصوله وقواعده الفضفاضة، التى تتيح له قدرا كبيرا

---

(١) الإكسير فى فكاك الأسير ص أ.

(٢) أدب الرحلات فى حياتنا الثقافية. د/ سيد حامد النساج مجلة العربى. الكويت. يناير ١٩٨٧، ١٣٣.

من المرونة والقدرة على التطور والتلون حسب مقتضى كل فرد، أو عصر، أو بيئة.

– ويهدف إلى التأثير فى القارىء والتواصل معه، حيث يستمتع بكل ما فيه، وتزداد ثقافته ومعارفه بطريق غير مباشر أو محسوس.

واتكاء على تلك الأسس يمكن تعريف أدب الرحلات بأنه:

«ذلك النثر الذى يصف رحلة ـ أو رحلات ـ واقعية، قام بها رحال متميز، موازنا بين الذات والموضوع، من خلال مضمون وشكل مرنين، بهدف التواصل مع القارىء والتأثير فيه».

وفيما يلى تفصيل لهذا التعريف:

إن كل النصوص التى وصفت الرحلات بشكل أساسى ـ بحيث تمثل الرحلة الموضوع الرئيسى ـ استخدمت النثر، لما له من مميزات لا تتوافر لنظيره: الشعر. ورغم أن الشاعر قد يصف رحلة أحيانا، فإن عمله يكون عارضا، وربما خياليا. إن النثر يتيح للرحال حرية الوصف والحركة دون قيود أو معوقات، لذا فإن استخدامه يصبح مبررا بل ضروريا، كما أن النثر أداة تواصل بين الشعوب– عكس الشعر الذى يفقد أهم خصائصه حين يترجم... قيمة النثر فى الأفكار التى يحملها، وقيمة الشعر فى كيفية أدائه.

والرحال يصف رحلة ـ أو رحلات ـ واقعية، وشرط الواقعية هذا أهم ما يميز أدب الرحلة عن غيره من الأنواع الأدبية. والرحلة الواقعية معناها أنها حدثت بالفعل، فلا مجال للحديث عن رحلات ممكنة أو مستحيلة، إنها رحلات حقيقية بكل تفاصيلها، وفى إطارها العام. أما الرحلات الخيالية الصرف ـ تلك التى لم يقم بها مؤلفها فعلا ـ فلا تدخل فى مجال أدب الرحلات مهما استند مؤلفوها إلى حقائق ووقائع نقلت إليهم، ومن أمثلة تلك الرحلات: «التوابع والزوابع» –لابن شهيد، و «رسالة الغفران» لأبى العلاء المعرى.

لكن.. أدب الرحلة عمل فنى، والمتوقع أن يمتزج فيه الواقع بالخيال، بيد أن

دور الخيال يكون ضئيلا، وله وظائف محددة.

إن أدب الرحلات ـ بناء على ذلك المزج بين الواقع والخيال ـ يقوم على أسس ثلاثة هامة:

١ ـ «تشكل الرحلة الواقعية المعاشة نواة المؤلف الأدبى.

٢ ـ يضاف إلى ذلك المؤثرات السابقة (كالقراءات السابقة فى كتب الرحلات، والخبرات السابقة).

٣ ـ وبالإضافة إلى ذلك لا يجب إهمال دور الخيال».(١)

غير أن الخيال يقوم «فى هذه الظروف بوظيفتين مختلفتين (ومحددتين):

١ ـ وظيفة الاختراع أو الابتكار الانتقالى الذى يساعد على سد نقص وفراغات الذاكرة.

٢ ـ عملية تحريف الذكرى، وهى إما إرادية ـ خاصة حينما يحذف الكاتب عمدا بعض التفاصيل خشية الفضيحة، أو رغبة منه فى تقديم صورة مثالية لذاته، وإما لا إرادية ـ حينما يعتقد أنه يقص ـ فعلا ـ حقيقة جربها».(٢) وفرق كبير بين أن يجمع الرحال بين الخيال والواقع بالمعنى السابق، وأن يجمع بين الواقع وما لا يقبله عقل.

وهذه الرحلات يقوم بها رحال متميز، وهذا الرحال يمكن التعرف عليه من خلال النماذج المشرقة للرحالة، يضاف إلى ذلك بعض التعريفات التى وردت على لسان الرحالين أنفسهم أحيانا، أو فى كتابات نقدية فى أحيان أخرى.

هذا الرحال ـ كما تقترح ـ إيلاميلارت «إنسان مدفوع للحركة لأسباب: طبيعية، وجمالية، وعقلية ـ إضافة إلى الأسباب الروحية»(٣). وهذا التعريف يؤكد على أن ثمة أسبابا تدفع للرحيل دفعا غير مباشر، وقد تكون مجموعة

---

(١) الرحلة بين الواقع والخيال فى أدب أندريه جيد. د/ نادية محمود عبد الله، عالم الفكر. الكويت. عدد يناير ١٩٨٣، ١١٨.

(٢) الرحلة بين الواقع والخيال فى أدب أندريه حيد ص ١٢٠

3 - Travel Quest. P.117.

تراكمات مختزنة تتفجر أو تطفو على السطح فى وقت معين، فتكون بمثابة شرارة انطلاق الرحلة.

وقد عرف باحث هذا الرحال تعريفين: أحدهما فى شبابه، والآخر بعد خبرة، فقد اقترح فى شبابه تعريف الرحال بأنه: خليط من العاشق والمتشرد، ثم عاد ليصفه بأنه: «إنسان ينطلق ـ فى المقام الأول ـ بحثا عن أشياء، سواء أكانت محددة أو غير محددة. ولديه وجوبا هدف واقعى، أو ـ بدقة ـ شوق غامض. ولكن رحلته غاية لذاتها. وفى رحلته يجب أن يستمتع بالحرية المطلقة والاستقلال التام. والوسيلة المثلى لتحقيق ذلك هى عدم التخطيط لرحلاته لأكثر من أن يوجهه هدف غامض. إنه يجب أن يقول: سوف أذهب إلى «س» وسأرى كل «ما» أجد هناك، أيا كانت «ما» تعنى»[1].

من الواضح أن التعريف الأول قاصر إلى حد كبير، رغم أنه يلمح صفة ضرورية يجب توفرها فى الرحال، وهى وجوب كونه عاشقا لما يفعل، ولولا هذا الاقتناع الداخلى بجدوى ما يفعل لأصبحت حركته ضربا من التخبط الذى لا طائل وراءه، أما أن الرحال متشرد، فذلك مالم يخطر ببال أحد. أما التعريف الثانى فيؤكد على أن الحركة أساس الرحلة، وعلى وجوب وجود هدف واقعى يمكن تحقيقه، وعلى أن دافع الرحلة يجب ألا يكون مباشرا، وإنما هو ـ فى الغالب ـ شوق غامض وحنين ضاغط من أجل الرحلة، وأن الرحلة تنطوى ـ فيما تنطوى ـ على تحطيم كل معتاد رتيب.. إنها نوع جديد من الحياة بلا قيود، لذا فإن الاستقلال والحرية والفردية ـ أحيانا ـ أمور يجب توافرها، وعدم التخطيط التفصيلى هو الوسيلة الكفيلة بتحقيق ذلك.. يكفى أن يقول الرحال إننى سوف أذهب إلى الهند ـ مثلا ـ ولكن تفاصيل الرحلة فى الهند ينبغى أن تظل مجهولة، وأن تترك لحينها.

إن الرحال الحقيقى إنسان توفرت فيه صفات عديدة لم تستغل، إنها تحتاج إما لإزالة الغبار عنها، أو لصقلها. وفى الحالتين كلتيهما يجب أن يتوفر حد أدنى

1 -Ibid .

من هذه الصفات كى نحكم لهذا الرحال بأنه صالح، أو من الممكن أن يصلح. والحد الأدنى من هذه الصفات أن يكون حاويا لروح الفنان؛ لأن الفنان رحال متميز وناجح، ورحلته ـ فى الغالب ـ منزهة عن الغرض النفعى.

إن هذا الشوق الغامض ـ عند الرحال الحق ـ «رغبة مستحكمة، ونفس أمارة، ولذة نادرة ينسى فى سبيلها المشاق والأهوال»[1] .

وهو ـ عند ابن حوقل ـ «ما كنت أحسه فى نفسى بالقوة على الأسفار وركوب الأخطار، ومحبة تصوير المدن»[2] . وهذا الشوق نجده عند المسعودى وأبى دلف والمقدسى، وغيرهم ـ وإن اتخذ أسماء مختلفة.

إن هذا الشوق عامل إيجابى فى كل أحواله، وقد يؤدى ـ أحيانا إلى نتائج عكسية وسلبية، إنه يسبب الإحساس بالخوف والقلق، ولكنه مع ذلك إيجابى؛ لأنه يرسخ فى نفس الرحال روح الباحث، وما الباحث «إلا اسم آخر للرحال؛ إذ الرحال الحق يود أن يرحل دوما، حتى لا يكون هناك ما يبحث عنه»[3].

ومن الملائم ـ فى هذا المقام ـ الإشادة بتجربة رحال عربى كبير، لم ينل القدر الواجب من التقدير، تلك التجربة التى لخصها صاحبها فى نص نفيس ومركز ترجم ـ مفردا ـ إلى عدة لغات عالمية. إن «المقدسى» فى كتابه «أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم» يتحدث عن نفسه ـ بفخر ـ بضمير المتكلمين «نحن» مؤكدا أنه:

«لم يبق إقليم إلا وقد دخلناه، وأقل سبب إلا وقد عرفناه، وما تركنا ـ مع ذلك ـ البحث والسؤال والنظر فى الغيب.. وما بقيت خزانة ملك إلا وقد عرفتها، ولا أهل زهد إلا وقد خالطتهم، ولا مذكرو بلد إلا وقد شهدتهم؛ حتى استقام لى ما ابتغيته فى هذا الباب.

ولقد سميت بستة وثلاثين اسما دعيت وخوطبت بها مثل: مقدسى،

---

(١) حديث السندباد القديم ٢٦٠.

(٢) صورة الأرض ابن حوقل تحقيق كراموس ليدن، ط ١٩٦٧ ص ٣٢٩

3 - Travel Quest. P. 125.

وفلسطيني، ومصرى، ومغربى، وخراسانى، وسلمى، ومقرئ، وفقيه، وصوفى، وولى، وعابد، وزاهد، وسياح، ووراق، ومجلد، وتاجر، ومذكر، وإمام، ومؤذن، وخطيب، وغريب، وعراقى، وبغدادى، وشامى، وحنيفى، ومتأدب، وراكب، ورسول ــ وذلك لاختلاف البلدان التى حللتها، وكثرة المواضع التى دخلتها.

ثم إنه لم يبق شيء مما يلحق المسافرين إلا وقد أخذت منه نصيبا ــ غير الكدية وركوب الكبيرة؛ فقد تفقهت ، وتأدبت، وتزهدت، وتعبدت، وفقهت، وأدبت. وخطبت على المنابر، وأذنت على المنائر، وأممت فى المساجد، وذكرت فى الجوامع، واختلفت إلى المدارس، ودعوت فى المعاقل، وتكلمت فى المجالس.

وأكلت مع الصوفية الهرائس، ومع الخانقائيين الثرائد، ومع النواتى العصائد. وطردت فى الليالى من المساجد، وسحت فى البوادى، وتهت فى الصحارى. وصدقت فى الورع زمانا، وأكلت الحرام عيانا، وصحبت عباد جبل لبنان، وخالطت ــ حينا ــ السلطان، وملكت العبيد، وحملت على رأسى بالزنبيل. وأشرفت ــ مرارا ــ على الغرق، وقطع على قوافلنا الطرق، وخدمت القضاة والكبرا، وخاطبت السلاطين والوزرا، وصاحبت فى الطرق الفساق، وبعت البضائع فى الأسواق.

وسجنت فى الحبوس، وأُخذت على أنى جاسوس، وعاينت حرب الروم فى الشوانى، وضرب النواقيس فى الليالى. وجلدت المصاحف بالكرا، واشتريت الماء بالغلا، وركبت الكنائس والخيول، ومشيت فى السمائم والثلوج، ونزلت فى عرصة الملوك بين الأجلة، وسكنت بين الجهال فى محلة الحاكة، وكم نلت العزة والرفعة، ودبر فى قتلى غير مرة.

وحججت وجاورت، وغزوت ورابطت. وشربت بمكة من السقاية السويق، وأكلت الخبز والجلبان بالسيق، ومن ضيافة إبراهيم الخليل، وجميز عسقلان السبيل.

وكسيت خلع الملوك، وأمروا لى بالصلات، وعريت وافتقرت مرات، وكاتبنى السادات، ووبخنى الأشراف، وعرضت على الأوقاف، وخضعت للأخلاف،

ورميت بالبدع، واتهمت بالطمع. وأقامنى الأمراء والقضاة أمينا، ودخلت فى الوصايا، وجعلت وكيلا، وامتحنت الطرارين ،ورأيت دولة العيارين. واتبعنى الأرذلون، وعاندنى الحاسدون، وسعى بى إلى السلاطين.

ودخلت حمامات طبرية، والقلاع الفارسية، ورأيت يوم الفوارة، وعيد بربارة، وبئر بضاعة، وقصر يعقوب وضياعه. ومثل هذا كثير.

ذكرنا هذا القدر ليعلم الناظر فى كتابنا أنا لم نصنفه جزافا، ولا رتبناه مجازا، ويميزه من غيره؛ فكم بين من قاسى هذه الأسباب، وبين من صنف كتابه فى الرفاهية، ووضعه على السماع.

ولقد ذهب لى فى هذه الأسفار فوق عشرة آلاف درهم، سوى ما دخل على من التقصير فى أمور الشريعة، ولم يبق رخصة مذهب إلا وقد استعملتها: قد مسحت على القدمين، وصليت بـ«مدهامتان» ونفرت قبل الزوال، وصليت الفريضة على الدواب، ومع نجاسة فاحشة على الثياب، وترك التسبيح فى الركوع والسجود، وسجود السهو قبل التسليم، وجمعت بين الصلوات، وقصرت لا فى سفر الطاعات.. غير أنى لم أخرج عن قول الفقهاء الأئمة، ولم أؤخر صلاة عن وقتها بتة، وما سرت فى جادة وبينى وبين مدينة عشرة فراسخ فما دونها إلا فارقت القافلة، وانفلت إليها لأنظرها قديما.

وربما اكتريت رجالا يصحبوننى، وجعلت مسيرى فى الليل؛ لأرجع إلى رفقائى، مع إضاعة المال والهم»،[1] إن هذا النص يرسم صورة مشرقة للرحال النموذجى طراز القرن الرابع الهجرى، إنه غنى بالدلالات والإيحاءات، ويقف دليلا على فطنة الرحالة العرب ومدى فهمهم لطبيعة الرحلة ومستلزماتها.

أما إطار أدب الرحلة فهو إطار مرن، يساعد على تحديده المضمون، والصلة بينهما ـ بين التشكل والمضمون– جلية، فالمضمون يتحكم فى الشكل ويوجهه، والشكل المختار يفرض على الرحال نهجا لابد من التزامه.

وباعتبارهما صنوين يتشاركان فى تكوين الصورة النهائية لأدب الرحلة، فإنه

(١) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم . «المقدسى». تحقيق دى حويه ليدن ط ١٩٦٧ ص٤٣ ـ ٤٥

من الضرورى التنبيه على أن شخص الرحال ـ بكل مكوناته ومقوماته ـ يتحكم فيهما، ويخرجهما على مثال فريد لم يسبق إليه، باعتباره إنسانا متميزا وفريدا. ولا أدل على ذلك من تفرد كل رحلة بشخصية مستقلة؛ لأن الذى قام بها إنسان متميز، فى مكان متميز. وفى زمان متميز، وفى ظروف خاصة. وليس معنى التميز الأفضلية، بل يعنى الاختلاف والتفرد.

لقد كانت هذه الشخصية المستقلة سببا فى ثراء أدب الرحلة من حيث المضمون والشكل، مما فرض على كل من تعرضوا لهذا النوع بالدراسة أن ينبهوا على ذلك، وعلى أن محاولاتهم ما هى إلا اجتهادات، وكان هذا السلوك إدراكا حقيقيا منهم لطبيعة هذا النوع، كذلك أدركو أن الكتابة فى هذا النوع صعبة، فصاحب «معجم مصطلحات الأدب» يسلم بأن الرحلات «دونت بأساليب مختلفة، مما أوضح أنه ليس هناك دليل على سهولة التناول»[1] . وباحث آخر يذهب إلى أن هذا النوع «من الأدب صعب التناول، رغم أنه شائق لدى القارىء، وهو ليس سهلا ولا هينا، ولكنه فن صعب للغاية»[2] . إن طبيعة الرحلة المتحررة، ومضامينها المتجددة دوما، أثرت على شكلها بالسلب؛ فلم يتفق الرحالون ـ أو النقاد ـ على شكل معين ـ فضلا عن مضمون معين ـ يمكن احتذاؤه، ومن هنا فإن كل محاولة لدراسةهذا النوع الأدبى لابد أن تصطدم بعقبة «عدم الانضباط المنهجى» ولابد أن تعترف بها؛ لأن الزعم بغير ذلك ينطوى على عدم فهم حقيقى لهذا النوع.

---

1 - A Dictionary of literary terms. J. A Cuddon New yok 1977 P.702

(٢) أنيس منصور، حياته وأدبه، تأليف مأمون عريب. المكتبة العصرية بيروت د ت. ص ٢٢

الخصائص المميزة للمضمون

أدب الرحلة وعاء لكل مضمون، وهو لا يفرق بين مضمون خسيس وآخر شريف، أو بين مضمون مهم وآخر تافه. كل مضمون قابل للتدوين طالما قبله دوق الرحال واقتنع به؛ وعليه.. يمكن القول بأن مضمون الرحلة هو مضمون الحياة، غير أن طوابع مصموبية بعينها يكاد الرحالون يجمعون عليها، قد تستوفى حميعها فى عمل واحد، وقد يتناول بعضها دون بعض، بينما يركز رحالون على واحد مىها. وهذه الطوابع هى:

١ ـ الطابع الموسوعى والمعرفى.

٢ ـ الطابع الوثائقى.

٣ ـ الطابع الكشفى.

٤ ـ الطابع الفردى.

٥ ـ الطابع الإنسانى.

٦ ـ الطابع التسعى.

٧ ـ الطابع الجمالى.

٨ ـ الطابع النقدى.

٩ ـ الطابع الفكاهى.

الطابع الموسوعى:

يعطى للرحال حرية، وهو قيد فى الوقت ذاته، ذلك أنه يحتم عليه الاختيار الدقيق الذى يضمن دوام التواصل مع القارىء، وهنا تكمن صعوبة الكتابة فى أدب الرحلات. يحطىء من يظن أن نجاحه مرهون بأن يستغرق القارىء معه فى «لحظة استرخاء لذيذة بين انطباعات فنية ناقصة» ينبهر بها، ثم ما يلبث أن ينساها. دون أن تترك أثرا يذكر، ويصيب من يظن أن نجاحه مرهون باحترامه

لقارئه، ومن ثم احترام قارئه له، وتأثره بعمله. ليست «الموسوعية» ميزة على إطلاقها، بل هي ميزة إذا أحسن استغلالها، أما إذا أسيء استغلالها فإنها تورث العمل هلهلة وتفككا واستحفافا يكفل انصراف القارئ عنه. والطابع الموسوعى هو طابع معرفى فى الوقت ذاته، غير أن رحالا بعينه قد يتراءى له أن يركز على فروع علمية بعينها، يؤديه إليها تخصصه وخبراته السابقة، وحينئذ يجب عليه أن يعى أنه يقدم كتاب رحلة ـ فى الأساس، يتضمن معلومات فى فرع بعينه فحسب. وهذا الوعى لابد أن يترجم ترجمة عملية إبان التدوين. حتى لوطغى الجانب العلمى المعرفى على الجانب الأدبى الذاتى، لأن الطابع الموسوعى يكفل ـ حينئذ ـ ضم العمل إلى حظيرة الأدب، طالما كان أساس الكتاب رحلة قام بها رحال متميز. غاية ما فى الأمر أنه أخفق فى تصور الطريقة التى يمكن بها أن يخرج عمله. وهذا الافتراض يحل كثيرا من المشكلات التى تعترض دارس «أدب الرحلات». ولا يمكن تصور كتاب فى أدب الرحلة لا يقدم معرفة، أولا يضيف جديدا. وحقا قال أحد الرحالين: «إذا لم تضف الرحلات إلى قائمة المعرفة البشرية، فإنها تصبح عادة ضارة».

والرحلة **وثيقة** يمكن الركون إليها، لأنها:

– محددة الزمان والمكان.

– واقعية، ذات أهداف ونتائج.

– معروفة المؤلف.

إنها يمكن أن تعد «شهادة على العصر» الذى عاشه المؤلف، شاملة كافة جوانبه ومحتوياته، يحركها هدف نبيل.

وفى حال النماذج الرفيعة من أدب الرحلات تكون المساهمة فى رسم لوحة عامة صادقة للجنس البشرى ـ قوية، وليس أفضل من الرحال المنزه عن الغرض لرسم تلك اللوحة الخاصة بعصره الذى عاشه. والرحلة وثيقة حية، ونتاج معاينة ومعاناة، وفوق دلك يمكن اعتبارها نتاج أدواق منقحة، ولدا فإن الاعتماد عليها

مبرر. من ثم يعتبر «أدب الرحلات ـ إلى جانب قيمته الترفيهية والأدبية أحيانا ـ مصدرا هاما للدراسات التاريخية المقارنة، وذلك خاصة بالنسبة للعصور الوسطى، كما أن علماء الأدب المقارن اعتبروه قسما من أقسام الأدب فى تصنيفه الحديث»(١).

إن إدراك الرحالين للطابع الوثائقى لرحلاتهم، جعلهم يزودون كتبهم بكل ما يؤكد هذا الجانب، كالخرائط ، والإحصاءات، والتواريخ الدقيقة، والحوادث، والتفصيلات الصغيرة، وفى عصرنا لا يكاد كتاب فى أدب الرحلات يخلو من صور «فوتوغرافية» للرحال فى أماكن ومواقف مختلفة، وكأنه يريد أن يثبت ـ بدليل قاطع ـ أنه قام برحلته فعلا.

والرحلة ذات طابع فردى ذاتي:

لأن الكشف الخارجي الحقيقى لا يتأتى إلا بعد الكشف الداخلى. إن رحالا لن يصل إلى حقيقة يعتد بها إلا إذا عرف حقيقة نفسه أولا.

إن حرية الاختيار والتوجه، والاعتماد على الذات فى توفير نفقات الرحلة، والسعى لمواجهة الصعاب، والتخلص من المآزق، والتجريب والاستقصاء، كل ذلك سيساعد على اكتشاف الذات، فالرحلة ـ كما يقول أحد الرحالين ـ «إحدى صور تأكيده لذاته فى مواجهة الناس».

وقد تتضخم هذه الذات، بحيث لا يسعها مكان أو زمان، ويصبح ديدنها الرحيل الدائم من أجل تدعيم هذه الذاتية، ولذلك ليس غريبا أن يدعو «أندريه جيد» إلى أن نقاوم ـ بالرحيل ـ كل القوى الغاشمة التى تحاول أن تستعبدنا، وذلك بمحاولة التأقلم المستمر عن طريق الانسلاخ الدائم.. إن كل رسوخ هولون من التقوقع والجمود، وإن كل استقرار هو تفاهة وانحدار»(٢).

إن الفردية والذاتيةلا تعنى أن يكون الرحال شاذا فى تصرفاته، بحيث يبدو غريبا دوما. إنما النصيحة التى يسديها كبار الرحالة أن عليه أن يتصرف كما يتصرف

1 - A Dictionary of Literary terms P. 577.

(٢) عالم الفكر ـ مرجع سابق ، ٩٦.

أهل البلاد التى يحل بها، وأن يختلط بهم، ويتعرف عليهم، حتى يتيح له ذلك فرصة للحكم الدقيق. إن الرحال قد يفلح فى استكناه حقيقة ذاته، ولكن هذا لن يتأتى ـ عمليا ـ إلا حين يدون رحلته وينشرها: إذا أفلح فى هذا الاستكناه ـ نظريا وعمليا ـ فإن عمله يصبح وثيقة نفسية رائعة، يمكن الاتكاء عليها فى استنباط الحقائق عن النفس البشرية التى يمثل الرحال أحد نماذجها البارزة، والنماذج الرفيعة من هذه الوثائق النفسية تكتسب صفة الخلود، لأنها سترتفع عن كونها ذات طابع فردى خاص، لتصبح ذات طابع إنسانى عام.

ومن صور تأكيد هذه الذاتية الاعتداد بالتجارب والمواقف التى خاضها الرحال أثناء رحلته، واعتبارها شيئا طريفا جديرا بالتسجيل والذيوع.

إن الرحال قد كابد من المصاعب والمشاق الكثير، وقد يكون الاعتداد بتجاربه وتسجيلها نوعا من التعويض عن هذه المصاعب ومن ثم فإنه لا تثريب عليه ومن حق الرحال ـ أيضا ـ أن يذكر التفاصيل الدقيقة الخاصة به أثناء الرحلة، وأيا كانت هذه التفاصيل خاصة به وبعصره، فإنها لن تخلو ـ بحال ـ من دلالة، ولا حاجة للتأكيد على أن أفضل أجزاء الرحلة هى تلك التى تصف نفس الرحال ونستبطن ذاته، وأنها أكثر أجزائها جذبا للقارىء وتأثيرا فيه، وأن الاستخدام الذكى لها يكفل صبغ الرحلة بصبغة أدبية فنية متميزة.

والطابع الكشفي:

يتأتى باستغلال الرحال لبصره ومصيرته، وصولا إلى الحكمة التى تؤهله لأن يطلق عليه لقب «الخبير أو المجرب».

إن استنفار حواس الرحال جميعا لابد أن يكون فى حالته القصوى توطئة للكشف الذى يتأتى: بعد طول روية وتأمل، أو فجأة ويكون هذا الكشف داخليا أو خارجيا: تجلية لما صدأ، أو كشفا عن جديد.

والكشف الذى يوثق فيه هو ذلك الكشف الناتج عن التأمل، والتأمل يتم أثناء الرحلة ـ خاصة فى حالات التوقف الجبرى ـ أو بعد انتهائها، فى لحظات

الاسترجاع والاستعراض العام لوقائعها.

وما يميز كشف الرحال عن كشف الفنان، أن الأول نتاج حركة عملية وذهنية، أما الثانى فنتاج حركة ذهنية وحسب - فى الغالب، ونسبة الخطأ عند الثانى أكبر منها عند الأول، وأن كشف الرحال يقدم فى صورة مباشرة تدرك بسهولة، أما كشف الثانى - الفنان - فيقدم فى صورة محورة، تحتاج إلى إعادة كشف.

الطابع الإنسانى:

الرحال إنسان، يصف الإنسان وما يتعلق به، ويوجه وصفه إلى إنسان. وبين هذه المحاور الثلاثة يبدو الطابع الإنسانى للرحلة جليا.

اقتناع الرحال بأنه فرد فى مجموع، وجزء من كل، سيؤدى به إلى الالتفات إلى هذا المجموع محاولا الكشف عنه فى حال كونه كلا. هذا الالتفات للمجموع يؤكد على الطابع الإنسانى للرحلة فالرحال يصف الإنسان - هدفه الأول - من حيث الصفات العامة والخاصة، ومن حيث الاتفاق والاختلاف بين شتى أجناسه.

من هذا المنطلق كانت رغبتى الأكيدة - يقول رحال - «يوم أن بدأت جولاتى فى ربوع الدنيا أن أدرس شعوب العالم، وأتدسس إلى الصميم من حياتهم، لأخلص إلى ما يسود بينهم من الأخلاق والعادات. وقد كنت أصدر - عقب كل جولة - كتابا يضم مشاهداتى فى البلاد التى زرتها... ولعلهم - يعنى الرحالين - يحرصون على تدوين مذكرات يسترونها بعد عودتهم، حتى نستطيع - بجولاتهم وجولاتى - أن نزف إلى أبناء هذا الوطن بلغته العربية «كتاب الدنيا» يطالعون فيه أحوال شعوب تقدمت ركب الأمم وأخرى تخلفت، وعسى أن يكون لنا من هذه أحسن العبر ومن تلك أجمل الأثر»[1].

ولكن.. كيف كان الرحالون القدماء يصفون الإنسان فى صورته الفردية، أو

(١) جولة فى ربوع الشرق الأدنى .محمد ثابت. النهضة المصرية. ١٩٥٢/ ٣

الشعوب في صورتها الجمعية؟ لقد ركز الرحالون على عدة جوانب، منها الجانب الخلقي والخلقي، وكذا اهتموا بصفاته العقلية، والنفسية، ونصوا على دياناته ومعتقداته، كما اهتموا بوصف لغته، وتوضيح مميزاته وخصائصه الفارقة - قياسا إلى غيره - وكان للعادات والتقاليد النصيب الأوفر من ذلك الاهتمام. إن وصف أى شعب يحوى هذه الجوانب - أو أغلبها، وللرحال أن يضيف ماشاء حسب ذوقه، وهذا ما فعله المقدسى حين أوضح ما سيصف فى الأقاليم الإسلامية قائلا: «فرأيت أن أقصد علما قد أغفلوه، وأنفرد بفن لم يذكروه إلا على الإخلال، وهو «ذكر الأقاليم الإسلامية» وما فيها من المفاوز والبحار والبحيرات والأنهار، ووصف أمصارها المشهورة، ومدنها المذكورة ومنازلها المسلوكة وطرقها المستعملة، وعناصر العقاقير والآلات، ومعادن الحمل والتجارات، واختلاف أهل البلد فى كلامهم وأصواتهم وألسنتهم، ومكاييلهم، وأوزانهم، ونقودهم، وصروفهم، وصفة طعامهم، وشرابهم، وتمارهم، ومياههم، ومعرفة مفاخرهم، وعيوبهم..»(١).

الطابع الشعبى:

يترتب على كون الرحلة تصف شعوبا أنها ذات طابع شعبى، وهذا الطابع مزدوج، بمعنى أنه يصف شعوبا، وهو موجه إليها ومراعٍ لها.

لقد تم التأكيد على ضرورة أن يضع الكاتب فى اعتباره أن عمله موجه إلى جمهور أو شعب، ومن تم فعليه مراعاة اعتقاد هذا الجمهور - ورحلة تتجاهل هذا الجمهور، هى رحلة لم يستفد منها صاحبها شيئا. إن العجائب والخرافات والأساطير التى شحنت بها كتب الرحلات هى استجابة لمطالب جماهيرية ضاغطة، ووصف الشعوب الأخرى هو استجابة لمطالب شعبية ترغب فى معرفة كل شيء عن غيرها - إن لم تكن المعرفة مباشرة، فلتكن بواسطة آخرين.

بعد توفر كم هائل من المعلومات التى يراعى فى إيرادها أن تكون موجهة للعامة، شرع هؤلاء الأخيرون فى تأليف قصص شعبى يعتمد عليها فى المقام

---

(١) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ١ - ٢

الأول، ويحاول تضمينها في إطار فني بحيث لا يبين مصدرها، غير أن البحث المدقق يظهر حقيقة مصدرهم. وليس غريبا ــ بعد ذلك ــ أن يعلن أحد الباحثين أنه «ليس في رحلات السندباد وغيرها إلا القليل لم أجد له أصلا أو مقابلا فيما فحصته من كتب الجغرافيا العربية أو كتب العجائب»[١].

لقدأدرك الباحثون هذا الطابع الشعبي لأدب الرحلة، وشرعوا في استخلاصه من النماذج المميزة، واقترح بعضهم مناهج محددة لكيفية استخلاصه[٢]، بينما حرص آخرون على تأكيده.

الطابع الجمالي:

الجمال الذى يخرج من أجله الرحال موضوعه «متعة لا غاية لها، ولا علاقة لها بالمنفعة الحسية ــ كما هو الشأن في اللذيذ ولا بالمصلحة الخلقية كما هو الشأن في الخير. وتلك المتعة أساس حكم ذاتى ابتداء، ولكنه عالمى نتيجة... كما أن هذه العالمية فى الحكم الجمالى لا تستند إلى قاعدة»[٣].

وهذا الجمال مصادره متعددة، وجوانبه كثيرة، وذوق الرحال ــ المهذب ــ هو الذى يحدد كون الشيء جميلا من عدمه. حتى لو كان ذلك موضع خلاف مع الآخرين.

وسبيل الإحساس بالجمال الإدراك، ولا بد معه ــ كما يرى ديدرو ــ من «الحميا الفنية التى بدونها لا عبقرية فى الفن. وهذه الحميا تستلزم رهف الإحساس وقوة العاطفة»[٤]. إن الحميا الفنية ترافق الرحال دوما، بسبب طبيعة المهمة التى يقوم بها؛ إذ تكون حواسه جميعا مستنفرة، وعلى أهبة لتلقى ما

---

(١) حديث السندباد القديم ٢٦٥

(٢) انظر هذه الاتجاهات الثلاثة بالترتيب رسالة ابن فضلان فى وصف رحلته فورى العتيل تراث الإسانية ٨/١١٣ ــ ١٣٦، و التراث الشعبى فى أدب الرحلات. د/ حسين فهيم. مجله المأثورات الشعبية. الدوحة يناير ١٩٨٧ ٧٤ ــ ٨٣، والرحلات د/ شوقى ضيف، ١٢، وتاريخ الأدب الجغرافى ١/٢٥

(٣) النقد الأدبى الحديث د/ محمد غنيم هلال. دار مطابع الشعب ١٩٦٤/ ٣٠٨

(٤) نفسه ٣٠٢

كان ممتعا أو مفيدا.

ومن بين الجوانب الجمالية المتعددة، ينجذب الرحالون إلى جمال الطبيعة خاصة، يأسر هذا الجمال لبهم، فيقفون أمامه طويلا، محاولين إقامة جسور وعلاقات بينهم وبينه، وصولا إلى إجراء حوار ـ بلا كلمات ـ يفضى كل ـ فيه ـ بمكنونات نفسه. وليكن معلوما أن «الذى يشكل جاذبية وفتنة المكان الآخر ـ وهو ما نسميه بالبرانية ـ ليس مرتبطا بكون الطبيعة أكثر جمالا، ولكنه يعود إلى أن كل شيء يبدو لنا جديدا، وأنه يفاجئنا، يتجلى لنا ظريفا فى ثوب من البكارة. إنها ليست «الأوراق الأعرض» بقدر ما هو «الشذا الذى لم يختبر»[1] .

غير أن ما يجب التنبيه عليه أن وصف الرحال مهما كان معبرا، ومهما سكب عليه من نفسه وإحساسه ـ لا يغنى ـ بحال ـ عن مباشرة هذا الجمال كضرورة. إن مناظر بعينها لا تفلح الكلمات أو الصور فى نقلها، أو ـ على الأقل فى نقل جوانبها كافة، ومن ثم لن يكون وصف الرحال سوى دعوة للقارىء لأن يكتشف ويعاين جمال الكون بنفسه. لا يستطيع «أحد أن يصوغ فى كلمات انعكاس الضوء على سطح البحر، أو بزوغ الشمس، أو جمال أجنحة البط البرى، لكى نحصل على نصيبنا كاملا، لابد أن نعاينه بأنفسنا»[2] .

مطلوب من الرحال أن يكون مستعدا دوما لأن يرى جميلا، وحينئذ تبلغ روحه درجة عالية من السمو الذى يؤدى به إلى الكشف الحقيقى.

الطابع النقدى:

لعل من أهم ما يجب أن يتحلى به الرحال امتلاك روح الناقد البصير المحايد، وإذا لم تكن هذه الروح كامنة فيه قبل تحركه، فإن الرحلة كفيلة ببثها فى نفسه.

---

(١) عالم الفكر، مرجع سابق ١٠١.

2- Travel Quest.P.11.

والحكم النقدى الصادر عن الرحال ينتج عن تفاعل صحى بين خبرتين هما:
١ ـ الخبرة السابقة (وتتمثل فى كل ما اكتسبه الرحال قبل خروجه).
٢ ـ الخبرة المضافة (وتتمتل فى كل ما اكتسبه الرحال من لدن شروعه فى الخروج).

وقد يكون هذا الحكم انطباعيا أو موضوعيا، أو ـ بعبارة أخرى ـ آنيا أو متأملا، ولكل حكم رصيده من الأهمية والمصداقية والدلالة على توجهات الرحال.

إن ما يميز الرحال الحق عن المزيف كونه مستطيعا نقد ما يرى، هو لا يكتفى بالمشاهدة والوصف، ولكنه يتعداهما إلى التفسير والنقد، وقد أدرك الرحالة القدماء هذا الطابع المزدوج؛ لذا جاءت كتاباتهم ـ فى الأغلب ـ سجلا وافيا وعميقا عن انطباعاتهم عن حياة الشعوب التى زاروها، ومظاهر سلوكهم وعوائدهم وتقاليدهم، ونظمهم الاجتماعية والسياسية، وتقويما لإنجازاتهم فى محتلف ميادين الثقافة، ولم تكن مجرد سرد وصفى لتفاصيل الرحلة والأحداث العابرة التى مرت بهم أثناء ذلك»[١] . غير أن الحياد النسبى يجب أن يكون ماثلا أمام الرحال دوما، بحيث لا يتردى إلى شرك التحيز الضار الذى وقع فيه قدماء ومحدثون. وقد وقع أوربيون محدثون كثيرون فى هذا الشرك؛ لذلك فإن «المعرفة الغربية عن الشرق ـ من خلال المستشرقين وأتباعهم من الرحالة والجواسيس . ظلت معرفة «للآخر» الدونى أو الأدنى، الشاذ وليس المختلف، وكنا ـ نحن هو هذا الآخر. ولكن كاتب الرؤية يجعل من نفسه ـ فى الوقت ذاته ـ نوعا من «الآخر» الأعلى الأرقى الطبيعى، الذى يحب على «الآخر» الأول الأدنى الشاذ ـ الذى هو نحن ـ أن يقلد رقى الأعلى وسمو الأرقى، كانوا جميعا يشعرون بأنهم «دهاة» رحلوا وسط متخلفين بلهاء، والدليل: أنهم جميعا خدعوا العرب، ووصلوا إلى كعبتهم، أو إلى حريمهم أو إلى علمانهم.. إلخ، بمجرد أن ارتدى

(١) عالم الفكر، مرجع سابق، ١٠ مقال د/ أحمد أبو زيد

بمجرد أن ارتدى كل منهم زيا عربيا:»[١] .

والفرق واضح بين الرحالين المسلمين والرحالين الغربيين فى هذا الصدد.

ومما تجدر الإشارة إليه أن كثيرا من الرحالة العرب تمتعوا بالروح النقدى القائم على الخبرة الواسعة، رغم تفاوتهم فى الدرجة، وكان أهم مجال طبقوا فيه ذلك الروح النقدى المقارنة العامة السريعة بين البلدان، ونشأ عن ذلك ما سمى بطراز «الفضائل والمثالب» أو «خصائص البلدان»، فما أن يسأل الواحد منهم عن الدنيا وساكنيها، حتى ينبرى واصفا، مع ضرورة التنبيه على كل مميز لدى هذه البلاد وساكنيها.

ويكاد يكون بابا ثابتا فى كتب الرحالة العرب أن يستهلوا وصفهم بتقديم تلك الصورة العامة لهذه البلاد، وقد برع منهم ـ بصفة خاصة ـ فى هذا المجال أبو دلف والمقدسى ويمكن العثور على نصوص كثيرة من هذا الطراز فى كتب الجغرافيا والتاريخ.[٢] غير أن ما يعيب هذه النصوص ـ غالبا ـ انحرافها عن الجادة؛ إذ تحرص على الصنعة اللغوية المتمثلة فى الأنواع البديعية المختلفة، مما يؤدى إلى عدم الدقة أحيانا. إن الرحال لا ينقد من أجل النقد، ولكنه يحاول إصلاحا بطريقته الخاصة، وبما أداه إليه فكره. وعن طريق هذا النقد الجزئى المعتبر يمكن تكوين صورة صادقة لما يجب أن يكون عليه البشر، وذلك بتجميع هذه الأحكام بعضها إلى بعض، وصولا إلى صنع «كتاب الدنيا» كما سماه أحد الرحالين. والوسيلة المثلى لتقديم هذا النقد ألا يكون مباشرا أو جارحا، بل يكون مبثوثا فى تضاعيف الكتاب، ولكن دون أن يصل إلى درجة الإلغاز أو الرمز بحيث يعسر فهم قصده. إن الطابع التوجيهى المباشر غير مستساغ، وذلك لضمان المشاركة الفعلية للقارىء فى استخلاص النتائج. وليس من النقد فى شىء أن يسرف الرحال فى وصف محاسن بلد أو ذمه بناء على حوادث فردية عارضة عاشها.

---

(١) حريدة الأهرام القاهرية مقال بلا توقيع عن أدب الرحلات العربية فى البلاد العربية، ١٩٨٦/٥/٢ .

(٢) انظر: معجم البلدان ٤٧/١ ومروج الذهب ٦١/٢ ـ ٦٥، وتاريخ الأدب الجغرافى ٥٦/١.

الطابع الفكاهى:

قد يتخذ النقد طابعا فكاهيا ساخرا، ويكون ـ حينئذ ـ أبلغ فى الوصول إلى الأثر المرجو، وقد يبلغ هذا الطابع الفكاهى ذروته، فيسم رحلات بعينها بميسمه،أو يصبغ أجزاء منها بصبغه، ولعل الفصل الخاص بـ«صقلية» فى كتاب ابن حوقل ـ من أروع ما كتب الرحالة فى هذا المجال، وللمقدسى مواقف كثيرة طريفة تدخل فى باب الفكاهة، مثل حكاية تنكره فى ثياب المتصوفة، واستنتاجاته الطريفة من الأسماء، وثمة حكايات طريفة ضمنها ابن فضلان رسالته.

وقد اعتبر أحد النقاد أن من مميزات كتب الرحلات، أن تتجلى فيها روح الفكاهة و «روح الظرف والمنادمة.. وأوصاف شائقة للمشاهدات والانطباعات فى أسلوب كثير التوابل»[1] .

وقد يصبح هذا الأسلوب الخفيف المرح الساخر علاجا، قال رحال: «لا أدعى أننى.. رتبت هذا الكلام، إنما نشرته كما كتبته.. ببعض الانطلاق والسرعة والمرح، فقد كان المرح والسخرية هما التعويض الوحيد الذى كانت تناله نفسى من التعب والإرهاق والوحدة[2]. إن روح الفكاهة تعيد التوازن لمضمون الكتاب وشكله، بحيث يتقبله القارىء.

---

(١) محمود تيمور «المصور» عدد ٢٣ يونيو ١٩٧٢ .

(٢) حول العالم فى (٢٠٠) يوم، أنيس منصور. دار المعارف، ١٩٧٥ ١٦.

الخصائص المميزة للشكل

المضمون المتجدد لأدب الرحلة فى حاجة لأشكال جديدة تواكبه، لذا كان تجدد المضمون مقرونا ـ دوما ـ بتجديد فى الشكل، حتى إنه ليمكن القول بأن للرحلة أشكالا بعدد نصوصها. وفى هذا التوجه يتفق أدب الرحلة مع الرأى النقدى الذى يعترف بأن «كل تشبث متزمت بمنهج فنى محدد ـ أيا كان هذا المنهج ـ يتناقض مع مهمة خلق تركيب جديد يستفيد بنتائج آلاف السنين من التطور الإنسانى، وعرض المحتوى الجديد فى أشكال جديدة»[1].

وفى هذا ـ أيضا ـ يكمن سر عبقرية الرحال الذى يحاول أن يخترع أشكالا جديدة، حتى يصل به الأمر إلى اختراع أشكال جديدة مختلفة لكل عمل يخرجه، مع التركيز دوما على ضرورة التناسق بين الشكل الجديد والهدف من العمل. غير أن مهمة الناقد توجب عليه البحث والتنقيب، وصولا إلى تحديد مناهج رئيسية تنتهجها كتب الرحلات، ويمكنها انتظام المناهج الفرعية. وبذلك يخرج أدب الرحلات عن كونه «فوضى مطلقة» ليصبح «فوضى منظمة». المهم أنه يجب الاعتراف بأن شيئا من الفوضى المنهجية مازال ـ وسيظل ـ يسوده.

يتحكم فى شكل الرحلة طريقة التدوين، التى تؤدى بدورها إلى تكوين بنية. وطريقة التدوين والبنية يحكمهما الأسلوب أو اللغة. ودرس هذه العناصر الثلاثة ـ مرتبة ـ قد يؤدى إلى الكشف عن بعض الخصائص المميزة لأدب الرحلة من حيث شكله.

---

(١) صرورة الفن آرنست فيشر، ترجمة أسعد حليم الهيئة المصرية العامة للكتاب ط١٩٨٦، ص١٤٩

أ ـ طريقة التدوين

إن الرحلة دعوة للتفتح الذهنى، الذى يدرك أن العالم ما هو إلا مجموعة أفراد، وأن خبرة هؤلاء ـ كأفراد ـ هى التى تصنع خبرتهم الجمعية، فتصبح العلاقة بين الإنسان والإنسان أكثر نضجا وسواء.

من هنا كان التدوين عملا حضاريا مستنيرا، ينم عن فطنة أوتيها الرحال: فطنة عملية، وفطنة نظرية. ولعله ليس من قبيل المصادفة أن الرحلة المدونة لا تعرف الازدهار إلا فى ظل الازدهار الحضارى لأمة من الأمم؛ فهذه الأمة يشعر أفرادها بالفخر لانتمائهم إليها، ويحاولون ـ جهدهم ـ تدعيم سيطرتها وازدهارها الحضارى ـ كمجموع وأفراد، مما يحفزهم على القيام برحلات تهدف إلى التعرف على من وما يجاورهم، ومن ثم ينقلون هذه المعرفة فى صورة كتاب رحلة، هدفه إعلام وإمتاع ذويهم.

تتمثل أهمية طريقة التدوين فى أنها تميز بين كتاب فى أدب الرحلات، وآخر فى نوع أدبى أو فرع علمى يعتمد على محصلات الرحلة. لذلك... فمن الضرورى أن يكون الهدف من التدوين واضحا فى ذهن الرحال، لأن تحدد الهدف تنبنى عليه خطوات كثيرة تتعلق باستخدام الأدوات الفنية، وهذا سيؤدى إلى القول بأن الرحال يختار نهجا بعينه، ويتبعه وهو واع بمميزاته وعيوبه؛ لأن هذا النهج ـ فى نظره ـ هو النهج الأمثل.

ولكن كيف تولد فكرة النهج؟

المادة المتوفرة فى متناول الرحال هى التى تحدد نهجه، فمن الرحالين من يدون ما يصادفه أثناء الرحلة بشكل منتظم، ومنهم من يدون بصورة متقطعة، ومنهم من يعتمد على ذاكرته بعد عودته. وعلى هذا ينقسم الرحالة ـ من حيث المادة المتوفرة لديهم ـ إلى قسمين:

١ ـ فريق يعتمد على المادة المدونة أثناء الرحلة، إضافة إلى الذاكرة والقراءات السابقة.

٢ ـ فريق يعتمد على الذاكرة فحسب.

ومن وجهة نظر الفن يتفوق الفريق الأول على الثانى؛ لأن مصادره متعددة، ومتوافقة، فإذا أغفل مصدر جانب طرافة، قام مصدر آخر بمئونته. كما تعد المادة المدونة منطلقا مقبولا لبناء كتاب رحلة متماسك. هذا، بينما يؤدى اعتماد الفريق الثانى على الذاكرة فقط إلى تجسد كل مزايا وعيوب الذاكرة فى العمل، ومن ثم فإن اعتباره وثيقة صادقة يصبح ذا محاذر.

لاشك فى أن مشاهد ومواقف بعينها لا يصلح لها إلا التدوين الفورى المباشر، بحيث يحتفظ المشهد أو الموقف أو التجربة بحرارته.

لكن.. ليس معنى ذلك أن تكون تلك الكتابة ـ أثناء الرحلة ـ هى المسودة الأخيرة، وإنما يمكن الاتكاء عليها حين كتابة المسودة الأخيرة.. صحيح أن الكتابة أثناء الرحلة تضمن وصفا حارا صادقا ولكنه انفعالى غير متأمل، وبذلك يفقد صفة العمق التى لابد من توافرها فى كل عمل أدبى، فالأدب ـ كما يرى بعض النقاد ـ تعبير عن تجربة متأملة، وعلى الفنان «أن يكون قوى الذوق والعاطفة، ولكن فى التعبير الفنى يجب أن يغلب عقله وإدراكه فى نقل التجربة أو فى تصويرها؛ إذ إن العاطفة المتبوبة ـ كالإحساسات الحادة ـ عمياء خرساء لا تبين عن نفسها»[(١)]. ولابد للفنان ـ حتى يكون فنانا ـ أن يملك التجربة، ويتحكم فيها، ويحولها إلى ذكرى، ثم يحول الذكرى إلى تعبير، أو يحول المادة إلى شكل. فليس الانفعال كل شىء بالنسبة للفنان... إن الأشواق التى تحرق الفنان السطحى تخدم الفنان الحق، فهو لا يقع فريسة للوحش، بل ينجح فى ترويضه... وما يبدو من حرية الفنان وسهولة أدائه، إنما هو نتيجة لتحكمه فى مادته»[(٢)].

إن رحالين أخرجوا كتبهم متسرعين، ولاقت رواجا، ولكن ضميرهم أبى إلا أن يصغها بصبغ الروية والتأنى، فمحا ـ فى النشرات التالية ـ كل أثر للتسرع أو العجلة.

---

(١) النقد الأدبى الحديث ٣٠٢، ٣٢١

(٢) ضرورة الفن ١٠

وقد تتيح فترات التوقف الطويلة والجبرية ـ أثناء الرحلة ـ الفرصة للتأمل، ومن ثم التدوين المتأنى، ولكن الخوف من تسرب روح الضجر والملل ـ أثناء المقام ـ إلى نفس الرحال، وانعكاسها على ما يدونه ـ له ما يبرره. إن التأنى قد يبلغ مداه، فلا يدون الرحال حصيلة رحلة أو رحلتين، بل ينتظر حتى تنتظم رحلاته جزءا كبيرا من العالم، ثم يشرع بعدها فى تدوين نتاج هذه الرحلات، مدركا أن النظرة الصحيحة والحكم الدقيق لن يتأتيا إلا بالمقارنة والمقابلة.

***

مناهج التدوين

حين يكون الهدف من الرحلة والتدوين واضحا، وحين تكون المادة متوفرة ـ يشرع الرحال فى تدوين رحلته، مراعيا الموازنة بين الهدف والمادة، وبين التجويد الفنى الذى يهدف إلى التواصل مع القارىء والتأثير فيه، ويمكن له ـ حينئذ ـ أن يختار واحدا من المناهج التالية:

١ ـ التدوين الزمنى.

٢ ـ التدوين المكانى.

٣ ـ التدوين الموضوعى.

٤ ـ التدوين الانتقائى.

٥ ـ التدوين الاستدعائى.

تلك هى المناهج السائدة فى كتب الرحلات، ويمكن للرحال تجاوزها، وابتكار منهج جديد ـ إن استطاع، كما أن له أن يستخدم أكثر من منهج فى العمل الواحد، أو يستخدم منهجا مختلفا فى كل عمل من أعماله. وهى من السعة والرحابة بحيث يمكنها استيعاب كل طرق التدوين الممكنة.

ولاشك أن لكل منها مميزات، كما أن لها عيوبا، والرحال المميز هو الذى يستفيد بالمزايا، ويتلافى العيوب.

«١» التدوين الزمنى

وهو من أكثر هذه المناهج استخداما، وأكثرها تنوعا داخليا، كما أنه أضبطها وأوثقها. يستلزم هذا النهج تدوينا آنيا، يقسم الزمن إلى وحدات، وكلما كانت تلك الوحدات أكبر، كان الحفاظ على وحدة العمل الفنى أقرب، ويمكن ـ بناء على استقراء العديد من نماذج أدب الرحلات ـ تحديد أهم الاتجاهات فى إطار هذا النهج كما يلى:

١ ـ تتفق كل ـ أوجل ـ هذه النماذج على ضرورة تحديد الإطار الزمنى العام للرحلة، وذلك بتحديد زمن بداية الرحلة ونهايتها.

٢ ـ تتبع بعض النماذج طريقة العد التصاعدى للوحدات الزمنية ،كأن يقال: اليوم الأول، اليوم الثانى، اليوم الثالث.. إلخ، أو: الأسبوع الأول، الثانى، أو: الشهر الأول، الثانى.. إلخ.

٣ ـ ويميل بعض الرحالين إلى تدوين محصلات الرحلة مع بداية كل شهر، أو مع بداية كل فصل طبيعى. أما إذا طال أمد الرحلة فيمكن تأريخها بالعام.

٤ ـ أو تتخذ شكل المذكرات اليومية التى تدون فى فترات منتظمة، أو غير منتظمة ـ مع كتابة تاريخ التدوين. ولهذا النموذج شكلان: الأول يجعل من التاريخ عنوانا للفصل، والثانى يذيل الفصل بتاريخ تدوينه ـ بعد أن يكون قد صدره بعنوان موضوعى.

٥ ـ وفى حالات كثيرة اتخذ التدوين الزمنى شكل رسائل من الرحال إلى أصدقائه أو أفراد أسرته، مع النص على تاريخ كتابتها ومكانها.

٦ ـ وقد يتبع الرحال الإطار الزمنى دون تحديده تحديدا دقيقا منتظما خاصة إذا كان أمد الرحلة ـ أو الرحلات ـ طويلا، وهو ما يتفق مع التسلسل المكانى.

٧ ـ ورغبة فى التشويق والإثارة، قد يلجأ إلى استخدام وسائل فنية فى تعامله مع وحدات الزمن؛ فيبدأ من النهاية ـ أى العودة، ثم يشرع فى استعراض بقية مراحل الرحلة، عن طريق الاسترجاع الزمانى.

٨ ـ وقد لا يتخذ التدوين الزمنى شكلا منتظما، فيتم بالتبادل مع التدوين المكانى أو الموضوعى.

وفوائد التدوين الزمنى عديدة، منها: أنه يجعل من الرحلة وثيقة تاريخية معتمدة، كما أنه يلمح أن تاريخ البشر واحد، متصل غير منفصل.

(٢) التدوين المكانى

وهو من الأنواع الشائعة عند الرحالة القدماء؛ إذ يتتبع الرحال التسلسل الطبيعي للرحلة علي أرض الواقع، وبذلك يضمن لها تماسك البناء وسلاسته.

في وصف الرحال للمكان يفضل أن يصفه وصفا ذاتيا، إبان تفاعله معه. أما إذا وصفه وصفا خارجيا بحتا، ومستقصيا، ومدعما بالأرقام والإحصاءات، فالأجدر به أن يعد كتابه كتابا جغرافيا لا كتابا فى أدب الرحلة. ويدخل في مآزق التدوين المكاني اعتماد نظريات جغرافية خاطئة ، ووصف العالم علي أساسها ،كنظرية الأقاليم السبعة، والمعمور والمغمور من الأرض– عند القدماء.

وأهم اتجاهات التدوين المكاني هي:

١– اتباع التسلسل الطبيعي أثناء الرحلة، من خلال الوحدات المكانية الصغيرة.

٢– اتباع التقسيمات السياسية، ووصف كل دولة– أو مملكة– علي حدة مع اتباع خط السير حينا، وإغفاله أحيانا.

٣– الاختيار الداخلي، وذلك باتباع طريقة التدوين المكاني مع التركيز علي موضوع بعينه في كل مكان يحله الرحال: كالصناعة، أو المرأة، أو الثقافة.. إلخ.

٤– التبادل مع التدوين الزماني، والتدوين الموضوعي.

٥– الحرص– من لدن بعض الرحالة– على وضع مقدمة تصف العالم بعامة، ثم تفصل أجزاءه استفادة بمعطيات الرحلة كمصدر من مصادر متعددة، ويشبه ذلك أن يضمن الرحال الأماكن التي زارها فى عمل علمي «كمعجم للبلدان» أو موسوعة عامة شاملة.

٦– الاقتصار علي وحدة سياسية– أو طبيعية– بعينها، ووصف وحداتها الصغيرة وصفا مفصلا، مع كثير من الاستطراد.

(٣) التدوين الموضوعي

ويقوم علي اختيار موضوعات بعينها، والانطلاق منها إلى وصف مكان أو شعب، أو عدة أماكن أو شعوب. ولابد أن تتسق هذه الموضوعات مع الهدف الأساسي الذي من أجله دون الرحال رحلته. قد يراعي في هذا الاختيار التسلسل الزماني المكاني، وقد لايراعي. وقد يتخذ هذا النهج شكلا علميا، فيتتبع موضوعا بعينه في كل مكان يحل به الرحال.

وقد يندرج تحت الموضوعات الأساسية المختارة موضوعات فرعية متعددة تتعلق بها، وتنطلق منها. وهنا يجب التأكيد علي ضرورة انسجامها مع الهدف، وضرورة إيجاد رابط قوي بينها.

* * *

(٤) التدوين الانتقائي

قد يحدث أن يقوم الرحال برحلات عديدة، ويخص كل رحلة بكتاب ثم يتراءي له أن يدون خلاصة ما توصل إليه في كتاب واحد، فيعود إليها لينتقي منها أفضل ما فيها، شرط أن يكون متجاوبا مع الهدف الجديد.

أو يري أن ظاهرة بعينها يختص بها بلد ما، فيجمع الظواهر المميزة لتلك البلاد فى كتاب. وقد ينتقى أسطورة أو حكاية أو واقعة أو تجربة من كل بلد زاره، ويحكيها في كتاب.

وقد يؤلف كتابا علميا أو أدبيا، ويطعمه ببعض الطرائف التي أنتجتها رحلاته، طالما توافق هذا المنتج مع موضوع الكتاب.

وبعض الرحالة يروق له أن يرحل فى كتب الآخرين؛ فيؤلف كتابا منها، يعرض فيه لأفضل الرحلات، ولأفضل ما فى كل رحلة، يساعده علي ذلك خبرته وذوقه المقفح الواعي.

(٥) التدوين الاستدعائي

وفيه يعتمد الرحال علي تداعي الأفكار وتواردها، فيبدأ بفكرة ملحة، تستدعي فكرة، وتستدعي تلك الفكرة أخري.. إلخ.

وقد يكون ذلك النهج أقرب إلي العشوائية، نظرا لاعتماده علي الذاكرة التي شحنت بنتاج الرحلة، ولم تستطع تمييزه، فأخرجته كيفما اتفق.

وقد يكون ذلك النهج عاما في الكتاب كله، أو فى تفاصيله، بمعني أن يني العمل علي أساس واضح، وفصول منظمة، ولكن المادة التي يصاغ منها الفصل تعتمد علي منطق التداعي هذا.

ب- البنية:

الغرض من درس البنية بيان مدي التوافق بين أجزاء النص فيما بينها، وبيان مدي الانسجام بين النص وهدفه، وبذلك يكون التوافق علي ضربين:

أ- توافق داخلي.

ب- توافق خارجي.

والذي لاشك فيه أن النص الذي يتمتع بقدر أكبر من التوافق، أفضل من وجهة نظر الفن، فبعض النقاد يري جمال الفن فى نظامه وحسن تنسيقه.

التوافق الداخلي ينطلق من الجزئيات الصغيرة، مفترضا تناغمها وتناسقها، فيشترط اختيار المفردات المعبرة- بحسب الأصل أو الآن، وصولا إلى تكوين جملة ذات نسق معتاد أو مبتكر هدفه الأول بيان وتجلية هدف الرحال- مع مراعاة النواحي الجمالية أيضا. وإذا تم ذلك فسينشأ - من تجاور هذه الجمل وتفاعلها- فقرات يشترط فيها وضوح الأفكار، وتناغمها مع ما سبقها وما يليها، بحيث تكون حلقة من سلسلة متماسكة. وسيكون جمالها تلقائيا؛ لأنها مكونة من وحدات صغيرة متناسقة. هذه الفقرات تتحد لتكون مقطوعة، أو فصلا أو بابا- حسب اصطلاح كل رحال، وشرط هذه أن تكون متسقة اتساقا داخليا باتساق أجزائها، واتساقا خارجيا بتناسقها مع مجموع الأثر وتوافق الأخير مع الهدف الأساسي، وخدمته له.

والرحال المميز الذي يجيد وصف رحلته، سوف يحقق لبنيتها كافة العناصر الفنية التي تكفل تماسكها، طالما وازن- بدقة- بين أحداث الرحلة وشخصه؛ فوحدة الحدث- وتدرجه ومنطقيته- مرتبطة بشخص الرحال وواقعية الرحلة.

وهناك نوعان من العقد تتضمنهما كل رحلة:

١- عقدة رئيسية.

٢- عقدة فرعية.

العقدة الرئيسية تبدأ بخروج الرحال، وتستمر فى التصعيد حتي يصل الرحال إلى هدفه، ثم تبدأ رحلة العودة، ومعها تبدأ العقدة في الانحدار، ومن ثم الحل المتمثل في الوصول لنقطة الانطلاق. والعقد الفرعية تتمثل في كل المآزق والمخاطر والمتاعب التي يواجهها الرحالة، وكل عقدة يمكن أن تستقل بذاتها، وعلي هذا فهي كثيرة فى الرحلة الواحدة. ولكن.. علي الرحال أن يسخر العقد الفرعية لخدمة العقدة الرئيسية، بحيث لا تتضخم عقدة فرعية علي حساب العقدة الرئيسية، أو تشذ عن فلكها، فيبين الخلل.

وللرحال أن يستخدم كافة الوسائل الفنية التي تكفل التواصل بين الأثر والمتلقي، والأمر متروك لفطنته، فله أن يقدم- أو يؤخر- أحداثا أو يجزئ حدثا، أو يقدم بعض- لا كل- الحدث ، اعتمادا علي فطنة القارئ، وثقة في ذكائه. كما يباح له استخدام عنصر التشويق، وكذا عنصر الإيحاء والرمز- يباح له ذلك كله طالما ساعد علي تماسك البناء العام وتزيينه، إلا إذا أدي إلي نتيجة عكسية، أو تعارض مع هدف الرحال من التدوين. لذلك فإن التشويق الذي يصل إلي حد الإثارة غير الهادفة، والإيحاء الذي يصل إلي حد الرمز المبهم- مرفوضان.

قد يبدو أمرالوحدة الموضوعية سهلا إذا كان مجال الأثر رحلة واحدة، غير أنه يبدو صعبا إذا كان مجاله أكثر من رحلة. وهنا يظهر أثر تمكن الرحال من أدواته، ويظهر أثر الخطة المبدئية التي عليه وضعها، وتحديد معالمها.

أحيانا يغلب تخصص الرحال، ومن ثم يحاول تدعيم أثره ببعض مايبرز هويته؛ فقد يكون الرحال شاعرا، أو رساما أو قصاصا، أو عالما.. إلخ، ويرغب فى تدعيم أثره بقصائد أنتجتها الرحلة، أو لوحات.. وهو ما يباح له- شرط أن يتوسل بأدوات فنية تبرر مسلكه، وبذلك يكون هناك تناسق في مجموع النص.

ولكن. يبدو الأمر أكثر صعوبة في حال العالم الذي يتحول النص بين يديه بحثا علميا خالصا مدعما ببعض اللمحات التشخصية العابرة. والجهد الذي سيبذله هذا العالم لتحقيق التلاحم بين أجزاء أثره سيكون ضخما ومتكلفا في آن، ولكن

يشفع له أن عمله قام فى الأساس علي نتاج رحلة- أو رحلات- واقعية.

ويسرى هذا الحكم علي المقدمات الجغرافية التقليدية التي كان الرحالة يصدرون بها كتبهم؛ إذ تقبل علي أنها محاولة لتهيئ ذهن القارئ، ووضعه فى الأجواء نفسها التي عاش فيها الرحال، أو لكي يسهل عليه تتبع الرحال إبان تحركه.



أنواع البنية

يمكن تقسيم البنية في أدب الرحلات – بناء علي استقراء– إلي الأنواع التالية:

١– البنية النمطية.

٢– البنية المحورية.

٣– البنية الانتقائية.

٤– البنية ا التضمينية.

وفيما يلي تفصيل لها.

١– البنية النمطية:

وهي تلك البنية التي تتبع نمطا معتاداً قريبا من صورة الرحلة الواقعية، ويكون الزمان والمكان– فيه– منسقين مرتبين– حسب واقع الرحلة. وبذلك تتكون الرحلة من أربع وحدات هي:

أ– المقدمة، أو التمهيد.

ب– رحلة الذهاب.

جـ– وصف هدف الرحلة.

د– رحلة العودة، والخاتمة.

وهذه البنية تصلح لكتاب يدون حصاد رحلة واحدة فحسب– دون خلط مع غيرها، وبذلك تكون معالمه واضحة محددة، ممثلة للواقع أو قريبة منه.

والمقدمة في هذا النوع ذات أهمية كبري؛ لأنها ستكون بمثابة مفتاح أو كشاف الرحلة، الذي يفتح وينير مغالقها للقارئ، ولكن دون إفساد مبكر لمتعته يكشف كل الأوراق مرة واحدة، ومن ثم تصبح الرحلة تحصيلا لحاصل، وتفقد صلتها بالقارئ، وتأثيرها فيه. المقدمة مرشدة فحسب، ولذلك يستحسن أن تكون قصيرة، لأن القارئ يكون متشوقا لمعرفة تفاصيل الرحلة.

ورحلة الذهاب تبدأ من لدن التفكير في الرحلة والإعداد لها، ثم التحرك الفعلي، حتي الوصول إلي المنطقة هدف الرحلة وغايتها. ودائما تتصف هذه الوحدة بكثرة تفاصيلها، وسذاجة تجاربها، لأن الرحال يكون فى حالة تشبه حالة انعدام الوزن، كما أن نطاق معلوماته واكتشافاته يكون محدودا. وهي وحدة ممهدة للوحدة الأساس، ومهيئة لذهن القارئ، ومثيرة لأسئلة تحتاج إجابة، كما قد تكتنفها بعض الأخطار التي تجعل مصير الرحال مهددا. وبذلك يكون القارئ قد اندمج مع أحداث الرحلة، وأخذ ذهنه ينشط، استعدادا للوحدة الأساس.

الوحدة الأساس هي: وصف هدف الرحلة- أيا كان هذا الهدف، مع الإجابة علي الأسئلة المثارة، وبيان كيفية تغلب الرحال علي المصاعب والأخطار التي صادفته. من ثم تكون تلك جميعا معلومات وخبرات عملية واكتشافات تفيد القارئ إذا كان معاصرا، وتزيده معرفة ودراية إذا كان الفارق الزمني بينه وبين عصر الرحلة متسعا.

إذا تم ذلك كان من المبرر أن تبدأ رحلة العودة، وللرحال أن يصفها - إذا كانت في أماكن مختلفة وبين أناس مختلفين عن أولئك الذين رآهم في رحلة الذهاب، وله أن يختصرها- لا أن يتجاهلها- إذا كانت مكررة، أو أن يضع فى اعتباره- أثناء التخطيط المبدئي- توزيعا متوازنا لما شاهده بين رحلة الذهاب ورحلة العودة.

ثم يكون الوصول إلي نقطة الانطلاق، فيصف الرحال مشاعره نحو وطنه ومواطنيه بعد أن رأي غيرهم، وبذلك تكون العقدة قد حلت، فيختم الرحال رحلته.

إن هذا التسلسل الطبيعي- الزماني المكاني- والفني، يضمن للبنية تماسكا وتواصلا، فضلا عن أنه أسهل أنواع الكتابة فى أدب الرحلات.

٢- البنية المحورية

وتستند إلى تحديد محاور بعينها يهتم بها الرحال أين ومتى رحل، وقد تبنى على أساس رحلة واحدة أو رحلات متعددة متفرقة، وهذه المحاور يحددها شخص الرحال

وتخصصه العملى.

هناك من يهتم بعلماء كل بلد يحله أو أدبائه، وهناك من تجذبه المناظر الطبيعية، أو المذاهب الفكرية أو الثروات الطبيعية، وهناك من يبحث عن كل غريب وعجيب، أو يهتم بوضع المرأة، أو أثر البيئة، أو الفنون.. إلى آخر هذه الاهتمامات.

وقد تكون هذه البنية المحورية صرفا، وقد تكون فى إطار بنية نمطية، والتضمين فى إطار بنية نمطية أكثر. وإذا تمسك الرحال بالبنية المحورية مستقلة فعليه أن يبذل جهده من أجل تدعيم الصلة بين هذه المحاور، مع عدم عرضها فى شكل مباشر أو جاف. والأفضل تقديم هذه المحاور من خلال إطار ذاتى واضح، يكفل الترابط والتوحد بينها جميعا دون عنت أو تعنت.

إن البنية المحورية أشبه بالبحث العلمى، ولذلك يخشى من تسرُّب الروح العلمى الجاف إليها. وتنقسم البنية المحورية إلى قسمين:

١ - بنية ذات محور واحد.

٢ - بنية متعددة المحاور.

والخطر فى القسم الثانى أكبر ،خاصة إذا كانت المحاور متباينة، وعلى الرحال أن يبذل جهده لسد أية ثغرة قد تنشأ بسبب هذا التباين.

٣- البنية الانتقائية

الانتقاء ضرورة فى كل نوع من أنواع الرحلة، وهو يتم بطريقة واعية حينا، وغير واعية أحيانا، وتتحكم الذاكرة والمادة المتوفرة فى ذلك. ولكن الانتقاء هنا انتقاء واع مدرك قائم على حصاد رحلات متعددة، ولايمكن أن يقوم على أساس رحلة واحدة.

وهذا الانتقاء ينتج عنه فجوات كبيرة وعديدة من حيث الإطار الزمنى والمكانى، غير أن الرحال يستطيع بذوقه المرهف المحافظة على وحدة البناء، ويساعد على ذلك وحدة الموضوع المنتقى، وكذا وحدة الهدف الذى تم الانتقاء على أساسه.

وأهم اتجاهات البنية الانتقائية هي:

١ – انتقاء الرحال لأبرز وأفضل ما في كتبه بناء على هدف محدد.

٢ – انتقاء موضوع بعينه أو ظاهرة، والتتبع المستمر فى كل مكان لهما.

٣ – انتقاء من رحلات الآخرين.

وهذه البنية ترتبط –إلى حد كبير– بطريقة التدوين الانتقائى.

٤– البنية التضمينية

البنية التضمينية هى تلك التى ترتبط بأنواع أدبية أخرى، وتستخدم أدواتها. وقد يكون هذا الامتزاج مفيدا، ولكنه ضار فى أغلب الأحيان؛ فاستخدام البنية التضمينية التى تعتمد على المزج بين نوعين أدبيين –يعود بالضرر عليهما جميعا؛ إذ ينتفى تميز كلٍ واستقلاله. ويجب على الكاتب الحذر الشديد حين التفكير فى تسجيل عمله، ووضع خطة مبدئية محكمة تكفل للعمل الترابط والوحدة العضوية، وصولا إلى التوافق مع الهدف من تدوين العمل.

ويظهر أثر الرحلة السلبى على غيرها من الأنواع حين ترتبط بالرواية فالروائيون فى «اختيارهم هذا للرحلة لكى تمثل الحركة فى رواياتهم هو الذى يبرر إلى حد كبير – هلهلة التكوين النسبية.. فروايات «بيلو» –وغيره– استطرادية فى طبيعتها تنظمها سلسلة من اللقاءات الإنسانية التى كثيرا ما تكون متقطعة»[1]. ورغم ذلك فإن حصاد الرحلة يغرى أدباء كثيرين باستغلاله، وتضمينه أعمالهم ،ويتبدى تأثير أدب الرحلة فى غيره من الأنواع الأدبية كما يلى:

أولا: استقاء بعض التفاصيل التى يستخدمها الأدباء فى كتاباتهم كما هو الحال فى كوميديا «العاصفة» لشكسبير، فقد أثبت الدارسون أنه يعتمد فى بعض تفاصيل الرحلة –التى تضع العاصفة حدا لها– على بعض تفاصيل الرحلات السابقة لمسرحيته..

ثانيا: إسهام وصف الرحلة –إلى حد ما– بعنصر من عناصر التكنيك –أو

(١) الأدب الأمريكى، روبرت سلر، ترجمة محمود محمود، النهضة المصرية د.ت، ٢١٩.

الشكل الفني– لبعض الأعمال الأدبية الأخرى، وخاصة الرواية – والرواية التى تعتمد على ما يسمى «الرحلة الفلسفية» أو «الرحلة النقدية».

ثالثا: استخدام الكاتب ذاته لبعض مادة كتب الرحلات الخاصة به –وليس بغيره من الكتاب– فى بعض ما يلى من أعماله الأدبية[1].

ورغم أن الرحلة تؤثر فى غيرها من الأعمال الأدبية، فإن تأثيرها فى الأنواع الأخري أضعف من تأثرها بها، بحيث يحتفظ النوع الآخر ببنيته الأساسية –كما خطط لها المؤلف، بينما تذوب بنية الرحلة الأصلية فى البنية الجديدة.

(جـ) اللغة

هدف تدوين الرحلات الوصول إلى حقيقة الإنسان، ووضعه فى الكون، ونجاح الكاتب مرهون بتوضيح هذا الجانب كما يراه.

البناء المنطقى خير وسيلة لتحقيق الهدف، وهذا البناء يبدأ من الوحدات الصغيرة المتمثلة فى الكلمة والعبارة والفقرة، وينتهى إلى الروح العام المرفرف على العمل كله، يشمله، ويربط بين أجزائه، ويسد ثغراته.

والوحدات الصغيرة قد تكون أكثر تعبيرا عن شخص الكاتب وأسلوبه من البناء العام؛ ولذا فإن درسهامهم . والشروط المفترضة فى الكلمة المفردة كثيرة منها: أن تكون سهلة مألوفة، ودقيقة طريفة، ومستعملة، وغير مكررة فى جملة واحدة قصيرة، وغير متنافرة مع جاراتها، فإذا تحققت هذه الشروط فى الكلمة المفردة، تكونت جملة خالية من عيوب المفردات، وأصبح على الكاتب ضرورة التأليف بين هذه المفردات تأليفا ينم على غرضه، ويكشف عن شخصه الأدبى والعام فى آن. وعلى هذا تكون الجمل ذات نمط خاص بالمؤلف، بحيث نستشعر روح هذا المؤلف متضمنة فيها، كما يجب أن توحى هذه الجملة بالجو النفسى الذى تعبر عنه، وكذا بطبيعة المكان.

وقد درج كتاب هذا النوع على استخدام الجمل القصيرة، الخاطفة التى لاتلتزم

---

(١) دراسات فى الرواية الإنجليزية د/أنجيل بطرس –الهيئة العامة للكتاب. ١٩٨١، ١٣٠– ١٣١.

بالأنماط التقليدية، والتى تتسم بروح الفكاهة، محاولة أن تكون صادقة ودقيقة ومعبرة عما يجول بنفوسهم، وما يشاهدون، مع اعتقادهم الجازم بأن الوصف -أى وصف- لايستطيع نقل الحقيقة، وقصاراه الاقتراب منها، ومحاولة تقريبها للقارىء. لقد تساءل رحال عما إذا كان ممكنا وصف المشاهد واللوحات التى رآها، وكانت إجابته: «لا... لايوجد وصف يحيط بها فهى ليست مجرد شكل أو صورة تشاهد، وإنما هى إحساس.. مذاق.. طعم.. رجفة فى القلب»[1].

والحيوية من صفات الجملة التى يستخدمها الرحال، بحيث يستشعر القارىء الحركة المتتالية خلالها، ولذلك يلاحظ أن الأفعال الدالة على الحركة لاتكاد تخلو منها جملة، وهذا يعود إلى طبيعة الرحلة المعتمدة على الحركة، ومن ثم فإن نقل هذه الحركة من أرض الواقع إلى حيث دفتا كتاب يصبح أمرا ضروريا. وينتج عن هذه الحركة وتلك الحيوية أن الصور واللوحات تتتابع وتتوالى، بحيث لايقف القارىء أمام لوحة واحدة وقوفا طويلا، إلا إذا كانت من الروعة والجمال غاية. وينتج عنها كذلك تحرر الجملة من كل ما يعوق انطلاقها؛ ولذا فإن اللجوء إلى المحسنات البديعية -وما يشبهها- يصبح أمرا مكروها -مالم يأت عفوا؛ لأن اللجوء إليها يقف -حينئذ- ساترا وحاجبا للحقائق والغايات التى تتوه وسط الحرص على التصنع. كما أنه دليل إفلاس فكرى غالبا.

إن جمال العبارة وجمال الأسلوب لايتأتيان بالتكلف، وإنما يتأتيان بالتلقائية والاسترسال. وحين يكون المعنى واضحا مستقرا فى ذهن المؤلف فإن ترجمته إلى مفردات وجمل تصبح سهلة، ويصبح التواصل بين المؤلف والقارئ متحققا -حتى لو أدى ذلك إلى الخلل أحيانا؛ لأن ذلك الخلل سيكون شذوذا يسهل اكتشافه.

فى المقابل، فإن الاسترسال مع السجية، والتبسط مع القارىء ومحاولة إضفاء الحيوية والتلقائية على العمل-كل ذلك سيؤدى إلى التواصل، وسيكون البناء محتفظا بتماسكه وصلابته فى الوقت نفسه. لقد أدرك بعض الرحالين هذا الأمر،

---

(١) العائمة. مصطفى محمود ٢٧.

ولكنهم اشتطوا إبان التنفيذ؛ فلم يحرصوا على تثقيف ما كتبوا، ونشروه كما كتب أول مرة، فبان الخلل -أحيانا- فى أعمالهم، ووقعوا فى مزالق كثيرة تتعلق بالمضمون والشكل كليهما.

إن الاسترسال مع النفس لايعنى الثرثرة غير المجدية، بل وظيفته الكشف عن حقيقتها دون زيف أو تضليل، وهذا لن يتأتى إلا بالدقة فى استخدام المفردات، والحذق فى تركيب الجملة. والجملة المركزة -المعبرة- خير ما يؤدى هذا الغرض، ولذا فإن النصيحة المسداة للرحالة -دوما- هى ضرورة الإيجاز حيث لاداعى للإطالة، وألا يستخف أحداً الطرب فينسى -أو يتناسى- أنه متوجه بعمله إلى جمهور. إن هذا الإيجاز -غير المخل- يكفل الوضوح والدقة فى العبارة، ويمهد للتلاحم بين العبارات جميعا وصولا إلى بناء قوى متماسك لكن.. ليس معنى هذا أن يؤدى الايجاز والتركيز إلى الإبهام والغموض بحيث تتوه الحقيقة، ويصبح غرض المؤلف مجهولا.

إن جفاف العبارة قد يكون مقبولا، إذا كان ثمة ما يتطلب ذلك -خاصة إذا كان الأمر يستدعى إحصاءات تستخدم لغة الأرقام، أو نقل كلام نقلا حرفيا لأنه بمثابة وثيقة. أما الغموض والإبهام فليس هناك ما يستدعى قبولهما؛ لتعارضهما مع الطابع الكشفى للرحلة.

والرحالة على صنفين من حيث الأسلوب:

١ - صنف حرفته الفن -أو الأدب خاصة، أوله صلة به.

٢ - صنف لايمت للأدب بصلة، ولكن الرحلة تحفزه على الكتابة.

الصنف الأول سيكون أسلوبه طوع يديه، أو يستطيع السيطرة عليه -على الأقل؛ ولذا سيكون أداؤه للحقيقة ميسرا، ويصبح همه ضرورة التأنق والتجويد الشكلى الذى لايؤثر على المضمون، لذا يلجأ بعض الرحالين للأسلوب القصصى بحيث يجعل رحلته قصة متكاملة البناء. وبعضهم يزداد فى تأنقه؛ فيحاول أن يسم أسلوبه بميسم البلد أو المكان الذى يصفه، وهذا الأمر صعب ولم يدعه إلا القدماء، وخاصة المقدسى.

كما يحاول بعضهم استخدام ذخيرته الأدبية أو الفنية أو الثقافية -بعامة- فى تزيين رحلته؛ كأن يزودها ببعض محفوظه من الشعر، أو ببعض الحكايات والأساطير التى يقتضيها منطق التداعى، أو يزودها بنقول عن سابقيه مفيدة فى موضوعها، أو يضمنها آيات قرآنية وبعض الأحاديث النبوية.. إلخ.

والصنف الثانى سيحاول -جهده- أداء الحقيقة، وقد يحاول التأنق فتخونه سليقته وقدراته؛ فيبعد عن الحقيقة من حيث لايدرى. وعند هذا الصنف ستظهر عيوب أسلوبية كثيرة؛ كعدم القدرة على أداء المعنى بدقة -خاصة إذا طال بعده عن موطن لغته الأصلية، واستخدام كلمات فى غير مواضعها، ومحاولة شحن عمله بمصطلحات تتعلق بمجال تخصصه ليدل على تمكنه منه، أو يحاول تعريب -إذا كان عربيا- هذه المصطلحات أو الكلمات الأجنبية دون أن يكون لديه الحس اللغوى الدقيق، فتستحيل هذه الألفاظ والمصطلحات مسخا مشوها. وقد يلجأ البعض إلى اشتقاق مصطلحات جديدة من باب التظرف أحيانا، أو يستخدم الألفاظ الأجنبية ويستغرق فى شرح معناها وجذرها، وكأنه يعوض بذلك كله عدم قدرته على الأداء الدقيق للحقيقة.

أما عن الأخطاء اللغوية فى كتب الرحلات القديمة، فإنه من الصعب التحقق من نسبتها للرحال؛ لأن تداول النساخ للكتاب، وقدم العهد به، قد يؤديان إلى ذلك الخطأ، كما أن قيام المستعربين بتحقيق معظم نصوص هذه الرحلات قد حشدها بالكثير من الأخطاء التى يصعب نسبتها إلى واحد من ثلاثة: الرحال، والناسخ، والمحقق. وإن كانت مسئولية الأخير كبيرة، إن لم تكن بتصحيح الخطأ، فبالتنبيه عليه، والإشارة إلى صحته.

فى رأى أحد الباحثين أن القيمة الأدبية لكتب الرحلات «تتجلى فيما تعرض فيه موادها من أساليب ترتفع بها إلى عالم الأدب، وترقى بها إلى مستوى الخيال الفنى. وبرغم ما يتسم به أدب الرحلات من تنوع فى الأسلوب، من السرد القصصى إلى الحوار إلى الوصف -وغيره، فإن أبرز ما يميزه أسلوب الكتابة القصصى المعتمد على السرد المشوق، بما يقدمه من متعة ذهنية كبرى»[1].

---

(١) أدب الرحلات عند العرب د/حسنى محمود حسين الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦، ١٠

وعنصر الحوار من أهم العناصر التى يجب أن يزود بها الرحال عمله؛ ذلك أنه يتيح الفرصة للشخصيات لتظهر ظهورا حرا، فتعبر عن نفسها بنفسها، كما يؤكد على السمة الأدبية لكتب الرحلات. وكثيرون أولئك الذين يلجأون لهذا العنصر مدركين أثره فى إضفاء الحيوية والواقعية على كتبهم، ومدركين أنه فرصة لـ «أنا الآخر» كى يكشف عن ذاته، وأن تنوع الأسلوب يتفق وتنوع الحياة وتقلبها. ولأن قيمة هذا العنصر عالية، ومراعاةً لوجوب التوازن بين أجزاء العمل –يحسن أن يزود الرحال عمله بنماذج منه، تزويدا يراعى التناسق والتناغم العام بين مجموع الأثر، بحيث يكون الحوار عامل إنقاذ وإيقاظ: إنقاذ للعمل من التردى فى شرك الذاتية المسرفة، أو الاستطراد فيما لايفيد، وإيقاظ للقارىء وتنشيط لذهنه، لما يتضمنه الحوار من حيوية وفكر متعارض، أو جدل يستلزم الانتباه.

إن النثر الفنى ذا الخصائص الأدبية العالية أفضل إطار يمكن أن يحتوى الرحلة؛ ولذا فإن رحلةً لم يدون حصادها بالشعر –المقابل للنثر، ولم يؤلف أديب عملا معتمدا على حصاد الرحلة وأدعى أنه أدب رحلة إنما سماه باسمه؛ كأن يستفيد بحصاد رحلة فى تأليف رواية أو مسرحية فيطلق على العمل اسم «رواية» أو «مسرحية».

خصائص النثر أهلته لأن يكون أداة أدب الرحلة؛ فوظيفته تتفق ووظيفة أدب الرحلة؛ «فالأدب –وبصفة خاصة النثر– ليس مجرد إمتاع، وإنما هو سبر للنفوس، وكشف للحقائق، ونفاذ إلى أسرار الحياة والكون، ليعتبر ويتأمل مفكر، وليزداد الإنسان وعيا بمنزلته واستبصاراً لقيمته.. ثم إن للنثر وراء ذلك غاية أخرى هى: الحوار على مستوى البشرية، والمساهمة فى إثراء الحضارة وتراث الإنسان بعامة، ولايتم ذلك إلا بأن يكون الأدب متفتحا بالحوار وقابلا له، جادا فى التفاعل – أخذا وعطاءً مع الأمم الأخرى»(١).

ولغة الشعر تختلف عن لغة النثر؛ فلغة الشعر لغة العاطفة ولغة النثر لغة العقل. ذلك أن غاية النثر نقل أفكار المتكلم أو الكاتب، فعبارته يجب أن تشف فى يسر

---

(١) مفهوم النثر الفنى الشير المحدوب الدار العربية للكتاب تونس ١٩٨٢، ٢٢– ٢٣

عن القصد، والجمل فيه تقريرية وعلامات على معانيها، ووسائل تنتهى بانتهاء الغاية منها. وموضوعه حدث من الأحداث، أو مسألة من المسائل المبنية على الفكر[1].

والنثر -كأدب الرحلة- أكثر ارتباطا بالجمهور؛ فالشاعر «يستغرق فى تجربته والكشف عنها غايته، ونظره إلى جمهوره ثانوى؛ لأن عمله استجابة لشعوره قبل أن يكون تلبية لفكره. أما الناثر فغايته تبادل الحجج والأفكار؛ ولذا يخف سريعا إلى غايته، ونظره -فى نثره- موجه -أولا - إلى جمهوره[2].

والنثر أصل الكلام -والوحدة فيه أظهر؛ قال أبو حيان التوحيدى: «النثر أصل الكلام، والنظم فرعه، والأصل أشرف من الفرع، والفرع أنقص من الأصل.. ومن شرفه أيضا أن الوحدة فيه أظهر، وأثرها فيه أشهر، والتكلف منه أبعد، وهو إلى الصفاء أقرب. ولاتوجد الوحدة غالبة على شيء إلا كان ذلك دليلا على حسن ذلك الشيء وبهائه ونقائه وبقائه.. ومن شرف النثر أيضا أنه مبرأ من التكلف، منزه عن الضرورة، غنى عن الاعتذار والافتقار والتقديم والتأخير والحذف والتكرير، وما هو أكثر من هذا مما هو مدون فى كتب القوافى والعروض.. والنثر من قبل العقل، والنظم من قبل الحس، ولدخول النظم فى طى الحس دخلت عليه الآفة، وغلبت عليه الضرورة واحتيج إلى الإغفاء عما لايجوز مثله فى الأصل الذى هو النثر.. والنثر كالحرة والنظم كالأمة. والأمة قد تكون أحسن وجها وأدمث شمائل، وأحلى حركات، إلا أنها لاتوصف بكرم جوهر الحرة، ولابشرف عرقها، وعتق نفسها، وفضل حيائها»[3].

---

(١) النقد الأدبى الحديث ٣٨٦

(٢) النقد الأدبى الحديث ٣٨٤.

(٣) الإمتاع والمؤسسة: أبو حيان التوحيدى تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين بيروت ١٩٥٣ ٢/١٣٢-١٣٤.

الرحلة العربية حتى القرن الرابع الهجرى

من الشائع عن العرب أنهم بدو رحل، وهو حكم يحتاج لمناقشة موضوعية؛ فالدكتور حسين نصار يذهب إلى خطأ «الذين يظنون أن أهلها ـ الجزيرة العربية ـ بدو رحل ، لا يقرون فى مكان، ولا يتصلون بالأرض التى يسكنونها اتصالا وثيقا»[(١)] ، اعتمادا على أن ثمة مناطق خصب كما أن هناك مناطق جدب، وأن كل قبيلة كانت حرة الحركة فى نطاق معين تحدده لنفسها ولا تتعداه.

وتكتمل الصورة بالتذكير بأن الجزء الجنوبى من الجزيرة العربية لم يكن أهله بدوا بحال، بل كانوا متحضرين بقياس عصرهم، ومع ذلك كانوا منفتحين على العالم الخارجى، وكان البحر وسيلة هذا الانفتاح.

بيد أن اعتبار العرب بدوا رحلا سلم به، وأخذ كثيرون يلتمسون تفسيرا له، ومن هؤلاء «المسعودى» الذى نقل عن ذوى الآراء من العرب قولهم: «إن الأبنية والتحويط حصر عن التصرف فى الأرض ومقطعة عن الجولان، وتقييد للهمم، وحبس لما فى الغرائز من المسابقة إلى الشرف، ولا خير فى اللبث على هذه الحالة»[(٢)] ، كما عزا اختيارهم سكنى البوادى إلى عوامل بيئية.

ونقل أن بعض العرب وفد على كسرى، فسأله «كسرى عن شأن العرب وسكناها البر واختيار البدو، فقال: «أيها الملك، ملكوا الأرض ولم تملكهم، وأمنوا من التحصن بالأسوار... فمن ملك قطعة من الأرض، فكأنها كلها له»[(٣)] .

وابن خلدون يعزو هذا الأمر إلى عوامل اقتصادية[(٤)] ، والخلاف الرئيسى بينه وبين المسعودى، أن الأخير ينسب إليهم اختيار طريقة حياتهم، بينما ابن خلدون

---

(١) نشأة الكتابة الفنية د/ حسين نصار. النهضة المصرية. ١٩٦٦ ، ص١١

(٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر «المسعودى» تحقيق محمد محيى الدين. دار المعرفة بيروت ١٩٦٤ ، ١١٩/٢

(٣) (المصدر السابق) ٢/ ١٢١ ، مع اعتبار أن العرب فئات، منهم أهل الحضر، والبدو أو الأعراب، وعرب الجنوب

(٤) مقدمة ابن خلدون تحقيق د/ على عبد الواحد وافى دار النهضة مصر. ١٩٧٩ ٢/ ٤٧٢

ينسب إلى إبلهم أنها فرضت عليهم تلك الطريقة فى العيش، والتوفيق بينهما جائز، مع اعتبار أن ابن خلدون يقصد بالعرب «الأعراب».

كان النشاط التجارى فى الجاهلية الباعث الأول للرحلة، وكان للجنوبيين باع طويل فى هذا المجال كفل لهم ازدهارا حضاريا كبيرا، غير أن انهيار «سد مأرب» مثل نكسة لحضارة اليمنيين ورحلاتهم التى تحولت إلى رحلات هجرة جماعية فحسب.

أما عرب الشمال البدو فقد حكمت رحلاتهم الظروف المحيطة بهم، ولذا فقد كانت متقلبة حسب تلك الظروف، وخاضعة لها.

ولعل النشاط الأساسى الذى قام به عرب الشمال المتحضرون -بخاصة المكيون منهم- كان التجارة، تلك التجارة التى قامت على الوساطة بين مخزن السلع فى اليمن، وسوق تصريفها فى الشام وبلاد الروم.. والعكس. وقد وصف القرآن الكريم تلك الرحلة بأنها «رحلة الشتاء والصيف».

وبعيدا عن الرحلات الجماعية التجارية كانت رحلات فردية، تعبر عن وضع خاص لصاحبها، وقد سجل عدد من هذه الرحلات فى أشعار كبار الشعراء الجاهليين، كما أن نصائح نثرية وجهت إلى الجاهليين توصيهم بالرحيل.

بيد أن تسجيل تلك الرحلات لم يتيسر بسبب عدم توفر الوسائل الحضارية اللازمة لذلك، والاستثناء الوحيد فى هذا المجال تمثل فى تقليد شعرى التزمه أغلب الشعراء، ذلك أن الشاعر كان يدلل على حبه بذكر الأطلال، أو النص على الرحلة كتخلص حسن من أجل الدلوف إلى مدح من يريد. وما بين ذكر الأطلال والنص على الرحلة، دلل الشعراء الجاهليون على سموّهمتهم ومرونة حركتهم ومعرفتهم الجيدة ببلادهم.. تلك المعرفة التى كانت نتيجة مشرقة من نتائج الرحلة. ومن يتتبع معجما جغرافيا -كمعجم البلدان- يجده يحدد موقع المكان، ويصحح اسمه ورسمه من خلال أشعار هؤلاء.

ورحلة الحج كانت طقسا دينيا عند الجاهلين، وهي وإن كانت جاهلية فى

مبدئها، فقد أصبحت إسلامية فى منتهاها، بعد أن طهرها الإسلام من كل مظاهر الوثنية.

لقد كان من شأن الإسلام أن يقضى على كل ما يخالف العقل والعقيدة، وأن يدعم كل ما يتفق معهما؛ ولذا فقد دعم الإسلام الرحلة بكل قوة وأولاها اهتماما خاصا، إن مباشرة أو بطريق غير مباشر.

جاء فى القرآن الكريم الأمر بالسير فى الأرض أكثر من خمس عشرة مرة، كقوله تعالى **﴿فسيروا فى الأرض﴾** (٣/١٣٧)[1]، وقوله تعالى: **﴿قل سيروا فى الأرض﴾** (٦/١١، ٢٧/٦٩، ٢٩/ ٢٠، ٣٠/٤٢)، والتعجب من عدم السير فى الأرض، كقوله تعالى: **﴿أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها﴾** (٢٢/٤٦)، وبالصيغة نفسها مع بعض الاختلاف فى (١٢/١٠٩، ٣٠/٩، ٣٥/٤٤، ٤/١٢).

وعلى سبيل التذكير أورد القرآن الكريم عدة رحلات قام بها أنبياء كسيدنا موسى، ويوسف، ونوح، ويونس- الذى تمثل رحلته فى بطن الحوت حدثا ملهما للخيال - ومحمد - صلوات الله عليهم- أوردها لتكون دليلا على أهمية الرحلة فى صقل هؤلاء الأنبياء، كى يكونوا قادرين على تحمل الأمانة والقيام بعبء الرسالة.

لقد أكد الإسلام على ضرورة أن يكون للرحلة هدف، ولذلك فإن ما يُعرف بالسياحة -عند الصوفية هوجم بشدة من قبل بعض العلماء كالإمام الغزالي، وابن الجورى[2].

ومن أجل أن تؤتى الرحلة ثمارها خفف الإسلام عن كاهل المسلم المسافر؛ فالسفر «يفيد فى الطهارة رخصتين: مسح الخف والتيمم، وفى صلاة الفرض رخصتين: القصر والجمع، وفى النفل رخصتين: أداؤه على الراحلة وأداؤه ماشيا،

---

(١) رقم السورة، ثم يليه رقم الآية.

(٢) تلبيس إبليس. ابن الجوزى. مكتبة المتنبى ط١٣٨٦هـ، ص٢٩٧.

وفى الصوم رخصة واحدة هى: الفطر. فهذه سبع رخص» [١].

وقد اشترط الإمام الغزالى أن تكون نية الآخرة الباعث على السفر، وأن يلتزم المسافر بآداب معينة ضمنها فى باب «آداب المسافر من أول نهوضه إلى آخر رجوعه» [٢]، وهى تنقسم عنده إلى: آداب ظاهرة، وآداب باطنة.

أماما قدمه الرسلام للرحلة فكثير، ولعل أهم إنجاز تمثل فى توفير الأمن والأمان للرحال المسلم سواء أكان فردا أو فى جماعة، وفى بسط هيبة الدولة القوية الفتية على أرجاء العالم بأسره، مما جعل من كل رحال مسلم إنسانا مميزا أينما حل.

وحتى بعد أن «انقسمت هذه الإمبراطورية الواسعة إلى ممالك منفصلة، احتفظت الرحلة -لدى الرحالة المسلمين- بسهولتها النسبية بسبب الأخوة الإسلامية التى أشاعت الثقة لتزيل كل الاختلافات سواء من حيث الجنس أو الأصل» [٣].

---

(١) إحياء علوم الدين ٢/٢٥٨

(٢) السابق ٢/٢٥١- ٢٥٧

(٣) Travel and Travellers of the Middle ages. Newton. A.P. london. 1930 p.89.

الرحلة العربية.. والقرن الرابع الهجرى

لماذا يتوقف هذا البحث عند القرن الرابع الهجرى؟

يكاد الباحثون فى هذا المجال يجمعون على أن الرحلة فى القرن الرابع الهجرى شهدت ازدهارا لم تعرفه فى القرون السابقة أو اللاحقة، حتى إن أسس أدب الرحلة وضعت فيه، كما أن كتب الرحلات التى ألفت فيه كانت الأساس الذى قامت عليه الأعمال التالية، سواء فى الأدب أو الجغرافيا أو الموسوعات أو المعاجم المتخصصة.

إن باحثا خبيرا ومدققا مثل «كراتشكوفسكى» -وغيره- قد أعلن -فى غير موضع- أن القرن الرابع هو عصر الرحلة الذهبى، ففى هذا القرن «بلغ الأدب الجغرافى أوجه فى مجال تطوره الخلاق كحركة مستقلة بذاتها.. وقد بلغ عدد الرحالة فى هذا القرن حدا كبيرا.. كما ارتبطت (الجغرافيا) ارتباطا وثيقا بالموضوعات الأدبية والعرض الأدبى. وإلى جانب هذا يقدم لنا القرن العاشر -الرابع الهجرى- شخصيات كبرى ذات جوانب متعددة ليست -هى- شخصيات جغرافية بالمفهوم الضيق للفظ»[1].

وعلى هذا فإنه «يمكننا أن نقرر -بكل اطمئنان- أن القرن العاشر -الرابع الهجرى- هو عصر الازدهار الخلاق للأدب الجغرافى العربى. وإنه لمما يسترعى النظر ليس العدد الكبير من الكتاب البارزين فحسب، بل ظهور حركة جديدة يطلق عليها -بجدارة- اسم «المدرسة الكلاسيكية للجغرافيا العربية»[2].

لقد كان القرن الرابع عصر انفتاح على العالم الخارجى، فالقرن الثالث اقتصر -فى أغلب أعماله- على الجزيرة العربية وما صاقبها، هذا بينما تخلص كتاب القرن الرابع ورحالوه من هذا الانغلاق، وتوسعوا لتشمل رحلاتهم ومؤلفاتهم معظم العالم المعروف حينئذ.

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافى العربى ١/ ١٧٧.

(٢) السابق ١/١٩٣

إن القرنين -الثالث والرابع- أكمل كل منهما الآخر، وشكلا سلسلة متواصلة الحلقات ساهمت فى تقديم صورة ممتازة للعالم الإسلامى وصورة جيدة للعالم بأسره.

وبعد هذا الازدهار وتلك الطفرة التى شهدها القرن الرابع «قل إنتاج المؤلفات الجغرافية العامة الجديدة فى القرن الحادى عشر -الخامس الهجرى، ويعود ذلك -من غير شك- إلى استمرار انحلال العالم الإسلامى سياسيا. ثم يمكن أن نقول أيضا: إنه قد تم ذكر كل شىء خاص بدلائل المسافرين، وأوصاف المملكة مما تتطلبه الحياة الأدبية والعلمية»[1] .

ومن أسباب توقف هذا البحث عند نهاية القران الرابع أن هذا القرن - وما سبقه - لم ينل ما يستحق من الدرس والتحليل فى مجال «أدب الرحلات» خاصة، وتاه كثير من أعلامه الكبار الذين وضعوا أسس أدب الرحلات من خلال مؤلفاتهم القيمة التى درست كمصادر لدراسات علمية متعددة الاتجاهات -تاه هؤلاء بسبب ذلك الإجحاف المتعمد حينا، وغير المتعمد أحيانا، والمتمثل فى اقتران أدب الرحلات العربية بابن جبير وابن بطوطة فحسب.

إن أحدا من الباحثين العرب لم يخص ابن فضلان أو المسعودى أو أبادُلف أو الإصطخرى أو ابن حوقل أو المقدسى -وغيرهم- بدراسة فنية برغم أن أعمالهم يصمد الواحد منها لدراسة -بل دراسات- متميزة. ولقد ساعد على هذا القصور أنهم يعتبرون جغرافيين، وأن كتبهم مصنفة ككتب جغرافيّة فحسب.

---

(١) الجغرافيا عند المسلمين -كتب دائرة المعارف الإسلامية (٩) دار الكتاب اللبنانى بيروت ١٩٨٢، ٤٣.

الفصل الثانى

الرحلة والجغرافيا الوصفية

الجغرافيا الوصفية

مؤلفات عديدة فى مجال الجغرافيا الوصفية أُنجزت فى القرن الرابع الهجرى وما سبقه، وليست كلها مجالا للدراسة، لأن ما يتتناول منها فى هذه الدراسة هو تلك التى اعتمد أصحابها على رحلاتهم الشخصية فى تأليفها -حتى لو كان مدى هذه الرحلات قصيرا. وبناء على هذا تخرج كل المؤلفات التى ثبت أن أصحابها لم يقوموا برحلات، أو التى لم يعرف عن أصحابها القيام برحلات.

وغنى عن البيان أن المجال الذى استغل الرحلة الاستغلال الأمثل كان المجال الجغرافى، ذلك المجال الذى اعتمد على نواة صالحة، شدت من أزره وأكسبته القبول والشرعية.

وقد تمثلت تلك النواة فى «آثار فريدة ربما كانت الوحيدة من نوعها فى الأدب العالمى، وكما هو معروف فإن القالب الأساسى الذى صيغ فيه الشعر العربى كان القصيدة التى كان القسم الأول منها يفرد -عادة- لذكر المحبوب و«الأطلال» حيث كانت تنزل قبيلته وقبيلة الشاعر من وقت لآخر. هذا القسم من القصيدة -المعروف بالنسيب- كثيرا ما ورد فيه ذكر لأكثر من موضع أو موضعين جغرافيين يمكن فى أغلب الأحوال تحديد موقعهما.. وفى القرن التاسع (الثالث الهجرى) -عندما أخذ العلماء العرب يتتبعون مآثر أسلافهم عرب الجاهلية -كانت هذه المادة هى القاعدة المتينة التى قامت عليها الرسائل العديدة التى لاتقع تحت حصر من طراز «كتاب مياه وجبال بلاد العرب»، و«كتاب أسماء جبال تهامة وسكانها»، وهى رسائل غلب عليها الطابع اللغوى أكثر من الطابع الجغرافى، ولكنها مهدت الطريق شيئا فشيئا إلى ظهور الأدب الجغرافى»[1].

والذى لاشك فيه أن الصلة بين الرحلة والجغرافيا قوية، حتى إن باحثا جغرافيا سمى أحد كتبه: «الرحلة عين الجغرافيا المبصرة فى الدراسة الميدانية».

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافي ١/٤٣ - ٤٤.

ونتيجة لهذه الصلة القوية شهدت الجغرافيا العربية طفرات كبيرة -كما وكيفا- وبدا أنها فى طريقها للازدهار، وبالفعل ازدهرت وتقدمت، وراح البعض يلتمس لهذا الازدهار تفسيرا؛ فقال المستشرق «جويدى» -على سبيل المثال- «مما لاريب فيه أن مؤلفات العرب فى الجغرافيا إبان العصور الوسطى من أجمل ما أُلف فى هذا العلم، وذلك لاستيفاء شروط ثلاثة: اتساع المملكة، والتجارة وسعة العيش، والفطنة والذكاء»[1].

ولكن.. يشار -فى هذا الصدد- إلى أن المعرفة الجغرافية لم تكن «هدفا أو غاية مباشرة نظمت من أجلها الرحلة فى البر أو فى البحر. ولكن الذى ندعيه ونؤكد عليه حقا هو أن المصلحة المشتركة قد جمعت -من غير قصد مباشر- بين هدف كل أو أى رحلة من جانب، وهدف الرؤية الجغرافية من جانب آخر. ويعنى ذلك الجمع بين هذين الهدفين شكلا من أشكال الانتفاع المتبادل فيما بينهما»[2].

بعبارة أخرى، كانت الجغرافيا العربية جغرافيا عملية، لم تطمئن إلى التراث الجغرافى العالمى الذى وصلها، فحاولت تقويمه وتسديد خطاه على الطريق الصحيح، واستكمال ماينقصه، فلما تم ذلك انتقلت إلى طور الاعتماد على الذات، والإبداع الخلاق الذى يضيف ويفسر. وكان الانتقال إلى هذا الطور أمرا طبيعيا بسبب توفر علماء أفذاذ أوقفوا حياتهم على خدمة تلك الجغرافيا العملية.

ولعل الملاحظ - فى هذا الصدد - أن الجغرافيين العرب توقفوا كثيرا عند «بطلميوس» وكتابه «المجسطى»، ثم لم يلبثوا أن تجاوزوه، وارتادوا آفاقا جديدة؛ فعملوا على تقويمه وإصلاحه. وقد تتبع صاحب «الفهرست» ترجمات الكتاب والمراحل التى مرت به، مما يشى بالأهمية التى أولوها له[3].

لقد ساعد عدم تسليم العرب بالنظريات السابقة -عن الجغرافيا- على تنشيط بحثهم العلمى الذى لم يغفل هذه النظريات إغفالا تامًا، ومن ثم فقد شرعوا

---

(١) أدبيات الجغرافيا والتاريخ، جويدى ٢.

(٢) عالم الفكر مرجع سابق د/صلاح الدين الشامى ١٤-١٥.

(٣) الفهرست ــ ط إيران، ٣٢٨.

يستغلون الرحلة، وكان تنبههم لما فى الرحلة من مزايا خيرا على الفرعين كليهما. ولم يمض وقت طويل على هذا الارتباط الهادف حتى تعرف العرب على ما يمكن التعرف عليه -من الكرة الأرضية- تعرف مشاهدة ومعاينة.

لكن... يؤخذ على الجغرافيين العرب أنهم لم يستفيدوا من تجاربهم العملية فى نظرياتهم، رغم أنها «كثيرا ما أدت إلى استكمال تلك النظريات ـ السابقة ـ وتعديلها، بل حتى إلى صرف النظر عنها، أضف إلى هذا أن نظرياتهم العلمية لم ترق إلى مستوى تجربتهم العملية»[1].

والغريب ـ بعد ذلك ـ أن نظرية عربية غير صحيحة، وخطأ حسابيا، أديا إلى اكتشاف العالم الجديد بأسره: النظرية يطلق عليها اسم: «قبة الأرين» والخطأ نتج عن عدم حساب الفرق بين الميل العربى والميل الأوربى فى حساب طول الدرجة، وبالتالى «كان تقدير المسافة بين سواحل أوروبا الغربية وسواحل آسيا الشرقية أقل بكثير من الواقع، ولعل «كولومبس» لو علم بحقيقة الأمر منذ البداية، لما أقدم على ركوب المحيط على سفنه الصغيرة التى لم يكن بوسعها حمل المئونة اللازمة لمثل هذه المهمة»[2].

وقد أدى النشاط العلمى والنظرى إلى نشوء مدارس جغرافية متعددة حاول ياقوت تصنيفها تحت قسمين كبيرين: الأول اهتم أصحابه بالمعمور من الأرض كلها، والثانى ـ وهم طبقة أهل الأدب ـ اقتصروا على الأماكن العربية، والبدوية منها بخاصة، قال:«وطبقة أخرى إسلاميون سلكوا قريبا من طريقة أولئك (اليونانيين) من ذكر البلاد والممالك، وعينوا مسافة الطرق والمسالك، وهم: ابن خرداذبه، وأحمد بن واضح، والجيهانى، وابن الفقيه، وأبو زيد البلخى، وأبو إسحاق الإصطخرى، وابن حوقل، وأبو عبد الله البشارى، والحسن بن محمد المهلبى، وابن أبى عون البغدادى، وأبو عبيد البكرى ـ له كتاب سماه «المسالك والممالك» أما الذين قصدوا ذكر الأماكن العربية والمنازل البدوية فطبقة أهل الأدب، وهم: أبو

(١) تاريخ الأدب الجغرافى ١ / ٢٣ .
(٢) السابق ١ / ٨٤، وانظر كذلك ١ / ٧٥ .

سعيد الأصمعي.. وأبو عبيد السكوني، والحسن بن أحمد الهمداني ـ له كتاب جزيرة العرب، وأبو الأشعث الكندى فى «جبال تهامة»[1] (رواية عن عـرام بن الأصبغ).. إلخ.

والطبقة الأخيرة يمكن أن يطلق عليها أحد اسمين: مدرسة الجغرافيا اللغوية، أو مدرسة الجغرافيا الإقليمية.

وتصبح صورة الاجتهاد الجغرافى العربى كما يلى:

١ ـ فريق اقتصر على وصف الجزيرة العربية والبوادى.

٢ ـ فريق اقتصر فى وصفه على المملكة الإسلامية.

٣ ـ فريق جعل همه وصف المعروف من المعمورة.

وانقسم كل من الفريقين:الثالث والثانى إلى اتجاهين:

(أ) الاتجاه الأول يرى ـ تبعا للمعتقدات الفارسية ـ أن العراق يمثل مركز المعمورة، ومن ثم يبدأ بوصف العراق، ثم ينتقل إلى الأقاليم الأخرى.

(ب) الاتجاه الثانى، ويرى أن مكة المكرمة هى مركز المعمورة، ومن ثم يبدأ بوصفها ووصف شبه الجزيرة العربية.ولعل التزام هذه التقسيمات ـ أو المدارس ـ كان فى صالح المعرفة الجغرافية، وعلى حساب أدب الرحلة، وكان الغالب ـ آنذاك ـ أن يبرز جانب على حساب الآخر دون أن يلغيه؛ ولذلك تعايشت الجغرافيا كعلم، مع الرحلة كأدب.

ـ ١ ـ

من الكتب التى دونها صاحبها اعتمادا على رحلات متعددة كتاب «أسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها من القرى، وما ينبت عليها من الأشجار، وما فيها من المياه»، لعرام بن الأصبغ السلمى.

---

(١) معجم البلدان ١١/١ ، أنظر كذلك فى كتب البلدان الإشارات المهمة لصاحب الفهرست ص ١٠٩ ، ١٢٦، ١٢٧، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧

وهذا الكتاب صنف ياقوت صاحبه فى طبقة «أهل الأدر ،
من الثقة، وتمثلت تلك الثقة فى استشهاده بما يزيد عن
عــرام (انظر ــ مــثــلا ــ ١٥٢/١ ، ١ ، ٧٨، ١١٩/١ ،
٢٥٤، ٣٠٢/١، ١/ ٣٧٢، ١/ ٤٠١ .. إلخ) كما تمثلـ
آراء غيره لكون «الصواب عندنا قول عرام، لأنه بدوى من تلل
بشجر بلاده»(١).

وعرام هذا «أحد العرب الذين استقدمهم عبد الله بن طاهر إلى نيسابور»(٢)، وهو «لما أبصر إقبال الناس على مثل هذه الموضوعات ــ اللغوية الجغرافية ــ أملى فى سن الشيخوخة (بعد عام ٢٣١هـ ـ ٨٤٥) «كتاب أسماء جبال تهامة ومكانها (سكانها)، معتمدا فى ذلك علي معرفته الجيدة بمواضع جزيرة العرب. وقد نال مصنفه انتشارا وصيتا واسعين، ورواه علماء مختلفون، وقد حفظت لنا من مصنف هذا الأعرابى مقتطفات هامة فى المعجمين الجغرافيين للبكرى وياقوت»(٣). وقد أكد عبد السلام هارون ــ محقق الكتاب ــ على أنه «أحد أعراب بنى سليم ممن كانوا يطوفون بالبلدان، ويتعرفون مسالكها، فيكتسبون بذلك خبرة صادقة»(٤).

عنوان الكتاب يوحى بأنه يقتصر على ذكر تهامة فحسب، ولكن الواقع يشهد بأن الكتاب ينقسم إلى قسمين: الأول خاص بتهامة، والثانى يخص الحجاز عامة، ومكة والمدينة خاصة، بل إن الكتاب يختم بهذه العبارة: «تم كتاب أسماء جبال مكة والمدينة وما يتصل بهما. وقد رجح عبد السلام هارون أن يكون دلك مجرد استطراد، وأن كلمة «كتاب» لا تعنى إلا «ما كتبه فى هذه الناحية» غير أن تقسيم الكتاب إلى جزءين، وتصدير كل منهما باسم عرام يؤدى إلى القول بأنه أُملى فى مجلسين مختلفين، اختص كل مجلس بجزء.

---

(١) معجم البلدان ٧١/١.

(٢) الأعراب الرواة. د/ عبد الحميد الشلقانى. دار المعارف ١٩٧٧، ص٢١٢.

(٣) تاريخ الأدب الجغرافى ١٢٧/١، وانظر. التراث الجغرافى اللغوى ١٥ ــ ١٧

(٤) كتاب أسماء جبال تهامة وسكانها، وما فيها من القرى، وما ينبت عليها من الأشجار، وما فيها من المياه. عرام بن الأصبغ تحقيق الأستاذ/ عبد السلام هارون، القاهرة، ص٦.

والكتاب يمثل طبقة «أهل الأدب» أو «الجغرافيين اللغويين» خير تمثيل، وتكاد معالم هذه الطبقة تتجسد فيه؛ فالإغفال شبه التام لشخص المؤلف ظاهرة أساسية لدى هذه الطبقة، وكذلك الاستشهاد بالشعر كلما أمكن، بذكر اسم الشاعر حينا، وإغفاله أحيانا، كما يستشهد بما ورد من هذه المواضع فى القرآن الكريم والحديث الشريف، ويهتم بشرح الألفاظ المبهمة أو أسماء الأعلام شرحا لغويا، بل إنه قد «يضطر إلى تعريف الكلمة العربية القحة بأخرى ليست كذلك، كأن يقول: «وفى كل جبال تهامة الشقاح نبت فى حرودها وأسفلها، والحرود: الجنوب. والحماط: التين. والشقاح: الريباس «فالكلمة الأخيرة فارسية... ولم يكن الأعراب الخلص يعرفون غير العربية الأعرابية. هل اكتسب عرام هذه الفارسية لأنه عاش مع عبد الله ابن طاهر فى نيسابور؟»[1].

والكتاب لا يتبع منهجا محددا سوى تقسيمه قسمين كبيرين، أما ذكر ما يحويه كل قسم فلا يحكمه نهج، بل يسيطر عليه الاستطراد والتداعى.

وعلى غرار الجغرافيين يحدد عرام المسافة بين كل موضع وآخر: بالمرحلة إذا كانا متباعدين، وبالميل إذا كانا قريبين، وبالأيام أحيانا.

كما يدلل على حظ الموضع من الحضارة بذكر ما إذا كان حاويا لمنبر أو لا. وقد يذكر أسماء حكام تلك المواضع ما أسعفته الذاكرة. غير أن ما كان يحرص عليه دوما أن يذكر اسم القبائل التى تقطن تلك المواضع. وقد يحرص على ذكر خاصة بعينها تدلل على رؤية حقيقية لذلك الموضع، كقوله فى «حيف سلام»: «وسلام هذا رجل من أغنياء هذا البلد، من الأنصار»[2]. وفى جبال السراة أشجار «لا يكاد أحد يرتقيها إلا بعد جهد، وإليها تأوى القرود، وإفسادها على أصحاب قصب السكر كثير»[3].

وطبيعى ألا يتوسل عرام بأدوات الفن؛ لأنه يقصد إلى تعليم، وتحديد دقيق. ومن

---

(١) الأعراب الرواة ٢١٦.

(٢) أسماء جبال تهامة ٣٥.

(٣) نفسه ٤١.

ثم انطبع أسلوبه بالطابع العلمى الذى يهدف إلى التوصيل ـ دونما حرص على إمتاع. وللتدليل على ذلك، ولتقديم صورة صادقة عن الكتاب وأسلوبه، ننقل الصفحات الأولى منه: «أسماء جبال تهامة وسكانها، وما فيها من القرى، وما ينبت عليها من الأشجار، وما فيها من المياه».

أولها (رضوى) من «ينبع» على يوم، ومن «المدينة» على سبع مراحل ميامنة طريق المدينة، ومياسرة طريق البريداء لمن كان مصعدا إلى مكة، وعلى ليلتين من البحر. وبحذائها (عزور) وبينه وبين «رضوى» طريق المعرفة، تختصره العرب إلى الشام وإلى مكة وإلى المدينة، بين الجبلين شوط فرس. وهما جبلان شاهقان منيعان، لا يرومهما أحد. نباتهما الشوحط والقرظ والرنف، وللضهياء ثمر يشبه العفص لا يؤكل، وليس له طعم ولا ريح.

وفى الجبلين: جميعا مياه أو شال، والوشل: ماء يخرج من شاهقة لا يطورها أحد، ولا يعرف منفجرها. وليس شىء من تلك الأوشال يجاوز الشقة، وأنشد فى الرنف يصف جبلا:

مراتعة رنف فملقى سياله مدافع أوشال يدب معينها

ويسكن ذراهما وأحوازهما نهد وجهينة، فى الوبر خاصة دون المدر، ولهم هناك يسار ظاهر»(1).

- ٢ -

لعل كتاب ابن خرداذبه «المسالك والممالك» أهم ما ألف فى القرن الثالث الهجرى، التاسع الميلادى، فقد أخرج ابن خرداذبه «عمله عام (٢٣٢هـ = ٨٤٧م) فى فترة خلافة الواثق بالله، ثم أعاد كتابته عام (٢٧٢ = ٨٨٥) تحت أمر الخليفة المعتمد. ولقد عارض «ماركفارت» رأى «دى خويه» ـ هذا؛ حيث لجأ إلى البرهنة على أنه كان هناك طبعة واحدة لعمل ابن خرداذبه لم تنته قبل عام (٢٧٢ =٨٨٥) ومنذ ظهر كتاب ابن خرداذبه أصبح مرجعا أساسيا اعتمد عليه من جاءوا بعده. وقد دارت حول كتابه حركة نقدية نشطة، فاعتبر المسعودى «من كتبه النفيسة كتابه فى «المسالك والممالك»(2)، بينما ذهب المقدسى إلى أن كتابى

(١) أسماء جبال تهامة ٥ ـ ٧

(٢) مروج الذهب ١٤/١

الجاحظ وابن خرداذبه «مختصران جدا، لا يحصل منهما كثير فائدة»[1].

وفي العصر الحديث قامت دراسات عديدة حول ابن خرداذبه وكتابه ونسخه التي قيل: إنها كانت ثلاثا، كما تم التأكيد على أن النص الذى وصلنا ونشره «دى خويه» نص مختصر.

وابن خرداذبه ــ على عكس كثيرين ــ كان شخصا معروفا متعدد المواهب؛ ولذا فإن المعلومات المتوفرة عنه كثيرة[2].

وميزة كتاب ابن خرداذبه لا تتمثل فى كونه كتاب رحلة يعتمد على نتاج رحلات فحسب، إنما يتمثل ــ أيضا ــ فى احتفاظه بنصوص رحلات نقلها عنه لاحقوه؛ كرحلة محمد بن موسى، ورحلة سلام الترجمان، ومسلم بن أبى مسلم الجرمى، كما ينقل نصوصا عن رحالين مجهولين. ولاشك أن وظيفة «صاحب البريد والخبر بنواحي الجبل» قد مكنته من الحصول على كل هذه التقارير، فضلا عن أن علاقته الوثيقة بالخلفاء جعلت كل الخزائن تحت يده.

غير أن رحلاته لم يظهر أثرها فى ظل الغياب الدائم لشخصه، وهذا واضح فى النص المختصر المتوفر. ولكن لا يمكن الجزم بهذا الغياب إلا إذا توفر النص الأصلى. والكتاب ــ بعد ذلك ــ يقوم «على عنصرين متميزين كل التميز عن بعضهما البعض، فمن ناحية يقابلنا عرض جاف للمادة الرسمية، ولكنه يمتاز بأهمية كبرى، ومن ناحية أخرى نلتقى بمجموعة من الغرائب الجغرافية المختلفة، ولا تحس من جانب المؤلف أية محاولة لصهر هذه المادة وصبها فى قالب متجانس، فضلا عن أن الكتاب يفتقر إلى كثير من ناحية التبويب.. ولاشك أن عدم التناسق فى مادة هذا الكتاب هو المسئول عن التناقض فى حكم الجغرافيين العرب المتأخرين عليه. غير أن تأثيره على الأدب الجغرافى التالى كان كبيرا جدا.. ولم يكن باستطاعة ابن خرداذبه أن يؤسس مدرسة جديدة، غير أن المادة التى جمعها كانت الأساس المتين بالنسبة للكثيرين»[3]. ولعل من الغريب الذى يستحق التسجيل أن

(١) أحسن التقاسيم ٤.

(٢) انظر ــ مثلا ــ تاريخ الأدب الجغرافى ١/١٥٥ ــ ١٥٦، الأغانى ط دار الكتب ١/٣٩ وغيره، مروج الذهب ٤/٢٢٠.

(٣) تاريخ الأدب الجغرافى ١/١٥٨.

صاحب «معجم البلدان» لم يستشهد بآراء ابن خرداذبه وهذا أمر يحتاج تفسيرا[1].

وابن خرداذبه متأثر بجغرافيا بطلميوس، بل إنه ادعى آثار ذلك أنه لم يقتصر على وصف العالم الإسلامى، بل المعروف آنذاك، وكثير مما أورده عن البلاد غير الإسلامي بذلك باحثون كثيرون.

والكتاب يبدأ بمقدمة تقليدية يهدى فيها ابن خرداذبه عمله للخليفة، ثم يشرع فى وصف الأرض بعامة، ويحدد قبلة أهل كل بلد. وبعد ذلك التمهيد القصير يبدأ فى وصف العالم متأثرا بالنظرية الفارسية القديمة أيضا، ويرى ـ خلافا لكثيرين ـ أن سواد العراق ـ وليس مكة ـ هو قلب العالم. وبعد وصفه لسواد العراق الذى أورد فيه أهم مدنه وسكك بريده ومحطاته والمسافات بينها، ينتقل إلى وصف الشرق ـ أى شرق العراق ـ ثم الغرب، فالجربى (بلاد الشمال)، فالتيمن (بلاد الجنوب)، وبعد أن ينتهى من ذلك يذكر سكك البريد فى المملكة، وبعض الطرق التى يسلكها التجار.

يمكن اعتبار ما سبق القسم الأول من الكتاب، أما القسم الثانى فيركز على العجائب، مصنفا إياها إلى: عجائب الأرض ـ عجائب النبات ـ عجائب طبائع البلدان، وأخيرا يورد بعض العجائب المنوعة التى لا تخضع لتصنيف، ويلمح فى هذا المسلك توجه ابن خرداذبه نحو قارئيه، متحفا إياهم بما يرضى أذواقهم، وبما يخفف جفاف المادة ـ فيما يظن.

وبالطبع، تتباين اللغة المستخدمة فى القسم الأول مع اللغة المستخدمة فى القسم الثانى، فلغة القسم الأول جافة تماما لاعتمادها على الأرقام، ولا يخفف من جفافها إلا بعض التقارير التى ينقلها عن غيره، والاستشهادات الشعرية الكثيرة، أما القسم الثانى فتخف فيه وطأة هذا الجفاف، ويعود ابن خرداذبه إلى طبيعته الأدبية التى أهلته لأن يكون مؤلفا، ثم نديما للخلفاء.

---

(١) معجم البلدان ٣٤٧/٤، ١٧٣/٥.

إن القيمة الأساسية لابن خرداذبه ليست فى كتابه- كنص، وإنما فى كتابه كفكرة أولية مبدئية مهدت لكتب الرحلة الحقيقية، وأعطت تقارير الرحلات شيئا من الاحترام والثقة، ففتح الباب أمام الرحالين ليدونوا رحلاتهم، ثم ليطوروها حتى تصل إلى درجة مرضية.

-٣-

ويمثل وصف السرخسى لرحلة المعتضد التى تمت عام (٢٧١هـ - ٨٨٤م) شاهدا على ما أصاب التراث الجغرافي وتراث أدب الرحلات من إهمال، فقد ضاع النص الأصلى، ولم يصلنا سوى شذرات من الكتاب الذى وصف فيه رحلة المعتضد «إلى الرملة لحرب خمارويه بن أحمد بن طولون. وكان السرخسى فى خدمته، ذكر فيه جميع ما شاهده فى طريقه: فى مضيه وعوده»[1].

والسرخسى: أحمد بن محمد بن الطيب (توفى ٢٨٦هـ=٨٩٩) «يمثل نوعا نادرا من الكتاب فى ميدان الأدب العربى، وذلك بجمعه على السواء بين الاهتمام بالفلسفة والعلوم الدقيقة من جهة ، والأدب الفنى من جهة أخرى. ويمكن إرجاع اهتمامه بالأدب إلى اتصاله ببلاط الخليفة المعتضد الذى راح ضحية لسخطه عندما كان يشغل - فى آخر سنى حياته - وظيفة المحتسب ببغداد»[2].

ويكاد يكون ياقوت المصدر الوحيد لهذا الوصف؛ إذ أورد حوالى سبع عشرة قطعة - فى أجزاء معجمة الخمسة، وبيانها كالتالى: (١٣٢/١ ، ١٣٣/١ ، ١٤٧/١ ، ١٨٢/١ ، ٢٣٩/١ ، ٢٧٧ ١ ، ٣١٣/١ ، ٣٨٧/١ ، ٣٠٠/٢ ، ٣١٥/٢ ، ٤٦٦/٢ ، ١٤/٣ ، ١٥/٣ ، ١٨٤/٣ ، ٤٣٩/٤ ، ٢٨٨/٥ ، ٣٩٩/٥).

وتلك المتقطفات التى ينقلها ياقوت قصيرة فى أغلب المواضع، ولا تظهر فيها شخصية السرخسى أو شخصية الخليفة نفسه. ومن يعد إلى النصوص السالفة يلحظ أنها تقتصر على وصف موقع البلاد، والمسافات بينها، ولا تتعدى إلى وصف الناس بحال، كما أن الانطباعات الشخصية لا مكان لها، ولعل هذا يشير إلى أن النص

---

(١) معجم البلدان ١٣٢/١

(٢) تاريخ الأدب الجغرافى ١٣١/١.

الأصلى يتبع القاعدة نفسها، ولا يكاد يقدم شيئا جديدا يسهم فى تقدم أدب الرحلة، وربما كان سبب ذلك أن المؤلف عالم فيلسوف، يقصد إلى الحقائق المجردة، ويتعامل دوما بلغة الأرقام، ويستخدم الأسلوب العلمى أداة.

ينقل ياقوت عنه أن بين «برقعيد» و «أذرمة» ، خمسة فراسخ، وفى أذرمة نهر يشقها وينفذ إلى آخرها وإلى صحرائها، يأخذ من عين على رأس فرسخين منها، وعليه فى وسط المدينة قنطرة معقودة بالصخر والجص، وعليه رحى ماء، وعليه سوران: واحد دون الآخر، وفيها رحبات وسوق قدر مائتى حانوت، ولها باب حديد، ومن خارج السور خندق يحيط بالمدينة. وبينها وبين السميعية قرية الهيثم بن معمر فرسخ عرضا، وبينها وبين مدينة سنجار فى العرض عشرة فراسخ. انتهى قول السرخسى.

ولعل هذا النص الطويل ـ بالقياس إلى غيره ـ يمثل أسلوب السرخسى ونهجه خير تمثيل.

ـ ٤ ـ

خدمة جليلة طوق بها المستشرق الهولندى «دى خويه» جيد الأدب العربى بنشره سبعة مجلدات تحوى ثمانية كتب فيما أسماه «المكتبة الجغرافية العربية» ، وأول هذه الكتب من حيث زمن التأليف كتاب «البلدان» للمؤرخ المشهور «اليعقوبى» ، فقد ألفه حوالى عام (٢٧٨هـ=٨٩١م) قبل وفاته بأعوام قليلة.

واسم اليعقوبى: «أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب اليعقوبى العباسى، من ذرية واضح مولى المنصور. وكان واضح يتشيع سرا على الرغم من صلاته الوثيقة العباسيين ومناصبه الرفيعة.. وقد عوقب على تشيعه بالموت بعد أن يسر لإدريسى علوى الفرار إلى المغرب.. وقد توارثت أسرته التشيع، فاعترف أحمد بولائه للموسوية»[1] . وعلى الرغم «من أن مولده ببغداد، فقد غادرها مبكرا، فعاش طويلا بأرمينيا وخراسان، وزار الهند وفلسطين، وتمتع برعاية الطولونيين أثناء

(١) تاريخ الأدب العربى ٣٦/٤، وانظر كذلك: دراسات عن المؤرخين العرب مرجليوث ترجمة د/ حسين نصار. دار الثقافة د. ت ١٣٩ ، الجغرافيا العربية ٦٤ ، جهود المسلمين فى الجغرافيا ٤٥ ، مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه ٨١.

مقامه الطويل بمصر والمغرب»[1].

وما نشر من كتابه يمثل الجزء الأكبر، وبعض أقسامه ضاع، كما ضاعت بعض فقرات من أقسام بعينها.

ومصادر الكتاب متعددة، غير أن أهمها رحلاته التى اتسع نطاقها الزمنى والمكانى، وقد عبر عن ذلك بنفسه فى مقدمة كتابه، فقال:

«إنى عنيت فى عنفوان شبابى، وعند احتيال سنى وحدة ذهنى، بعلم أخبار البلدان ومسافة ما بين كل بلد وبلد، لأنى سافرت حديث السن، واتصلت أسفارى، ودام تغربى، فكنت متى لقيت رجلا من تلك البلدان سألته عن وطنه ومصره، فإذا ذكر لى محل داره وموضع قراره، سألته عن بلده ذلك.. ثم أثبت كل ما يخبرنى به من أثق بصدقه، وأستظهر بمسألة قوم بعد قوم. حتى سألت خلقا كثيرا، وكتبت أخبارهم ورويت أحاديثهم، وذكرت من فتح بلدا بلدا، وجند مصرا مصرا من الخلفاء والأمراء، ومبلغ خراجه وما يرتفع من أمواله.

فلم أزل أكتب هذه الأخبار وأؤلف هذا الكتاب دهرا طويلا، وأضيف كل خبر إلى بلده، وكل ما أسمع به من ثقات أهل الأمصار إلى ما تقدمت عندى معرفته. وعلمت أنه لا يحيط المخلوق بالغاية، ولا يبلغ البشر النهاية، وليست شريعة لابد من تمامها.. فجعلنا كتابنا هذا مختصرا لأخبار البلدان. فإن وقف أحد من أخبار بلد مما ذكرنا على مالم نضمنه كتابنا هذا، فلم نقصد أن يحيط بكل شيء، وقد قال الحكيم: ليس طلبى للعلم طمعا فى بلوغ قاصيته، واستيلاء على نهايته، ولكن معرفة مالم يسع جهله، ولا يحسن بالعاقل خلافه. وقد ذكرت أسماء الأمصار والأجناد والكور، وما فى كل مصر من المدن والأقاليم والطساسيج، ومن يسكنه ويغلب عليه ويترأس فيه من قبائل العرب وأجناس العجم، ومسافة ما بين البلد والبلد، والمصر والمصر، ومن فتحه من قادة جيوش الإسلام، وتاريخ ذلك وسنته

(١) تاريخ الأدب الجغرافى ١٥٨/١

وأوقاته ومبلغ خراجه، وسهله وجبله وبره وبحره، وهواءه فى شدة حره وبرده، ومياهه وشربه»[1].

إن المتوقع بعد هذه المقدمة أن يكون وصف اليعقوبى للبلدان ذاتيا، بحيث يكون إطار الرحلة حاويا لها، ومن ثم تكون شخصيته حاضرة، غير أن ذلك لم يحدث، وربما كان السبب التزامه بنهج جغرافى خارجى، مع تعدد رحلاته التى لم تلتزم خط سير موحدا. والظاهرة الواضحة أن اليعقوبى يجيد فى وصف البلاد التى أقام فيها فترات طويلة، ويتوسع فى ذكر ما يخصها. وباستثناء وصفه المسهب «لبغداد» و «سرمن رأى» تستحوذ مصر على اهتمامه، فيفرد لها حوالى اثنتى عشرة صفحة ويبدو أن فترة إقامته بمصر كانت محببة إليه، وأنه كان يكن حبا شديدا لبنى طولون، وثمه حكاية يرويها المقريزى فى خططه تؤكد ذلك، وتظهر موهبته الشعرية.

وسواء أكان الوصف مختصرا أو مسهبا فإن شخص اليعقوبى لا يظهر فيه، ومن ثم فإنه من الممكن نسبة النص إلى أى مؤلف غيره، دون أن يفطن إلى ذلك أحد.

وبسبب هذا الغياب المتعمد لشخصه أسف آدم متز لأنه «لم يخطر له أن يؤلف كتاب رحلة على الحقيقة، يصف فيه تجاربه الخاصة وأحوال الناس، وما لقيه فى أسفاره، ولم يكن جغرافيو ذلك العهد قد بلغوا هذه الدرجة من اعتقاد الطرافة فى أنفسهم؛ فلم يقيموا لأنفسهم وزنا فى هذه الناحية»[2].

وبرغم أن المفترض كون الكتاب كتابا جغرافيا معتمدا على رحلات، ومن ثم يسيطر عليه الطابعان كلاهما أو أحدهما، فإن شيئا من هذا لم يحدث بالدرجة المطلوبة، بل سيطرت ثقافة اليعقوبى التاريخية عليه، فتتبع نشأة المدن أو الولايات، والتطورات التى مرت بها، وأهم حكامها، ليثبت أنه مازال متأثرا بمجال تخصصه الذى جعل من مؤلفه كتابا فى «الجغرافيا التاريخية»

صفة أخرى تميز بها اليعقوبى؛ إذ اعترف «عدد من الباحثين بأمانة اليعقوبى

---

(١) البلدان اليعقوبى. تحقيق دى حويه؟ ليدن ١٩٦٧، ٢٣٢ ـ ٣٣٣

(٢) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ٩/٢ ـ ١٠

العلمية، وتفرده بمعلومات وافية لا توجد فى المصادر الأخرى. ويمثل وصفه للخطط التاريخية لبغداد وسامراء أهمية منقطعة النظير، كما يجب ملاحظة أنه ترك وصفا لأفريقيا قبل انفصالها مباشرة عن بقية أرض الخلافة على يد الفاطميين، وأنه أورد أخبارا قيمة عن الأندلس»[1]. ويمكن تقسيم الكتاب إلى ستة أقسام رئيسية:

١ ـ وصف بغداد.

٢ ـ وصف سامراء.

٣ ـ وصف ربع المشرق، أو بلاد فارس وما يليها.

٤ ـ وصف ربع القبلة، أو الربع الجنوبى.

٥ ـ وصف الربع الشمالى، أو «الجربى».

٦ ـ وصف ربع المغرب، متضمنا الأندلس.

وهذا التصنيف لم يُسبق إليه اليعقوبى، وخاصة حينما يصنف كل ربع تصنيفا داخليا حسب ولاياته. ويلاحظ أنه متأثر بالنظريات الفارسية التى تجعل من العراق وبلاد فارس مركز العالم، فهو قد بدأ بالعراق لأنها ـ كما يقول: «وسط الدنيا وسرة الأرض، وذكرت بغداد لأنها وسط العراق والمدينة العظمى. ولأن سلفى كانوا القائمين بها، وأحدهم تولى أمرها»[2].

ووصفه لبغداد وسامراء وصف مفصل دقيق، والمادة التى يقدمها لدارسى الحضارات ثرية للغاية، ويبدو من وصفه للربع الشرقى أنه زار كثيرا من مدنه، وتعرف عليها مباشرة، ولذلك أفلتت منه بعض الإشارات الشخصية القليلة. وفى الجزء الجنوبى لم يتوقف كثيرا ـ كعادة غيره ـ عند المسجد الحرام، كما فعل معاصره ابن رسته ـ مثلا.

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافى ١/١٦٠

(٢) البلدان ٢٣٣

أما وصفه لبلاد الأندلس فيعتمد على الروايات التى سمعها أثناء تجواله ببلاد المغرب، ومما تجدر الإشارة إليه أنه نص على أن معلوماته عن بعض بلاد المغرب مصدرها «أبو معبد عبد الرحمن بن رستم التاهرتى»[(١)]، وتكاد تكون تلك الإشارة الوحيدة إلى مصدر من مصادره الحية.

لقد كان اليعقوبى موظفا رسميا، ومن ثم فقد انتمى لفئة بعينها، وتراءى له أن يقدم لتلك الفئة خلاصة تجاربه ومعارفه فى كتاب يكون هاديا لهم فى أعمالهم، وتطبيقا لذلك «نجد أنه لا يكترث بالنظرية الجغرافية بل هدفه إعطاء لوحة عامة للبلدان لمن يريدون الإلمام السريع بها.. ويحس فى الكتاب نزعة المؤلف إلى التحليل العقلى، ولا عجب، فهو يخلو من أى أثر للعجائب التى افتتن بها الآخرون»[(٢)].

وقد انعكس هذا الهدف على أسلوب التناول؛ فجاء حاملا لخصائص النثر العلمى لذلك العصر، ذلك النثر الذى كان فى طريقه لاتخاذ صورة نهائية يلتزمها كتاب هذا النوع.

ولعل نمط «فضائل البلدان» كان ماثلا فى ذهن اليعقوبى فزود كتابه ببعض نماذجه، وأوضح هذه النماذج ذكره لفضائل العراق مقابلة مع مساوىء غيرها، وفى هذا الوصف القصير تتضح بعض معالم هذا النمط، يقول:

«فلما أفضت الخلافة إلى بنى عم الرسول (صلى الله عليه وآله) من ولد العباس بن عبد المطلب، عرفوا ـ بحسن تمييزهم وصحة عقولهم وكمال آرائهم ـ فضل العراق وجلالتها وسعتها ووسطها للدنيا، وأنها ليست كالشام الوبيئة الهواء، الضيقة المنازل، الحزنة الأرض، المتصلة الطواعين الجافية الأهل. ولا كمصر المتغيرة الهواء ، الكثيرة الوباء، التى إنما هى بحر رطب عفن، كثير البخارات الردية التى تولد الأدواء وتفسد الغذاء، وبين الجبل الصلد اليابس. الذى ليبسته ولموحته وفساده لا ينبت فيه خضر،ولا ينفجر فيه عين ماء. ولا كأفريقيا البعيدة عن جزيرة الإسلام، وعن البيت الحرام، الجافية الأهل، الكثيرة العدو. وكأرمينيا الباردة الصاردة الحزنة

---

(١) السابق ٣٥٨

(٢) تاريخ الأدب الجغرافى ١٦١/١.

التى يحيط بها الأعداء. ولا كمثل كور الجبل الحزنة الخشنة»[1].

إن كتاب اليعقوبى يمثل حلفا ثلاثيا بين الجغرافيا والتاريخ والرحلة، والواضح أن الرحلة مهضوم حقها، وهكذا حالها عندما ترتبط بغيرها من فروع شجرة الأدب، إذ تصبح الطرف الأضعف.

- ٥ -

ويعتبر نهج ابن الفقيه الهمذانى فى كتابه «البلدان» نموذجا للنهج الموسوعى المغلف بإطار جغرافى؛ فقد حاول فى كتابه هذا ـ الذى ألف مع نهاية القرن الثالث الهجرى ـ أن يجمع المادة الجغرافية المتوفرة حتى عصره، ولذلك فليس غريبا أن نجده معتمدا على كل ـ أوجل – الكتب السابقة عليه، مما ساعد على حفظ قطع من كتب كثيرة ضائعة.

وكتاب «البلدان» الأصلى لم يصلنا، وإنما وصلنا مختصره الذى قام به على بن الحسن الشيزارى عام (٤١٣هـ=١٠٢٢م). ويدل على ذلك أيضا ما ذكره صاحب «الفهرست» من أنه لم يعرف له إلا كتابين «كتاب البلدان نحو ألف ورقة ، أخذه من كتب الناس، وسلخ كتاب الجيهانى، وكتاب ذكر الشعراء المحدثين والبلغاء منهم والمفحمين»[2].

ويعد الكتاب مصدرا رئيسيا من مصادر ياقوت فى معجمه، بل يكاد يكون المصدر الجغرافى الأول له، فقد تعدت نقوله عنه المائة، وميزة هذه النصوص المنقولة أنها من الكتاب الأصلى. وقد تراوح موقف ياقوت منها بين التصديق والتشكيك والتكذيب[3].

وليس ثمة ما يدعو للجزم بأن الكتاب يحتوى حصاد رحلات قام بها ابن الفقيه ـ أو العكس، لضياع الكتاب الأصلى، ولكن الثابت أنه اتخذ من الإطار الجغرافى وسيلة لتضمين كل ما يتعلق بالبلد أو الولاية التى يتحدث عنها؛ لذلك ليس غريبا

(١) البلدان. اليعقوبى. ليدن ١٩٦٧. ص٢٣٦

(٢) الفهرست ١٧١.

(٣) انظر ـ مثلا ـ فى معجم البلدان: ٣٤٥/٢، ٤٥٢/٤، ٢٩٥/٥.

أن يحتوى الكتاب على مادة شعرية كبيرة، وأن يغلب عليه أسلوب الاستطراد المقصود، غير أن المادة ذات القيمة العالية التى يحويها الكتاب هى تلك المناظرات التى نقلها، والتى كانت تعقد بين اثنين أو أكثر، يتحدث كل منهم عن فضائل بلده ومساوىء بلاد الآخرين. ولعل هذا ما حدا ببعض المستشرقين إلى القول بأنه متأثر بأسلوب الجاحظ، أو هو تلميذ له.

والخلط المنهجي اعترف به ابن الفقيه ـ بطريق غير مباشر ـ فى مقدمته للكتاب التى يقول فيها: «كتابى هذا يشتمل على ضروب من أخبار البلدان وعجائب الكور والبنيان، فمن نظر فيه من أهل المعرفة والأدب فليتأمله بعين الإنصاف، وليعرنا فيه حسن محضره، وجميل رأيه.. ويهب زللى لاعترافى، وإغفالى لإقرارى، فإنى إنما ألحقت فى هذا ما أدركه حفظى، وحصره سمعى من الأخبار والأشعار والشواهد والأمثال»[1].

وبسبب هذا النهج اعتبر «كراتشكوفسكى» كتابه «مجموعة أدبية عن بلاد العالم الإسلامى، تزخر بكمية كبيرة من الشعر والقصص، وهو عبارة عن نخبة مختارة من الطرائف الأدبية من أجل القارىء العام، لا تمس الجغرافيا أو الأسماء الجغرافية إلا من بعيد»[2]. كما نقده المقدسى نقدا لاذعا، لأنه «سلك طريقة أخرى، ولم يذكر إلا المدائن العظيمة، ولم يرتب الكور والأجناد، وأدخل فى كتابه مالا يليق به من العلوم: مرة يزهد فى الدنيا، وتارة يرغب فيها، ودفعة يبكى، وحينا يضحك ويلهى»[3].

لقد مثل ابن الفقيه بكتابه هذا آخر حلقة فى سلسلة الخلط المنهجى.

-٦-

كتاب «صفة جزيرة العرب» لابن الحائك الهمدانى (ت ٣٣٤= ٩٤٥) نال اهتماما كبيرا باعتباره من أفضل ما أنتج العقل العربى فى مجال الجغرافيا عامة،

---

(١) مختصر كتاب البلدان ابن الفقيه ليدن ١٩٦٧ ، ص ٢٢، وانظر كذلك ص ١٩٣

(٢) تاريخ الأدب الجغرافى ١٦٣/١

(٣) أحسن التقاسيم ص٥

والجغرافيا الإقليمية خاصة، إذ حصر الهمدانى مجاله فى الجزيرة العربية فحسب.

الكتاب يعتمد ـ بصفة أساسية ـ على تلك المعلومات التى جمعها الهمدانى فى رحلاته المتعددة، سواء لطلب العلم، أو أثناء القيام بوظيفة نقل الحجاج والتجار، وقد أشار إلى ذلك حين أخبر عن الحجاج أنهم كانوا «يأكلون سفرهم طرية الخبز ويابسة غير متغيرة من صنعاء إلى كتنة، وإلى أبعد، وكنت أنظر إلى التجار إذا حملناهم إلى مكة من صعدة: يأكلون سفرهم طرية إلى نصف الطريق، ويابسة تدق وتذر إلى مكة، وكنا نحن نستعمل فى أسفارنا خبز الملة والسمن واللحم والمهاد، ونرى أن خبز السفرة إذا فت من وعثاء السفر»[1]. ويشير محقق الكتاب إلى أن الهمدانى لم يكن «من أولئك الذين يعتمدون على النقل من الكتب، وإنما كان يجوب آفاق الجزيرة ويدرس آثارها، ويسجل ما رآه رأى العين واختبره بالمشاهدة»[2].

ويبدو أن تكرار الرحلات على وتيرة واحدة قد حفز الهمدانى على التدوين تدوينا علميا مستقصيا، مع الإضافة الدائمة ولكن ـ فى المقابل – أهمل الجانب الذاتى إهمالا يكاد يكون تاما، فلم تند عنه إلا بضع إشارات ذاتية خاصة أو إنسانية عامة. ولا يعنى هذا أن كتابه خلو من كل ما يمت للأدب بصلة، إذ يلفت النظر ذلك الكم الكبير من الشعر الذى يحتوى على أسماء مواضع جغرافية، كما يلفت النظر ذلك الاهتمام الخاص بالرسائل النثرية لأبى بشر بن بكار؛ حيث نقل عنه رسائل عديدة كاملة، ثم حرصه على تضمين أرجوزة الحج لأحمد بن عيسى الرداعى، بعد أن بذل جهدا طيبا من أجل العثور عليها كاملة صحيحة، ثم شرحها.

قد يقال: إن الهمدانى قد وصف أهل الجزيرة وطباعهم فى مقدمة كتابه، وأن هذا الوصف يضم كتابه إلى حظيرة «أدب الرحلة» أو «الأدب الجغرافى» على أقل تقدير، ولكن ينفى هذا أن ذلك الوصف جاء من وجهة نظر فلكية بحتة، دونما اعتماد على ملاحظة مباشرة واستنتاج مبنى على تجارب فعلية، أى أن هذا الوصف نقلى ونظرى فى آن .

---

(١) صفة جزيرة العرب للهمدانى تحقيق محمد بن عبد الله بن بلهيد. مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٣ ص١٩٧.

(٢) السابق ٦

إن الهمداني «شخصية فذة لوطني متحمس، وعالم متعدد النواحي، وشاعر.. وهو لم يكن جغرافيا فحسب، بل خبيرا كبيرا بأنساب العرب وتاريخ الجزيرة العربية نفسها ـ خاصة آثارها القديمة»[1].

انعكست شخصية الهمداني على عمله، فجاء خليطا من الجغرافيا والتاريخ والأدب، يحكم ذلك كله نهج علمي حاول تطبيقه بصرامة ـ وإن أفلت منه الزمام في بعض الأحيان ـ إن واعيا أو دون وعي ـ مراعاة لاعتبارات عديدة نبه إليها أحيانا، وأغفل التنبيه إليها أخرى، لذلك، ليس غريبا أن يصف موضعا، ثم ينتقل إلى وصف مواضع أخرى ثم يعود للموضع الأول، أو أن يصف الموضع أكثر من مرة لكن.. لابد من الإشارة إلى أنه كان يكتب «علما» في كل الأحوال، وأن تسرب بعض العناصر الأدبية كان لخدمة هذا العلم، وبذلك تقل قيمتها.

ويتضح تسخيره المادة الشعرية لخدمة الوصف العلمي من ذلك الفصل الذى خصصه لذكر «ما أتى من الشعر جامعا لكثير من مساكن العرب ومسالكها مما تناهى إلينا وسمعناه، وذلك قليل من كثير مما يعلمه العرب لأنه في خصائص من المواضع»[2]. وطريفة تلك القصائد الثلاث التي نقلها، والتي ضمن فيها كل شاعر المواضع الجغرافية في دياره كنوع جديد من المفاخرة الشعرية.

ذكر الهمداني أنه يهدف إلى «ذكر مساكن هذه الجزيرة ومسالكها ومياهها وجبالها ومراعيها وأوديتها، ونسبة كل موضع منها إلى سكانه ومالكه على حد الاختصار، وعلى كم تجزأ هذه الجزيرة من جزء بلدى وفرق عملي وصقع سلطاني وجانب فلوى وحيز بدوى؛ ليكون من نظر في هذا الكتاب كأنه مكان ذى القرنين مساح الأرض، وتميم الدارى جواب عامرها وخرّيت سامرها، ومشارف أقصاها وأدناها؛ وليعرف وسيع أرض ربه وكثرة خلقه وسعة رزقه، لا إله إلا الله العزيز الحكيم»[3]. وعليه.. قسم الكتاب إلى قسمين: الأول مقدمة أغلبها مستقى من المعارف الفلكية النظرية الذائعة آنذاك ويكثر النقل فيها عن بطلميوس، وحين

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافي ١٧٠ .

(٢) صفة جزيرة العرب ٢٠٤ .

(٣) السابق ٤٦

يفرغ منها يذيلها بقول: «تم الكتاب الأول من صفة البلاد، والحمد لله رب العالمين» أما الكتاب الثانى ـ أو القسم الثانى الأكبر ـ فهو الوصف الفعلى للجزيرة، مع تركيز شديد واضح على القسم الجنوبى، وإيجاز غير مناسب فيما عدا ذلك. وربما عاد ذلك إلى المعرفة الجيدة ببلاده التى عاش فيها معظم حياته، واعتزازه بها حتى سمى «لسان اليمن».

وحين التطبيق العملى لنهجه، أعلن الهمدانى أنه سيفصل «صفة كل شق من هذه البلدان منفردة بأسمائها، فما كان منها من بلد ضيق استوعبنا ما فيه، مثل: العروض ونجران. وما كان من بلد واسع تزيد أقل أجزائه على أكثر العروض فإنا نصفة صفة عامة متجاوزة؛ لسعة البلاد وكثرة المساكن»[1] ويعنى هذا أنه يطبق نهجا خارجيا يتخذ من حجم الموضع أساسا لوصفه ـ دون اعتبار لانطباعاته عن هذا المكان، أو لطبيعته وظروفه الخاصة.

وإذا كان يجنح ـ فيما ندر ـ لاستخلاص خصائص عامة لإقليم كبير، فإنه سرعان ما يعود إلى سيرته الأولى، متخذا من الوصف الموضوعى نهجا وأسلوب عمل.

وأغلب مصادر الهمدانى مصادر حية ـ فيما عدا مصادر المقدمة، أهمها ملاحظاته المباشرة، ثم تليها طائفة من الخبراء العارفين بأحوال البلاد ممن يثق فيهم، ومنهم محمد بن عبد الله بن إسماعيل السكسكى(٧٣)، وأحمد بن الحسن العادى الفلجى (١٦١) والفضال الدليل(١٨٧) وعمر بن الشهاب (١٩٥)، ولعل أهم هؤلاء أبو مالك أحمد بن محمد بن سهل بن صباح اليشكرى الذى اعتمد عليه فى وصف البحرين ونواحيها، ومبرره أنه «كان قد سكن هذه المواضع وتجعها ورعاها وسافر فيها وكان بها خبيرا»[2]. أما مالم يصل إليه علمه من مصدر ثقة فإنه يتحرج من الإدلاء فيه برأى؛ ولذا فإنه عندما يتحدث عن خط الاستواء ـ فى المقدمة ـ يذكر ما اطمأن لصحته «أما المساكن فى هذه البلاد على الخط فلست أقدر أن أقول فى ذلك ما أحيط بعلمه؛ لأنه لم يصل إليها

(١) صفة جزيرة العرب ٥١

(٢) السابق ١٣٦.

ـ إلى هذه الغاية ـ أحد ممن عندنا، وما يقال فهو إلى أن يجرى مجرى الحدس أقرب منه إلى أن يجرى مجرى الخبر عن المشاهدة» [1]. وفي مواضع متفرقة يشير الهمداني إلى كتبه، وينقل عنها، أو يحيل إليها مثل: كتاب الإكليل (٣، ٥٥) وسرائر الحكمة (٥).

إن الهمداني لم يقصد لمتعة تسببها زينة لفظية، وإنما كان هدفه الأكبر أن ينقل إلى قارئه كل ما جمعه من معلومات عن هذا الإقليم، ولذا فإن استخدامه للغة يكاد يكون مقصورا على أنها أداة للتوصيل فحسب، وليست غاية في ذاتها. ولكن شخصية الهمداني الأديب كانت تطل في بعض الأحيان، فيقصد إلى التأنق، ذلك التأنق الذى يظل في خدمة هدفه الأساسي ولا يخرج عنه. وفي مواضع قليلة يلجأ للسجع ـ مجاراة لتقاليد عصره، ولعل أهم هذه المواضع ما خصصه لذكر مفاخر الجزيرة العربية التي بها «الوادى المقدس طوى، وطور سيناء، ومسجد إيلياء، وآثار الأنبياء، ومنابت الأتقياء، ومحافد الأصفياء، وعرصة المحشر، وجبال الرحمة.. وبها أفرس من ركب الخيل، فهم لها حزم وأحلاس، وأحسن من امتطى الإبل، فهم لها أرباب وأقياس، وأوفى من تقلد ذمة ، وأبرع من نطق بحكمة، وبها من يعد المئة بين حجة وعمرة.. وبها الممالك القديمة والآثار العظيمة مثل: ناعط وغمدان وهكر وريدان.، وبينون وغيمان، وبرك الغماد، وإرم ذات العماد» [2].

إن كتاب الهمداني أنموذج رفيع للبحث العلمي في القرن الرابع الهجرى، ولا عجب ـ إذا ـ أن يظل محتفظا بالكثير من قيمته العلمية إلى وقتنا هذا.

ـ٧ـ

في عام (٣٧٥هـ = ٩٨٥م) وضع المهلبي مصنفه المعروف «بالعزيزى» نسبة إلى الخليفة الفاطمي «العزيز» (٣٦٥ ـ ٣٨٦هـ = ٩٧٥ ـ ٩٩٦م).

وهذا الكتاب صنف «ياقوت» صاحبه فيمن ذكروا البلاد والممالك، وعينوا

---

(١) صفة جزيرة العرب ١١

(٢) السابقة ٣

مسافة الطرق إليها[1]. وهو تصنيف يتفق مع الاسم الآخر للكتاب، فقد عرف أيضا باسم «المسالك والممالك»، ويبدو أن الاسمين كانا من وضع المؤلف نفسه.

والشائع عن المهلبى أنه مجهول الهوية، بيد أن هذا الرأى ـ الذى قال به باحثون كبار ـ ينطوى على قصور مرده أن الاسم الكامل للمهلبى يرد فى صيغ كثيرة مختلفة فى «معجم البلدان»، هذا بينما يرد الاسم الصحيح كاملا فى «معجم الأدباء» مع ترجمة قصيرة.

فى «معجم البلدان» يرد الاسم على أنه «الحسن (أو الحسين) بن أحمد (أو محمد) المهلبى المصرى، وفى «معجم الأدباء» يصبح أبا الحسن على بن أحمد المهلبى اللغوى، ويتضح أنه كان إماما فى النحو واللغة ورواية الأخبار وتفسير الأشعار.. ومات بمصر فى سنة خمس وثمانين وثلاثمائة (٩٩٥م) .. وذكر على ابن حمزة البصرى النحوى أنه كان لقيطا، وكان له اختصاص بالمتلقب «بالمعز والعزيز» المستوليين على الديار المصرية، ومن جلسائهما الخواص. وأدرك دولة كافور الإخشيدى وله مع أبى الطيب أحمد بن الحسين المتنبى قصة»[2].

وكتاب المهلبى مفقود، وصاحب «معجم البلدان» ينقل عنه ما يساعد على وصفه وصفا جزئيا، إذ ينقل عنه ما يزيد عن الخمسين موضعا وقد استطاع «د/ صلاح الدين المنجد» الحصول على مخطوط ليمنى يدعى «محمد بن الحسن الكلاعى» ينقل صاحبه عن المهلبى عدة قطع مصدرا إياها بقوله: قرأت فى كتاب المسالك والممالك «العزيزى» تأليف الحسن بن أحمد المهلبى[3].

والقطع الثلاث التى نقلها الكلاعى تحمل العناوين التالية: صفة بيت المقدس، ولاة مصر ـ وهى قائمة غير دقيقة لولاة مصر اضطر المحقق لتعديلها ـ ثم: صفة دمشق. ومقارنة هذه القطع بما نقله ياقوت عن المهلبى تظهر أن ثمة خلافا كبيرا بين أسلوب هذه وأسلوب تلك؛ ففيما عثر عليه يكثر المهلبى من كلمتى «قيل ـ

---

(١) معجم البلدان ١١/١.

(٢) معجم الأدباء. ياقوت الحموى. مطبعة أحمد فريد رفاعى. ٢٢٤/٢ ـ ٢٢٥.

(٣) قطعة من كتاب مفقود. المسالك والممالك للمهلبى. د/ صلاح الدين المنجد. مجلة معهد المخطوطات العربية، مايو ١٩٥٨، ٤٩.

قالوا» بينما نصوص ياقوت لا تتضح فيها هذه الظاهرة، وهذا يغلب أن تكون نقول «الكلاعى» منحولة على المهلبى، يضاف إلى ذلك أنها أدخل فى التاريخ منها فى «أدب الرحلة» أو «الأدب الجغرافى».

لقد خرج المهلبى بتكليف من الخليفة الفاطمى، وكان هدف الرحلة الأساسى كشف منابع النيل، إضافة إلى التعرف الدقيق على السودان «وبموجب هذا التكليف كانت رحلة المهلبى فى أنحاء السودان بمعناه الجغرافى الفضفاض رحلة سفارة»(1).

ويبدو أنه قدم تقريرا رسميا للخليفة فور عودته، مضمنا إياه كل ما رأى وعلم فى السودان، ثم تراءى له ـ فيما بعد ـ أن يضم إليه ـ أو يضمه إلى ـ محصول خبراته ومشاهداته فى كافة البلاد الإسلامية، فاتخذ من تقرير السودان أساسا أقام عليه بقية كتابه الذى أهداه للخليفة كذلك. وإضافة إلى تركيزه على السودان، حصلت مصر ـ موطنه ـ وقيل إنه شامى ـ على قسط وافر من اهتمامه، كما وصف بعض بلاد الشام والمغرب والجزيرة العربية، وبناء على خبرة شخصية قدم وصفا لمدينة «سامراء» العراقية.

وما ينقله ياقوت قطع لا تتعدى بضعة أسطر إلا فى مواضع قليلة، وقد أدى فصل هذه القطع عن سياقها إلى تقديم صورة مشوهة للكتاب، كما أن الاقتصار على مواضع الاستشهاد أدى إلى التصرف فى النصوص، فضاعت تفاصيل كثيرة.

المهلبى ـ الرحال ـ لم تتضح خصائصه، فصفاته الشخصية وخروجه عن الوصف الجغرافى الجاف لا يظهران إلا فى مواضع نادرة؛ كقوله فى وصف «سامراء»: «وأنا اجتزت» بسر من رأى«منذ صلاة الصبح فى شارع واحد ماد عليه من جانبيه دور كأن اليد رفعت عنها للوقت، لم تعدم إلا الأبواب والسقوف.. فمازلنا نسير إلى بعد الظهر حتى انتهينا إلى العمارة منها.. ثم سرنا من الغد على

---

(1) الرحلة عين الجغرافيا ١٢٥، وتاريخ الأدب الجغرافى ١/ ٢٣٠، وعصر الدول والإمارات د/ شوقى ضيف (مصر) ١٠٥.

مثل تلك الحال، فما خرجنا من آثار البناء إلى نحو الظهر. ولاشك أن طول البناء كان أكثر من ثمانية فراسخ»[1].

ومن المواضع التى خرج فيها عن الوصف الجغرافى الجاف ما ذكره من أن «من طريف أمر دمياط وتنيس أن الحاكة بها ـ الذين يعملون هذه الثياب الرفيعة ـ قبط من سفلة الناس وأوضعهم وأحطهم مطعما ومشربا. وأكثر أكلهم السمك المملوح والطرى والصير المنتن، وأكثرهم يأكل ولا يغسل يده، ثم يعود إلى تلك الثياب الرفيعة الجليلة القدر فيبطش بها، ويعمل فى غزولها ثم ينقطع الثوب، فلا يتبك مقلبه للابتياع أنه قد بخر بالند»[2].

وواضح أن الكتاب كان مقسما إلى أقاليم، يتحدث المهلبى عنها من حيث موقعها والمسافات بينها وأشهر مدنها، كما يتطرق أحيانا ـ إلى بعض خصائصها. وفى وصفه يبدو أسلوبه عمليا، بحيث لا يمكن ملاحظة تكلف عليه.

إن التقويم الصحيح لن يتم إلا بعد ظهور الكتاب كاملا، والتعويل على نصوصه المقتطعة محاولة لإدراك جزء ـ بدلا من ترك الكل، والركون إلى الدعة.

---

(١) معجم البلدان ٣/ ١٧٦.

(٢) السابق ٢/٤٧٣.

الفصل الثالث

الرحلة.. والأدب الجغرافى

الأدب الجغرافى

النماذج التى يتناولها هذا الفصل نماذج متميزة على أرض الواقع، فأغلب أصحابها كانوا من المشهورين بحب الترحال، حتى إن الواحد منهم كان اسمه يصدر بلقب «الرحال».

ورغم هذا التميز فإن حصاد الرحلات الطويلة لم يدون بصورة لائقة عند كل من : التاجر سليمان ، وأبى دلف، والمسعودى، بينما كان الحال أفضل عند الباقين، خاصة المقدسى وابن حوقل.

والنصوص التى بين أيدينا تكاد تكون الأثر الوحيد لمعظمهم، ولذا فقد كان متوقعا أن يبالغ كل منهم فى التجويد. ولكن مفهوم التجويد عندهم كان يعنى التزام مناهج علمية صارمة، والبعد عن حكاية التجارب الخاصة التى يظنون أن أولياءهم- أو قراءهم العاديين- لن ينتفعوا بها.

إن نص التاجر سليمان يكاد يكون الأثر الأول المعروف الذى يتناول منطقة الهند والصين بالوصف، مستعرضا مراحل الطريق البحرى، ومعرفا مواطنيه بعادات وتقاليد هذين الشعبين، ورسالتا أبى دلف وكتابات المسعودى يمثلان نموذج التناقض الشديد بين الواقع وتسجيله، فكلاهما كان دائم الترحال، ولكن شيئا طريفا من تجاربهما لم يسجل فى أعمالهما، بحيث تقترب من أدب الرحلة.

أما أصحاب المدرسة الكلاسيكية فقد أدوا خدمات جليلة للعلم فى عصرهم، فقد كان هدفهم واضحا، ومحاولاتهم لتحقيقه جادة، ومن ثم فقد قدموا نموذجا متميزا للجهد العلمى المتكامل، وإن كان يؤخذ عليهم اقتصارهم على وصف مملكة الإسلام فحسب.

والنموذج الأخير المتتبع لخطى هذه المدرسة- والمطور لها- كان أكثر النماذج طرافة، واقترابا من أدب الرحلة. ولو أنه لم يضع لنفسه نهجا علميا محكما منذ البداية، لكان لعمله شأن آخر فى خريطة أدب الرحلة.

- ١ -

في عام (٢٣٧هـ - ٨٥١م) سجل عربي اسمه «سليمان» انطباعاته عن رحلاته إلى الهند والصين والطرق المؤدية إليها. وكتابه لم يعرف عنوانه، فقد ضاعت صفحاته الأولى؛ لذا وضع المستشرق الذى نشر المخطوط مع مطلع القرن التاسع عشر- وضع اسما مقترحا هو : «سلسلة التواريخ» ، وهو اسم لايعبر- بحال- عن مضمون الكتاب. ولعل هذا التصرف يدل على خطورة إسناد تحقيق كتب التراث لمثل هذا المستشرق الذى جنى على الكتاب جناية كبيرة؛ فأخرجه مسخا مشوها، حاويا للأخطاء من كل نوع.

مع ذلك، يظل الكتاب أول أثر يمكن الاتكاء عليه فى تعرف طبيعة العلاقات بين العرب والهند والصين آنذاك، كما يظل أول أثر عربى يصف المنطقة بأسرها وصفا حيا مباشرا.

ونسبة الكتابة إلى التاجر سليمان لايعتورها شك، رغم أن بعض علماء «الصينيات» قد تشككوا فى نسبة القصص إليه.. ومن الملاحظ أنه لاترد فيه إشارة إلى سليمان إلا مرة واحدة «ص١٤»، غير أن «فيران» قد لفت الأنظار إلى أن «ابن الفقيه» ينسب القصص صراحة إلى سليمان. ولهذا فإن مسألة تأليفه لها لايحوم حولها أدنى شك[١] . كما أن الثقة فى معلوماته أكدها القدماء والمحدثون؛ فأبوزيد السيرافى- ناشر الكتاب قديما- يعلق على الكتاب جملة قائلا: «وجدت تاريخ الكتاب سنة سبع وثلاثين ومائتين، وأمور البحر فى ذلك الوقت مستقيمة لكثرة اختلاف التجار إليه من العراق. ووجدت جميع ماحكى فى الكتاب على سبيل حق وصدق، إلا ماذكر فيه من الطعام الذى يقدمه أهل الصين للموتى منهم»[٢]

يضاف إلى ذلك أن الدراسات الحديثة أثبتت أنه: «يصف الطريق بدرجة من الدقة مكنت «فيران» من أن يتتبعه على الخارطات الحديثة. وهو خير مثال للتجار العرب والفرس الذاهبين إلى الصين.. كما ثبت أن المعلومات التى أوردها عن «كانتون»

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافى ١٤١/١

(٢) سلسلة التواريخ: التاجر سليمان، أبو زيد السيرافى، تحقيق لانجليس، باريس ١٨١١، ص ٦١

تتميز بالفصيل والدقة»[1] . ويؤكد باحث على أن هذا الكتاب شاهد على عناية علمية شديدة كان يتصف بها التجار العرب فى تزويدهم قراءهم من الشعود العربية لذلك العهد بمعلومات فريدة هامة عن بلاد الشرق القاصية[2] . كما ينبه باحث آخر إلى أن القيمة الجغرافية للكتاب كبيرة، لأنه يلخص المعرفة الجغرافية عند العرب قبل عام (٢٣٦هـ- ٨٥٠م)، ويقدم الكتاب كمية كبيرة من المعلومات عن البحار والجزر والطريق البحرى من سيراف إلى الصين»[3] .

يمثل الكتاب تسجيلا لمعارف وانطباعات التاجر سليمان عن الهند والصين، والطريق البحرى المؤدى إليهما. وهو ليس نتاج رحلة أو رحلتين، بل نتاج رحلات متعددة استغرقت فترة زمنية طويلة، حتى إنه زار مكانا بعينه- فى الهند- بعد ستة عشر عاما من زيارته الأولى له[4] .

كان هم التاجر سليمان أن يقدم معارفه بطريق مباشر، ولأن هذه المعارف نتاج رحلات- لا رحلة- فقد استباح لنفسه أن يقدمها كيفما اتفق، غير ملتزم بنهج أو خطة تفصيلية، ولأنه يقدم معلومات، نسى- أو تناسى- أنه صاحب هذه الرحلات، فلم يلتفت إلى نفسه إلا فى مواضع قليلة، لم تسهم- بحال- فى رسم صورة واضحة ودقيقة لشخصه. رغم ذلك يبدو التاجر سليمان مغامرا جريئا، يسافر فى سبيل الربحين: المعنوى والمادى. كما يبدو دقيقا متعمقا فى ملاحظاته أحيانا، ساذجا فى أحيان أخرى، تسيطر عليه طبيعة التاجر الذى يتابع كل ما من شأنه أن يؤدى إلى ربح.

فى سفراته العديدة اتخذ التاجر سليمان من البحر سبيلا- بل صديقا، فأتاحت له هذه الصداقة معرفة جيدة به. وكانت الترجمة العملية لهذه الصداقة أن افتتح كتابه بالحديث عن أهم البحار، أو بعبارة أخرى- أهم أجزاء المحيط الهندى، ففصل هذه الأجزاء، وأثناء حديثه عن كل جزء كان التداعى يحكمه فيذكر كل

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافي ١/ ١٤١.
(٢) الجغرافيا عند المسلمين ١٤٠
(٣) الجغرافيا العربية ٦١.
(٤) سلسلة التواريخ ٥١.

مايتعلق بالبحر من عجائب وسكان وخصائص. ثم تراءى له- بعد هذا الشرح المفصل- أن يلم شتاته، فكان الوصف الدقيق- للغاية- للطريق البحرى، وما يحدث أثناء السير فيه- كان الحل الأمثل لذلك.

هذا الخط الملاحى قد ينتهى فى الهند، وقد ينتهى فى الصين، ويكون مبرراً- حيئذ- أن يتوقف التاجر سليمان عند هذين البلدين متحدثا عنهما منفردين أحيانا، ومقارنا بينهما فى أحيان أخرى، محكوما- فى الحالتين كلتيهما بمنطق التداعى.

ولأن البحر كنز عجائب وغرائب، كان طبيعيا أن يركز على كل ماهو عجيب وغريب، وأن يتجاهل كل مألوف- فى اعتقاده، ولكن- يلاحظ أنه حينما يروى عجيبا أو غريبا، لاتنم تعبيراته عن انفعاله به، إنه يرويه كشىء مألوف، فهل كان لسفراته المتعددة أثر فى ذلك؟ ويلاحظ كذلك أن مايرويه يمكن قبوله باعتباره محتملا، وقليلا مايروى مايعد مستحيلا، بل إنه إذا لمح شيئا من المبالغة فى حكاية ما- سارع إلى التأكيد على أنه عاينها بنفسه، ومن ثم فلا مجال للشك فيها.

لقد كان نزوعا ايجابيا أن يحاول التاجر سليمان تفسير بعض الظواهر الطبيعية، ولكن هذا التفسير يغلب عليه طابع الظن والتخمين. كما كانت ملاحظاته الدقيقة المعتمدة على الاستنفار الدائم للحواس شهادة له بوعيه بدوره الذى من أجله خرج.

ولأن الحواس مستنفرة؛ لم يكتف بما رأى أو سمع بنفسه، وإنما استعان بغيره، فاستعار منهم مالفت أنظارهم وما أعجبهم، وضمنه كتابه، ناصا على ذلك بقوله: «ذكروا» وكأنه باحث يستعين بكل الوسائل المتاحة ليخرج بحثه فى صورة مرضية. لقد استقصى حتى علم كيف يؤرخ الهنود، وتعرف على نظام حكمهم، ثم كان تفصيله الرائع لعادات وتقاليد الصينيين تفصيل من عاشرهم وخبرهم ردحا طويلا، ولم يكتف بذلك، فحكم مقاييسه العقلية فى المقارنة بين هذين الشعبين، ليخرج بحكم يتتم منه تفضيل الهنود على الصينيين.

لم يكن التاجر سليمان يروى وصف رحلة واحدة من لدن بدايتها حتى نهايتها، وإنما كان هدفه تقديم صورة شبه كاملة عن الهند والصين، وما يؤدى إليهما، لذا كان الاستطراد طابعا عاما سائدا. وهذا الاستطراد تراوح بين الخروج

الجزئى والخروج الكلى عن الموضوع.

يبدأ التاجر سليمان بذكر البحار والجزر التى يصادفها راكب البحر إبان سفره إلى الصين، ولاينسى حين يذكر بحرا أن يذكر عجائبه، وحين يذكر جزيرة يفصل أحوال سكانها، وعاداتهم، وتقاليدهم، مركزا على ماهو عجيب وغريب.

وفى نص ذى أهمية يفصل التاجر سليمان المراحل التى يمر بها المركب- أو السفينة- من لدن الرحلة حتى نهايتها، بيد أن الوصف الخارجى يفقد هذا الجزء المميز كثيرا من حيويته. ثم يشرع فى ذكر أخبار بلاد الهند والصين وملوكهما، وموقفهم السياسى من العرب. وتركيز العدسات على الصين واضح، فقد أفاض فى وصف مظاهر الحضارة الصينية، بدءاً من عاداتهم فى الطعام والشراب، مرورا بنظام الحكم المركزى والمحلى، ونظام الجمارك، وأوضاع المسلمين، ونظام القضاء والضرائب والسفر، والمعاملات المالية بين أفراد الشعب، ونظام التأمينات الاجتماعية، والعلاج، والزواج، ودفن الموتى، والديانات. ثم ينتهى بعقد مقارنة مكثفة بين الصين والهند، وهو- فى كل ذلك- لايكتفى بالنقل، بل يتعداه إلى النقد الذى يتخذ صورة جادة حينا، وأخرى فكاهية حينا آخر، كما يلمح بعض الصور الطريفة التى تنم عن قوة ملاحظة.

ولأن التاجر سليمان لم يرض بالنهج التقليدى المعتمد لتدوين الرحلات، فقد لجأ إلى البديل.. لجأ إلى بنية المحاور، فركز عدساته على ثلاثة محاور رئيسية هى:

١ - البحر، وكل مايتعلق به من عجائب وجزائر وخطوط ملاحية. إلخ .

٢- وصف الهند وأهلها .

٣ - وصف الصين وأهلها .

وقد استأثر المحور الثالث باهتمام التاجر سليمان تلاه المحور الأول، فالمحور التانى.

وبعد أن اختمرت فكرة المحاور تلك فى ذهنه، شرع يدون كتابه، فاستعان بذاكرته القوية، ولكن الاعتماد على الذاكرة فحسب طبع الكتاب بطابع الاستطراد، والخلط، والتداعى.

ولأن سليمان تاجر، فقد اقتصد فى وصفه، وجاء أداؤه اللغوى متسقا مع

وظيفته، فمفرداته سهلة واضحة- إلا ما كان محكيا عن لغته الأصلية، وفى هذه الحالة يحاول شرحه، فملك «الصين اسمه البغبون، ومعناه: ابن ماء السماء، ونحن نسميه «المغبون»[1]. وما كان من مدينة صغيرة يسمى ملكها «طوسنج» ومعنى، «طوسنج» أقام المدينة، وماكان من مدينة مثل «خانفوا» فاسم ملكها «ديفو»، وقاضى القضاة يقاله: «لقشى مامكون»، ونحو هذا من الأسماء مما لانضطبه»[2] .

وقد يستفاد بكتاب التاجر سليمان فى معرفة الجذر اللغوى لكلمة، مثال ذلك إشارته الطريفة للشاى- قبل أن يعرفه العرب، فالملك يختص «بالملح وحشيش يشربونه بالماء الحار، ويباع منه فى كل مدينة بمال عظيم، ويقال له «الساخ»، وهو أكثر ورقا من الرطبة، وأطيب قليلا، وفيه مرارة: يغلى الماء ويذر عليه، فهو ينفعهم من كل شىء»[3] .

وتمتاز جملة التاجر سليمان بقصرها، وأدائها الغرض بسهولة، دون قصد إغراب، أو تعقيد. إنه يصف نظام التأمينات الاجتماعية فى الصين، يقول: إذا ولد لأحد ذكر كتب اسمه عند السلطان، فإذا بلغ ثمانى عشرة سنة أخذت منه الجزية، فإذا بلغ ثمانين سنة لم تؤخذ منه جزية، وأجرى عليه من بيت المال، ويقولون: أخذنا منه شابا، ونجرى عليه شيخا»[4] .

ولعل خلو الكتاب من المواقف الحوارية قد أفقده بعض الحيوية، غير أن الصور الطريفة الكثيرة قد عوضت هذا النقص تعويضا جزئيا. ومايجب التنبيه عليه أن الكتاب يحتاج إلى إعادة تحقيق ونشر لأنه يمثل قيمة كبيرة يجب الحفاظ عليها، والاعتناء بها.

---

(١) سلسلة التواريخ ٤٦.

(٢) السابق ٣٨

(٣) نفسه ٤١.

(٤) نفسه ٤٧.

- ٢ -

شغل المستشرقون منذ قرن ونصف القرن بالأثر المسمى «الرسالة الأولى» للرحال العربى أبى دلف مسعر بن مهلهل الينبوعى الخزرجى- ثم شغلوا منذ نصف قرن بدراسة النص الكامل «للرسالة الثانية» بعد أن درست كنصوص مفرقة.

ورغم أن أبا دلف عاش الجزء الأكبر من حياته فى بلاد فارس- متنقلا بينها- فإن أصله عربى، واسمه دليل على أنه كان يقطن الجزيرة العربية التى ولد فيها- قبل رحيله عنها.

وكان قد عاش تسعين عاما[1] حين ألف الثعالبى كتابه «يتيمة الدهر» عام (٤٠٠ هـ- ١٠٠٩ م)، ولذلك يكون مولده حوالى عام (٣١٠هـ- ٩٢٢م).

والفترة السابقة على حلوله «خراسان» مجهولة تماما، ولا إشارة يمكن الاتكاء عليها بصددها إلا قوله: «ولما نبا بى وطنى، ووصل بى السير إلى خراسان ضاربا فى الأرض»[2] . ويستنتج من ذلك أن ثمة صعوبات واجهته فى موطنه أجبرته على الرحيل.

مصادر المعلومات :

١ - لعل أهم مصادر المعلومات عن أبى دلف أعماله نفسها، وخاصة الإشارات الداخلية فى رسالتيه مثل: التواريخ والإشارات إلى الحكام المعاصرين، واتجاه الرحلة.. إلخ[3] . وفى هذا الصدد جمع «مينورسكى» اثنتى عشرة إشارة من هذا النوع متفاوتة فى أهميتها .

٢ - «الفهرست» لابن النديم «ألف عام ٣٧٧هـ- ٩٨٧م» حيث يذكر مقابلته الشخصية لأبى دلف، وينقل عنه نصين قصيرين[4]، كما يعلن أنه «كان جوالة» .

---

(١) يتيمة الدهر ٣٥٢/٣.

(٢) معجم البلدان ٤٤١/٣

(٣) Abù - dulaf Mısar ibn Muhalhıl's Travrels ın Iran V. Minorsky - Cairo University - 1955. P. 1.

(٤) الفهرست ٤١٠، ٤١٢.

٣ - يتيمة الدهر للثعالبى (٣٥٠هـ- ٤٢٩هـ = ٩٦١ - ١٠٣٨م)، وهو أهم مصدر للمعلومات عنه[١].

٤ - «دمية القصر» للباخرزى، حيث ينقل عنه بعض أشعاره[٢].

٥ - «لطائف المعارف» للثعالبى أيضا، حيث ينقل عنه نصا فى «خصائص البلدان» كان جديرا بأن يكون خير ختام لكتابه[٣]، وقد تكرر نقل هذا النص فى أكثر من مصدر، بيد أن تشويها وتحريفا أصاباه فيها، كما فعل أبو حامد الغرناطى فى «تحفة الألباب»، «وعمر بن الوردى» فى «خريدة العجائب».

قبل عام (٣٣١ هـ = ٩٤٣ م) بقليل «ظهر أبودلف للمرة الأولي فى بلاط نصر بن أحمد السامانى (حكم ٣٠١ - ٣٣١ هـ = ٩١٣ - ٩٤٣م)، وفى هذا الوقت وصلت سفارة ملك الصين «قالين بن الشخير» تطلب المصاهرة بين الأسرتين المالكتين، ولكن الأمير الساماني رفض تزويج ابنته لكافر، ومع ذلك قبل أن يتزوج أحد أبنائه إحدى الأميرات الصينيات، وعادت السفارة إلى سندا بل (خانفو) ومعها مبعوثو نصر، وبصحبتهم أبو دلف... وpيئذ مات نصر (٣٣١ هـ = ٩٤٣م) قبل وصول الأميرة التى زوجت - فى هذا الوقت لابنه «نوح بن نصر» (حكم ٣٣١ - ٣٤٣ هـ = ٩٤٣ - ٩٥٤ م) وأصبحت أم الأمير عبد الملك (حكم ٣٤٣ - ٣٥٠ هـ = ٩٥٤ - ٩٦١)[٤].

وبعد عودة أبى دلف من هذه الرحلة تعددت نشاطاته، فالثعالبى يخبر أنه «كان يشعر ويتطبب ويتنجم»[٥]. ومينورسكى يستنتج أنه «كان معروفا عند البعض كشاعر فى الأساس، بينما عرف كرحال - فقط - عند آخرين، والآن نرى أنه يدعى - بنفسه - البراعة فى العلوم الطبيعية»[٦]. يضاف إلى ذلك انتماؤه لطائفة

---

(١) يتيمة الدهر ١٨٩/٣، ٣٥٢/٣ - ٣٧٣، ٢/ ٤٠٠، ٣/ ٢٢٣ - ٢٢٥.

(٢) دمية القصر الباخرزى. تحقيق د/ سامى مكى العانى. مطبعة المعارف. بغداد ١٩٧٠، ١٣٥.

(٣) لطائف المعارف. الثعالبى تحقيق إبراهيم الإبيارى وحسن كامل الصيرفى البابى الحلبى ١٩٦٠، ٢٣٤.

(٤) Minorsky P. P. 4 - 5

(٥) يتمية الدهر ٢/ ٤٠٠

(٦) Minorsky. P. I

«الساسانيين» التى اتخذت من الحيل والخدع وسيلة للكسب. ولعل هذا التنوع فى النشاط يعود إلى تطبيقه العملى لدستور هؤلاء «الساسانيين» الذى وضعه بنفسه فى قصيدة طويلة أوردها الثعالبى.

وقد تمتع أبو دلف بسمعة طيبة جعلت منه نديما ومجادلا، فقد «جرت بين أبى على الهائم وأبى دلف الخزرجى فى مجلس أنس «لعضد الدولة فناخسرو» بشيراز مطاية ومداعبة ومحاضرة ومذاكرة، نال فيها أبو دلف من أبى على الهائم.. وهنا «أعجب» فناخسرو» بقوله، وتعجب من حسن محاضرته بخصائص بلدان الشرق والغرب، وقال: «ملك - يا أبا دلف - ينادم الملوك» وأمر له بخلعة وصلة»[1].

ولم تكن هذه المكانة إلا لأنه «شاعر كثير الملح والظرف، مشحوذ المدية في الكدية، خنق التسعين فى الإطراب والاغتراب، وركوب الأسفار الصعاب، وضرب صفحة المحراب بالجراب، فى خدمة العلوم والآداب»[2].

وقد اتصل أبو دلف بالوزير الشهير «الصاحب بن عباد»، وكان «يكثر المقام عنده، ويكثر سواد غاشيته وحاشيته، ويرتفق بخدمته، ويرتزق فى جملته، ويتزود كتبه فى أسفاره، فتجرى مجرى السفاتج (الحوالات المالية) فى قضاء أوطاره. وكان الصاحب يحفظ مناكاة بنى ساسان حفظا عجيبا، ويعجبه من أبى دلف وفور حظه منها. وكانا يتجاذبان أهدابها، ويجريان فيما لا يفطن له حاضرهما. ولما أتحفه أبو دلف بقصيدته التى عارض بها دالية العكبرى فى المناكاة وذكر المكدين والتنبيه على فنون حرفهم وأنواع رسومهم، وتنادر بإدخال الخليفة المطيع لله فى جملتهم - وقد فسرها تفسيرا شافيا كافيا - اهتزو نشط لها، وتبجح بها، وتحفظ كلها، وأجزل صلته عليها»[3].

ولعل أبادلف هو الذى أوحى لبديع الزمان الهمذانى بفكرة المقامات وبطلها أبى

(١) لطائف المعارف ٢٣٤ - ٢٣٩.

(٢) يتيمة الدهر ٣٤٢/٣.

(٣) يتيمة الدهر ٣٥٣/٣. وانظر: عصر الدول والامارات د. / شوقى ضيف دار المعارف، ١٩٨٣، ٦٣٩ (إيران).

الفتح، فثمة تشابه كبير بين أبى دلف وأبى الفتح، كما أن بديع الزمان روى أبياتا ثلاثة لأبى دلف على أنها من شعره ثم نسبها لأبى الفتح وهى :

ويحك هذا الزمان زور .. فلا يغرنك الغرور

زوق ومخرق وكل وأطبق .. واسرق وطلبق لمن يزور

لا تلتزم حالة ولكن .. دُرْ بالليالى كما تدور[1]

وأشهر آثار أبى دلف الشعرية قصيدته «الساسانية» التى تبلغ أبياتها – المختارة – فى اليتيمة قرابة المائتى بيت. والقصيدة طريفة، وتعد وثيقة هامة يمكن الاعتماد عليها.

خلفت رحلات أبى دلف أربعة آثار هى : كتاب «عجائب البلدان»، والحديث الشفهى بينه وبين ابن النديم صاحب الفهرست، ثم الرسالتان الأولى والثانية.

(أ) عجائب البلدان :

وهذا الكتاب منحول على أبى دلف، فليْس تمة ما يدل على وجوده وصحة نسبته إليه. والذين ذكروه لم يروا الكتاب، ولم يشيروا إلى مصادرهم التى استقوا منها هذه المعلومة.

يتحدث «بروكلمان» عن «أبى دلف مسعر بن مهلهل الخزرجى الينبوعى صاحب عجائب البلدان[2]، ويتابعه – دون تمحيص د/ سيد النساج، فيتحدث عن أبى دلف مهلهل الشاعر فى «عجائب البلدان»[3]. بينما لم يذكره معاصراه : الثعالبى وابن النديم، ولا غيرهما. وسكتت عن ذكره كل الدراسات الدقيقة الحديثة.

(ب) رواية ابن النديم :

حيث ينقل – على لسانه – بعض الفقرات التى يرى «بروكلمان» أنها «الرواية

(١) يتيمة الدهر ٣٥٤/٣

(٢) تاريخ الأدب العربى ٢٤٥/٥.

(٣) أدب الرحلات فى حياتنا الثقافية. مجلة العربى. يناير ١٩٨٧، ٢٣٤، وانظر الإسلام والفكر الجغرافى ١٢٧

الصحيحة الوحيدة عن رحلته.. ومنها يتضح أن النص الذى نسبه «ياقوت» إليه، فى «معجم البلدان» منحول، قد جمع فى عصر متأخر من مصادر مختلفة»[1]. وهو حكم متسرع أثبتت الدراسات التالية خطأه. وقد قام «مينورسكى» بدراسة نصّى أبى دلف الواردين فى «الفهرست»، وتوصل إلى أنه «لا يستطيع أن يوافق نظرية «ماركفارت» التى تذهب إلى أن التقرير الحقيقى الذى ورد فى «الفهرست» يمثل الأصل الذى وضعه أبو دلف – والذى يختلف عن الرسالة الأولى التى وضعت تحت اسمه – وإلى أن الجزء المدون عن الصين – فى الفهرست – يمثل عدة نصوص من مصادر مختلفة، وإلى أن المقطع الأخير يحوى اقتباسات متنوعة من مجموعات التقارير المتداولة عن الصين، وهى مصادر ربما كانت مشاعة عامة عند الجغرافيين المسلمين ورواة العجائب»، «ونحن نرى أن المساهمة الوحيدة فى هذا الجزء المنسوب لأبى دلف كانت مرفوضة عند النديم نفسه»[2]. والنصان لا يضيفان جديدا، بل يتشابهان فى كثير من الفقرات مع ما نقل عن التاجر سليمان الذى زار الصين قبل أبى دلف بنحو تسعين عاما. إضافة إلى أنهما مختلطان بنصوص غيره، وأن صاحب «الفهرست» يرويهما من الذاكرة. ولعل الإضافة الجيدة تتمثل فى تعبير طريف ورد فى الفقرة التالية : «وإذا تزوج الواحد منا إليهم (الصينيين) وأراد الانصراف، قيل له : «دع الأرض وخذ البذر». فإن أخذ المرأة سرا – وظهر عليه – أُغرم غرما له مبلغ قد اصطلحوا عليه، وحبس، وربما ضُرب»[3].

وقد تتشابه بعض فقرات «الفهرست» مع الرسالة الأولى، كما يتشابه الأسلوب فى المصدرين.

(جـ، د) : الرسالة الأولى، والرسالة الثانية :

والأثران الرئيسيان لأبى دلف هما : الرسالة الأولى، والرسالة الثانية. وردت الرسالة الأولى فى «معجم البلدان» فى نص شبه كامل قدم له ياقوت بقوله : وقرأت فى كتاب عتيق ما صورته : كتب إلينا أبودلف مسعر بن مهلهل فى ذكرما شاهده

---

(١) تاريخ الأدب العربى ٤/ ٢٤٥.

(٢) Minorsky. P.P. 8 - 9

(٣) الفهرست ٤١٤.

في بلاد الترك والهند والصبن، قال..[1].

وبعد فترة أردف الرسالة الأولى بالرسالة الثانية التي قدم لها بقوله: «فإني جردت لكما - يا من أنا عبدكما - أدام الله لكما العز والتأييد والقدرة والتمكين - جملة من سفري - كان - من بخارا إلى الصين على خط الوتر، ورجوعي منها على الهند، وهو سمت قوسه، وذكرت بعض أعاجيب ما دخلته من بلدانها وسلكته من قبائلها، ولم استقص المقالة حذرا من الإطالة. ورأيت الآن تجريد رسالة شافية تجمع عامة ما شاهدته، وتحيط بأكثر ما عاينته، لينتفع به المعتبرون ويتدرب به أولو العز والطمأنية، ويثقف به رأى من عجز عن سياحة الأرض»[2] أما نص الرسالة الثانية فقد فرقه ياقوت على معجمه، وأخذ عنه القزويني (٢٤) اقتباسا من «الرسالة الثانية» ، لكن مع الإشارة إلى أبي دلف في (٧) حالات فقط. وفي كتاب «عجائب المخلوقات» .. توجد أربعة اقتباسات دون الإشارة إلى الاسم. وفي المعجم الجغرافي لياقوت.. أمكن تحديد (٣٤) اقتباسا من «الرسالة الثانية» ، ودراسة كراتشكوفسكي - التي حددت أيضا (٢٤) اقتباسا لا يذكر فيها الاسم - قد أوضحت الحجم الكامل لاستخدام ياقوت لهذا المؤلف»[3] وقد اتضح لمينورسكي أن نقول القزويني محرفة عن نقول ياقوت، فوضع ثبتا بنقول ياقوت من «الرسالة الثانية» وبإزائه نقول القزويني - المحرفة - عنه[4].

وحول الرسالتين دارت دراسات متنوعة، لكنها صبت اهتمامها على التأكد من صحة الرحلات، وصحة نسبتهما إلى أبي دلف، فطغى الاهتمام بهما كنص جغرافي عليهما كنص أدبي[5].

إطلاق عنوان «الرسالة» على ما دونه أبو دلف يمكن تفسيره على وجهين :

---

(١) معجم البلدان ٤٤٠/٣

(٢) الرسالة الثانية. تحقيق بطرس بولغاكوف وأنس خالدوف. ترجمة د/ محمد منير موسى. عالم الكتب القاهرة ١٩٧٠، ٢٩.

(٣) الرسالة الثانية، ص ١٥ ١٦ .

(٤) Minorsky. P. P. 19 - 20

(٥) انظر في هذه الدراسات ونتائجها الإيجابية والسلبية : تاريخ الأدب الجغرافي ٨٨/١ - ١٩٠ ، والرسالة الثانية المقدمة.

أ - أنه أرسلهما إلى وليبه، واشتق الاسم من الفعل.

ب - أن المقصود به نمط الرسالة الذى كان سائدا فى عصره.

كان أبو دلف يعى تماما أنه يتحدث إلى عالمين، وأن نهجا خاصا مناسبا لهما يجب اتباعه. إن الخبرات الشخصية التى مرت بأبى دلف لن تفيدهما، لذا فإن حذفها، أوعدم تدوينها أصلا لن يؤثر تأثيرا يذكر، خاصة أن هذه الخبرات إذا كانت تروق لأبى دلف فقد لا تروق لوليبه، بل يريان فيها حشوا لا داعى له.

ثم إن أبا دلف لا يشك فى أن وليبه سيقرآن ما كتب بعين الناقد، ومنهج قائم على الإيجاز غير المخل أقرب إلى السلامة.

إن هذه العوامل مجتمعة حددت الزوايا التى عالج منها أبو دلف موضوع رحلته.

فى الرسالة الأولى تحكم خط سير الرحلة فى المنهج المتبع، واقتصر أبو دلف على التعريف بالقبائل التى مر بديارها دون أن يفسح صدره لرواية تجاربه الشخصية إلا فى حالات قليلة، وكان واضحا أنه يقدم المعلومات تقديما مباشرا.

وفى الرسالة الثانية استقرأ أبو دلف الأوصاف السابقة للمناطق التى زارها، وركز على مالم يتناول، كى يأتى وصفه لها من زوايا لم يسبق إليها.

إن الرسالتين ليستا نتائج رحلة أو رحلتين، وإنما نتاج رحلات عديدة، وسنوات اكتسب فيها من الخبرة والمعرفة، ولاقى فيها من المواقف، وسمع ورأى - الكثير. وإذا حاول تسجيل نتاج تلك الرحلات فسيجد صعوبة لا يمكن إنكارها.

هذه المشكلة وجدت حلا سعيدا لدى أبى دلف، فإضافة إلى اعتبار شخصيّ المرسل إليهما اعتمد على ذاكرته، وفى الرسالة الأولى تدخل عامل ثالث هو: خط سير الرحلة، بيد أن تأثيره لم يقارب العاملين السابقين، خاصة أن وصفه للقبائل متشابه، ويتبع نهجا موحدا. وكذلك وصفه للبلاد التى مر بها فى رحلة العودة.

أما النهج التجميعى الذى اعتمده أبو دلف فى الرسالة الثانية فقد شارك العاملين الأولين فى تحديد ما يثبت وما يطرح. وكانت فكرة المحاور تطبيقا عمليا لهذا النهج، علماً بأن الاختيار الداخلى - فى هذه المحاور كان مبنيا على أساس كم العجب، فما كان عجيبا ذُكر، وما كان مألوفا أغفل.

خرج أبودلف وفى ذهنه تصور واضح لطبيعة المهمة التى من أجلها ساح وتجول:

الأولى: هدفها الوصول إلى الصين، ووصفها والطرق المؤدية إليها، وقد تحقق هذا الهدف.

الثانية: هدفها التجول نفسه، مع محاولة لالتقاط بعض الظواهر العجيبة أو الغريبة أو المجهولة لمواطنيه، والدافع إليها روح الرحال والعالم فى آن. وقد تحقق هذا الهدف أيضاً.

ولكن تحقق الهدفين لم يتعد القشور، فقد اهتم أبو دلف بالوصف الخارجى الظاهر العام، ولم يهتم بالداخلى الباطن الخاص.

على أرض الواقع تحقق الهدف، ولكن تسجيله للمراحل التى مر بها شابه الجفاف والفوضى أحيانا. فكان ما قام به على أرض الواقع أروع من تسجيله له.

لأن أبا دلف لم يتصور أنه سيمتع وليبيه - إذا تطرق إلى شخصه - جاءت رسالتاه مفككتين، وهذه الظاهرة أوضح فى الرسالة الثانية. وكان حرص أبى دلف على رص معلوماته هو المتحكم فى شكل الرسالتين، لذا فإنهما لم تنتهيها نهاية طبيعية منطقية، وإنما انتهتا حين فرغت جعبة أبى دلف من العجائب.

مقدمة الرسالة الأولى تبدو منطقية، لأنها تمهد للرحلة وتصف أجواءها، وتقدم نبذة عن حياة أبى دلف.

بيد أنه غيب شخصيته تماما، كما جَهَّل شخصيات مرافقيه، لذا فإن أى فعل يقع لا يمكن نسبته لفرد بعينه، ولا يمكن محاسبة أحد عليه. فى ظل هذا التغييب للشخصيات وللملامحها - وهى الحاملة للأحداث أصلا - لا يمكن توقع تسلسل حدثى منطقى كما لا يمكن أن يكون الحدث رابطا للشخص بالزمان والمكان.

وهنا يصبح الاستطراد أمرا طبيعيا، كما يصبح الخلط الزمانى المكانى أمرا وارداً، ويصبح الانتقال من موقف لآخر مناقض وارداً كذلك.

ولأنه لا توجد شخصيات فليس ثمة مجال للحديث عن التفسير والتحليل والتبرير.

والتماس وجود عقدة أساسية سيذهب سدى فى حال الرسالة الثانية بسبب اضطراب خط سير الرحلة، وعدم تحديد نقطة الانطلاق وهدف الرحلة.

وقد وقع أبو دلف فى الخطأ المنهجى نفسه الذى وقع فيه غيره، إذ أعلن أنه قام برحلاته وانتهى منها، ثم بدأ فى تدوينها، فوأد بذلك حماس القارئ وترقبه لما سيحدث.

ولأن الفشل في تصوير شخصية أبي دلف قد أملته ظروف خارجية – رغم أنها الشخصية الرئيسية – فليس غريبا أن تصبح بقية الشخصيات مجرد أشباح وخيالات لا وظيفة لها، ويصبح ظهور شخصية ما أو اختفاؤها رهنا بإرادة ذاكرة أبى دلف.

ترتب على ذلك أن فقد الزمان والمكان حساسيتهما، واقتصرا على القيام بدور هامشى، فالزمان يقدم بلا فنية تذكر : تقديم وتأخير وخلط واضطراب.

صحيح أن الرسالة الأولى تحاول مراعاة عامل الزمن، ولكن الشك فى صحة خط سير الرحلة يذهب كثيرا من فعاليته. أما عن الخلط فى الرسالة الثانية فحدّث ولا حرج.

من خلال المعلومات المتوفرة عن أبي دلف يظهر كرحال متميز، ما يكاد يستقر إلا ليتحرك، وقد أكسبه هذا التجول الدائم كماً كبيرا من المعلومات والخبرات التى أهلته لأن يكون منادما أو «ملكا ينادم الملوك». ولكن شيئا من هذا لم تتضمنه الرسالتان. وهذا لا ينفى أن ثمة مواضع يظهر فيها رحالا مدركا لطبيعة الدور الذى يؤديه.

فى لوحاته الأولى يحاول أبو دلف أن تحوي فى داخلها كل ما وعاه عن المكان الذى يمر به وعن سكانه. ولوحة كهذه لا تركز على منظر بعينه فتجود فيه، وإنما تحاول حشد أكبر عدد من المناظر، فإذا ما استوى لها ذلك شعر أبو دلف أنه قد أزاح عن صدره عبئا ثقيلا. وعندما يدرك أبو دلف أن تقديم جزئية ثمينة أفضل من تقديم لوحة عامة مفككة فإنه يجود أيما تجويد، فقبيلة «الخرلخ» – على سبيل

المثـال – «قليلو الغيـرة». هذا «المنظر» يمكن أن يضـم إلى «مناظر» أخـرى ليكوّن معهـا لوحة عامة – لولا أن أبا دلف ركز عدساته عليه، فالتقط له عدة صور تبرز كافة جوانبه «فهم قليلو الغيرة، تجيء ابنة الرئيس فمن دونه – أو امرأته أو أخته – إلى القوافل إذا وافت البلد، فتعرض للوجوه، فإن أعجبها إنسان أخذته إلى منزلها، وأنزلته عندها، وأحسنت إليه، وتصرف زوجها وأخاها وولدها فى حوائجه، ولم يقربه زوجها مادام من تريده عندها – إلا لحاجة يقضيها. ثم تتصرف هى ومن تختاره فى أكل وشرب وغير ذلك بعين زوجها، لا يغيره ولا ينكره»[(١)].

ولعل اللوحـة التى رسمـها لجبل «دباوند»، والأسـاطيـر التى تدور حول بعض ظواهره، وصعوده الى موضع لم يصل إليه أحد – فيما يعلم – من أفضل اللوحات التى رسمها فى الرسالتين.

وهناك عـدد من الصـور الطريفـة التقطتـها عدسة أبى دلف، وبقيت فى ذاكراته إلى أن دونهـا، فبسطام «دجاجـهـا لا تأكل العـذرة» (٨٧) وهناك «بلد كـبيـر لا يخـرج منه عـالم، ولا خـرج فيـمـا سلف وذلك بالطبع».. (٥٤) و«شـهـرزور» بهـا «عـقـارب قـتـالة أضر من عقـارب نصيبين» (٥٨). ولأهل «الصـيـمـور» حظ من الجـمـال، وذلك لأن أهلهـا متـولدون من الترك والصين، فجـمـالهـم لذلك» (٣/ ٤٤٥). وشجر الفلفل «عناقيد، فإذا حميت الشمس عليه انطبق على العنقود عدة من ورقه لئلا يحترق، فإذا زالت الشمس زالت تلك الأوراق» (٣/٤٤٥).

وقد حـاول أن يكون دقيقا فى معلوماته وأوصافه، وساعد على ذلك نهج الإيجاز الذى اتبعه، فحدد المسافة الزمنية (بالأيام والليالى) التى استغرقها فى الانتقال بين قبائل «الرسالة الأولى» وفى حالات قليلة حدد المسافات المكانية، فبين «كله» وبين مـدينة الصين ثلاثمـائه فـرسخ» (٣/ ٤٤٥)، ثم «إنى رجـعـت إلى آذربيـجـان فى الجبل إلى «موقـان» فكان مسيرى ثمـانين فرسخا تحت الشجر على سـاحل بحر طبرستان العظيم» (٤٥).. ومنها «إلى ديلمستان سبعة فراسخ» (٥٨). ومن أظهر صفـات الرحال سؤاله الدائم عمـا حوله، ومـا الحكايات الأسطورية الشعبيـة التى

(١) معجم البلدان ٣/٤٤٣، ويلاحظ أن رقم الصفحة سيضمن المتن فيما يلى، والاستشهاد من معجم البلدان سبق برقم الجزء، ومن الرسالة الثانية إذا كان الرقم مفردا.

يوردها فى الرسالتين سوى نتاج مباشر للتساؤل الملح، فالرى بها «ماء يقال له السورين» رأيت أهلها ينكرونه ويتطيرون منه ولا يقربونه.. فسألت عن أمره، فقال لى شيخ منهم: «سبب ذلك أن السيف الذى قتل به زيد عليه السلام (؟!) غسل به» (٥٨).

و«قصر نيسابور» سألت عن أمره، فوجدت أهل البلد وهم مجتمعون على أنه من بناء بعض التبابعة وحين يصله خبر ولا يثق فيه يعلن ذلك صراحة، فقد بلغنى أن الماء الذى تحت «شبديز» «بقرميسين» إذا ضربت ألف درهم، وألقيت فيه حرارة السبك زادت ستة دراهم. ولا أدرى ما العلة فى هذا؟» (٧٢).

فى مواضع أربعة قطع وليا أبى دلف سياق رسالتيه ليعلنا أن تجنيا على الحقيقة قد وقع، وهذا التدخل قد يكون حادا، فينعتان ما قال أبو دلف بأنه «كذب صراح» (٣/ ٤٤٧)، أو يكون مترفقا كأن يعلنا أن «هذا من زيادات أبى دلف» (٣٧، ٦٥) أو «بعض هنات أبى دلف» (٧٧).

ولكنه ينفى تهمة المبالغة أو الكذب، ففى نيسابور «ريباس عظيم، ويكبر حتى تصير القصبة الواحدة منه تزن خمسين منا وأكثر، وسيستعظم هذا من قولى من يسمعه، وما قلت إلا ما شاهدت، ورأيت» (١٠). ويبدو أن الوليين نصا على بعض المبالغات كأمثلة، ولم يستوفياها، فثمة مبالغات سوى ما ذكر تتوزعها الرسالتان مثل : تلك البحيرة التى ادعى أن عمقها «يزيد على أربعة عشر «ألف ذراع» (٣٥). أو تلك الدودة التى يبلغ طولها «نحو العشرين ذراعا وأكثر فى استدارته عشرة أذرع» (٥٥ –٥٦). بل امتدت هذه المبالغات لأسلوبه : «فقصر شيرين» بها «أبنية شاهقة يكل الطرف عن تحديدها، ويضيق الفكر عن الإحاطة بها» (٦٠). وصورة شبديز «ليس صورة فى الأرض تشبهها» (٦٦). واستخدامه لأفعل التفضيل (أعظم – أعجب..) كثير.

إن أبا دلف محكوم بنهج فرضه على نفسه، وهذا النهج لا يتيح فرصة لمبالغة أو كذب لأنه نهج علمى، ولأنه سيعرض نتاجه على عالمين، لذا فإن تحرى الحقيقة مفترض فى أبى دلف، ولكن الحقيقة التى لا تستند إلى مصادر موثوق فيها لا يمكن أن تكون كذلك.

إن أبادلف كان يعتمد علي ذاكرته، وعلي معلوماته المختزنة منذ عدة سنوات، فجاء تسجيله لما في الذاكرة صورة مطابقة للتشويش والاختلاط الذين أصاباها.

إن عدم استقامة طريق الرحلات، والشك فى زيارته لبعض الأماكن التي ذكرها، ومبالغاته، ومحاولاته الدائمة لإقحام الأساطير- بعد أن يتخفف من تبعتها- كل هذا نتيجة للاعتماد على الذاكرة، بيد أنه لايعني أن الكذب أو المبالغة متعمدان.

ثمة مشكلة تعترض دارس رحلات أبي دلف؛ فالأثران الرئيسيان اللذان خلفتهما رحلاته عبارة عن رسالتين، والبنية الأساسية للرسالتين مختلفة تبعا لاختلاف الهدف، لذا فإن دراسة لبنية كل علي حدة، ثم محاولة للتوفيق بينهما، ستكون أكثر جدوي.

للوهلة الأولي يتضح أن بنية الرسالة الأولي رباعية، تتكون من :

١- مقدمة. ٢- وصف رحلة الذهاب.

٣- وصف المنطقة هدف الرحلة. ٤- وصف رحلة العودة.

في مقدمته المكثفة لم يدع أبودلف مجالا للشك في أنه قام برحلته ودون بعض مشاهداته، ثم عاد إلي حيث انطلق. والإضافة الجديدة في هذا الصدد أنه ربط هذه الرحلة بمسلكه في الحياة، معلنا أن الترحال أساسه، وموضحا أنه خبير في مجاله؛ لذا فالثقة متوفرة فيما سيروى. والسبب المباشر للرحلة سبب معقول وواقعي وغني بالدلالات، والثابت تاريخيا أن أبادلف كان صادقا، وأن سفارة تتحقق فيها شروط ومواصفات تلك السفارة التى صحبها أبودلف قد وصلت إلي حيث يقيم الأمير الساماني، وفاوضته، ثم عادت إلي بلادها ومعها أبودلف وصحبه. وقد اتضح «أن بعض التفاصيل المتعلقة بزيارته وجدت توكيدها فى وصف السفارة المتأخرة التي بعث بها «شاهرخ» إلي تلك البلاد» [1].

لقد راعي أبودلف أن تكون مقدمته قصيرة؛ لأنها تمهيد لما سيروي، والاقتصاد

(١) تاريخ الأدب الجغرافي العربي ١/١٩٠.

فيها واجب، بيد أنه كان حريصا على أن تبدو رسالته الأولي متماسكة، فكان انتقاله من المقدمة إلي وصف رحلة الذهاب يتوسطه مايمكن أن يقارب «حسن التخلص» في الشعر، فقد وافق «نصر» علي مطالب السفارة الصينية، فانتهز أبو دلف هذه العودة المظفرة والتحق بالركب، وكان هذا الرابط الذي وثق عري الصلة بين المقدمة ورحلة الذهاب، لقد عبر عن حبه للرحلات بقوله: «فاغتنمت». ورغم أن أبادلف كان ملحقا بالسفارة، وسائرا في كنفها، فإن إحساس الغريب بالخوف والقلق سيطر عليه، وقد نص علي ذلك؛ فكلما مر بقبيلة ذكر حاله وحال رفاقه: فهم في أمن ودعة، أو فى خوف وتغرير.. إلخ.

الواضح أن الهالة الرسمية للسفارة لم تجد شيئا، بل إن أعضاءها يضطرون لدفع إتاوات للحفاظ علي سلامتهم، «فالبغراج» الذين «سرنا بينهم شهرا علي خوف ووجل أدينا إليهم العشر من كل شئ كان معنا» (٤٤٢/٣). أما «الخطلخ» «فلم أر فى جميع قبائل الترك أشد شوكة منهم » (٤٤٣/٣).

ويستخلص مما قال أبودلف أنه ورفاقه لم يكونوا يحملون معهم مايكفيهم من غذاء؛ فغذاؤهم في كل قبيلة يوافق غذاءها، ويختلف عن سابقتها ولاحقتها. هذه الحاجة الملحة لضروريات الحياة أرغمتهم على مسالمة تلك القبائل ومهادنتها ما استطاعوا إلي ذلك سبيلا. وفي ظل هذه الظروف الاستثنائية أعلنت السفارة حالة الطوارئ، وتمت رحلة الذهاب التي استغرقت خمسة عشر شهرا هجريا (٤٣٩ يوما)، وكانت طريقة القياس الزمني أكثر دقة من استخدام القياس المكاني الذي لن يستطيع له ضبطا.

أثناء تلك الفترة التقط أبو دلف بعض الصور الدالة للقبائل التي مربها، وبجمع هذه الصور يتضح أن التناسق بينها منتفٍ كنتيجة لاضطراب خط سير الرحلة، وكذا الخط النفسي له ولرفاقه. ولعل الذاكرة قد لعبت دورا بارزا في إخراجها بهذا الشكل. ومالايجب نسيانه أن التعامل مع أبي دلف يقوم علي أساس أنه أديب لاكجغرافي؛ لذا فإن الدقة التي لا تتخلف في وصف مراحل الطريق غير واردة حين التعامل مع أديب، وإن كانت مطلوبة بدرجة لا تخل بتناسق الرحلة ككل.

لقد كان أبودلف ملتزما بالسير في ركاب سفارة همها الأول الوصول -بأقصى سرعة- للصين كي تبلغ ملكها بالنتائج؛ لذا فإن خطاً مستقيما هو أقصر الطرق للوصول، ولا مجال للتعريج والتوقف إلا لضرورة . ورحلة بهذا الإيقاع لا تتيح لأبي دلف الفرصة لالتقاط أنفاسه، ولا للانفلات عنها ليشبع رغبته في أن يري وأن يصف.

إن المعلومة المقدمة علي أساس حبرة شخصية لا مجال لها في هذا الجزء في الرحلة، فأبودلف الإنسان الفرد ذو الشحصية المتميزة لايظهر، بينما تصادف في هذا الجزء حديثا معتادا يمكن أن يكتبه أي فرد من أفراد السفارة.

جاء هذا الجزء نتيجة لرؤية ومعاينة مباشرة، غير معتمد على مصادر سابقة يمكن أن يكون قد قرأها، ولايعني هذا أنه لم يعتمد علي مصادر حية ناطقة؛ فقد «أخبرنا أن بلدهم عظيم مما يلي الشمال» (٤٤١/٣). ويحتاج المسافر- خاصة إذا كان سفيرا- إلي جرعة من الطمأنينة تعيد إليه رباطة جأشه حتي يؤدي مهمته الأداء الأمثل،و تكون هذه الجرعة بمثابة قنطرة بين حالتين: القلق، والطمأنينة. بدءا من «مقام الباب» يشرع أبودلف ومرافقوه في الحصول علي هذه الجرعة؛ وهو «بلد في الرمل تكون فيه حجبة الملك- وهو ملك الصين- ومنه يستأذن لمن يريد دخول الصين من قبائل الترك وغيرهم. فسرنا فيه ثلاثة أيام في ضيافة الملك، يعير لنا عند رأس كل فرسخ مركوب، ثم انتهينا إلي «وادي المقام»، فاستأذن لنا منه، وتقد منا الرسل،فأذن لنا بعد أن أقمنا بهذا الوادي- وهو أنزه بلاد الله وأحسنها- ثلاثة أيام في ضيافة الملك» (٤٤٤/٣). إن تغير الحالة النفسية جعل من وادي المقام «أنزه بلاد الله وأحسنها».

بانتهاء الجزء الثاني هذه النهاية السعيدة واستقرار الحالة النفسية بتوقع تقدم فني فى الجزء الثالث. إن هدف أبي دلف أن يري الصين وأهلها، بينما هدف أصحابه أن يقوموا بالمهمة التي كلفوا بها وحسب. لقد اتخذ من السفارة دليلا يقوده، وبعد وصوله رأي أنه قد آن له الانفصال عنها انفصالا تاما.

إذا كان أبو دلف يركز فى الجزء الثاني علي الناس دون المكان، فإنه في الجزء

الثالث يركز عليهما معا. لكن هذا المزج لايطول؛ إذ يشرع في وصف الصين مركزا علي عاصمتها منذ اللحظة الأولي لوصوله، فقد وصلها «عند المغرب» وهي مدينة عظيمة تكون مسيرة يوم، ولها ستون شارعا ينفذ كل شارع منها إلي دار الملك.. ولهم بيت عبادة عظيم، ولهم سياسة عظيمة وأحكام متقنة.. ودخلت علي ملكهم فوجدته فائقا في فنه، كاملا في رأيه ، فخاطبه الرسل بما جاءوا به من تزويجه ابنته من «نوح بن نصر» فأجابهم إلي ذلك، وأحسن إلي الرسل، وأقمنا في ضيافته حتي تجزت أمور المرأة.. وأقمت «بسندابل» مدينة الصين مدة، ألقي ملكها في الأحايين فيفاوضني في أشياء، ويسألني عن أمور من أمور بلاد الإسلام، ثم استأذنته في الانصراف، فأذن لي بعد أن أحسن إليّ ولم يبق غاية في أمري » (٣/٤٤-٤٤٥). إن القيمة الفعلية لهذا النص تكمن في إظهاره الرغبة التحررية الكامنة في نفس أبي دلف؛ فللمرة الأولي يتحدث عن نفسه وحده، ولأول مرة تتحول «نا الفاعلين» إلي «تاء الفاعل»، أو بتعبير آخر تتحول «النحن» إلي «الأنا» بعد أن كانت «النحن» مسيطرة.

إذا كان الهدف الرئيسي من الرحلة زيارة الصين، فلماذا لم يصفها وصفا مناسبا؟ هل منعه الملك التجول فى بلاده؟ هل منعته ظروف خاصة آنذاك؟ هل وقف عامل اللغة عائقا؟.. أسئلة تبحث عن إجابة.

لعل قلة الموارد ومصادر التمويل دفعتا أبادلف للالتحاق بالسفارة لتخفض تكاليف جولاته، بيد أنه في طريقه للعودة كفاه ملك الصين مئونة تدبير الموارد المالية اللازمة. وكان متوقعا أن يتميز الجزء الأخير من الرحلة نظرا للظروف الجديدة.

ولكن أبادلف لم يفطن إلي ذلك، فجاء وصفه علي غرار الأوصاف السابقة، ثم إنه تذكر فجأة أنه لم يقدم لقارئه كما معقولا من العجائب ، فأتحفه بعجيبة «الملتان» حيث «القبة العظمي والبد الأكبر، وهذه القبة سمكها في السماء ثلاثمائة ذراع، وطول الصسم فى جوفها مائة ذراع، وبين رأسه والقبة مائة ذراع، وبين رجليه وبين الأرض مائة ذراع، وهو معلق في جوفها لابقائمة من أسفله

يدعم عليها، ولا بعلاقة من أعلاه تمسكه» .(٤٤٧/٣) ومحرر الرسالة لم يكن ليقرأ هذا الكذب الصراح- بتعبيره- ويسكت؛ لذا فإن تعليقه مدعم بمصادر مدونة وموثقة.

إن شخصية أبي دلف الإنسان ليس لها صدي في هذا الجزء الأخير، وعلي هذا فقد مرت شخصية أبي دلف بأطوار أربعة:

أ- فقد تمتعت بحضور واضح في المقدمة القصيرة

ب- ثم انحسرت عنها الأضواء في رحلة الذهاب.

جـ- ثم استعادت بعض ضوء في الجزء الثالث.

د- ثم انحسرت- مرة أخري- لتكون المحصلة النهائية تذبذبا يشي بانعدام التخطيط.

علي خلاف «الرسالة الأولي » «اختارت» «الرسالة الثانية» بنية محورية لايظهر فيه تقسيم، أو خطوط بارزة، وقد يكون هدف هذه الرحلات التي نتجت عنها الرسالة سبب ذلك. إن الدافع للقيام بهذه الجولات ذاتي، لذا فإن الخط المتعرج ليس غريبا، بل هو الطبيعي. ولا مانع من زيارة المكان الواحد أكثر من مرة إذا أضافت كل زيارة جديدا. ورغم ذلك فإن عقد هذه الرحلات لاينفرط بسبب التأكيد علي محاور معينة تستلفت انتباهه أينما حل. في البداية تأتي المقدمة، وهي تحوي معلومات مفسرة، ثم يأتي الهدف المباشر- وهو التعرف علي المعادن الطبيعية- ليكون المحور الرئيسي.

مع هذا المحور أربعة أخري هي: محور الطب، محور الآثار، محور الجغرافيا، محور الأساطير الشعبية، ويتخللها محاور هامشية.

في المقدمة يربط أبو دلف بين الرسالتين، ويعبر عن رغبته فى تجريد رسالة شافية جامعة، متحريا- فيها - الإيجاز، ويستعذب الابتداء بذكر المعادن الطبيعية وعجائبها، لأنها أعم نفعا، وأكثر اتساقا مع هدفه.

بانتهاء المقدمة الأولي تبدأ مقدمة ثانية تؤكد علي
التثبت من إتقانه لها؛ لذا فإن الرحيل إلي مناجم
هدفه.

وأولي محطات الرحلة مدينة «الشيز» التي يذكر معا
مانع من إجراء بعض تجاربه عليها ليميز النافع منها. وعلي هامش هذه المعادن
لايضير ذكر بعض التجارب العملية المتعلقة بشخصه، كما لايضير ذكر بعض
خصائص البلدان.

وكي يضفي علي معلوماته صبغة شرعية يستخدم تعبيرات حركية مثل:
وصلت- سرت، وهدفه من ذلك: الإعلان أنه يصف عن معاينة؛ فيثق فيه من
يقرأ.

وولعه بالكيمياء جنح به إلي محاولة تفسير بعض الظواهر تفسيرا كيميائيا كما
فعل في جبل «دباوند».

المحور الثاني هو محور الآثار ، فدائما ينص أبو دلف علي أن الأثر عادي أو
كسروي أو إسلامي، وغالبا ما يستدعي ذكر الأثر ذكر قصته وسبب وجوده، كما
يحاول وصفه بدقة كي يصدق القارئ ما ادعاه في البداية.

والمحور الجغرافي لايتمتع بحضور دائم، وإنما يتراوح بين التركيز والتكثيف، أو
الإغفال التام؛ لأنه ليس هدفا في ذاته، وإنما ما يحويه هو الهدف الأسمي لأبي
دلف.

وغالبا ما يلقي أبو دلف تبعة صحة وصدق الحكايات والأساطير التي يوردها
علي مجهول أو علي العامة، وكأنه يتخذ من هذا الأسلوب ذريعة للتوسع في
الحكايات التي يرويها طالما أنه لن يحاسب. ولاشك في أن استخدام أبي دلف لهذه
الحكايات والأساطير يهدف أساسا إلي كسر حدة الجفاف العلمي الناجم عن
المحاور السابقة، ولكن أبادلف يلقي - بذلك- ظلالا كثيفة من الشك حول الثقة
في معلوماته، فيكون قد أتي بنتيجة عكسية من حيث لايدري. وثمة افتراض بأن
أبادلف يستخدم هذه الحكايات الأسطورية ليملأ فراغات الذاكرة.

إن هذه البنية المحورية ليست بالصلابة المرجوة، بل إن نقاط ضعف عديدة تجعلها مهددة بالانهيار في أية لحظة.

لم ينجح أبو دلف فى تحقيق الترابط بين أجزاء الرسالة لأنه لم يكن يستهدف كتابة رحلة، وإنما كان يستهدف ذكر بعض العجائب، ولكنه ادعي- نظريا وعمليا- أن وصفه نتيجة رحلات، وكان عليه أن يعي ذلك ويلتزمه، ولكنه لم يفعل.

لايغفر لأبي دلف أنه يحاول- باستخدامه لأفعال بعينها- إيجاد رابط. وكذلك لايغفر له ذكره بعض المواقف التي مر بها، والتجارب التي خاضها، لأن هذه المواقف والتجارب يمكن أن يتعرض لها غيره ممن لم يقوموا برحلات. والفارق فى تصوير الموقف هوالحالة النفسية التي يمر بها كلاهما، والتي ينطبع وصفه بها.

لو أن أبادلف استفاد من رسالته الأولي، واتبع نهجها، لجاء وصفه لهذه الرحلات أفضل فنيا.

لاشك في أن تدوين رحلات أبي دلف في شكل رسالتين إلي شخصين معينين - لهما صفات محددة- قد أثر- إلي حد كبير علي المحتوي، فجاء ملائما لإطار الرسالة ولثقافة هذين الشخصين.

ويمكن القول« بصفة قاطعة أنه قد ثبت أن روايته لاتمثل يوميات، أو وصفا للطريق، بل تم تدوينها من الذاكرة- وبعد مدة طويلة من حدوث الرحلة علي مايظهر - ومع مراعاة التسلسل التاريخي حين الكلام علي زيارته للقبائل والأماكن المختلفة. وإلي جانب ما شاهده بعيني رأسه أضاف أبودلف غير قليل مما سمع، ولم يفرق بين الاثنين»[1].

وقد أدي انتفاء الترتيب الزمني والمكاني فى الرسالتين إلي القول بأنهما قامتا «علي أساس مواد جمعها المؤلف عند قيامه بأسفار كثيرة، وفيما بعد جمعها ورتبها علي الصورة التي هي عليها»[2].

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافي العربي ١/١٩٠.

(٢) الرسالة الثانية ٧٦

وبعد أن دوّن أبو دلف الرسالة الثانية أضاف إليها بعض الأساطير ليزيد حجمها، وليحقق بعض الإمتاع لوليبيه.

إن التداعي يتحكم- إلي حد كبير- في خط سير «الرسالة الثانية» فهي ليست نتاج رحلة، وإنما نتاج رحلات وجولات عديدة، وكلما ذكر أبو دلف مكانا أو حادثة أو أسطورة أو ميزة استدعي ذلك ما يوافقه أو يخالفه، لذا افتقدت الرسالة خط سير موحدا يمكن تتبعه علي خريطة. ولايقتصر هذا التداعي علي ما رآه أبو دلف بنفسه، بل يمتد إلي ما سمعه أيضا، أو ما قرأه واستقر في ذهنه فأدخله دون أن يتذكر مصدره، ولعل أبادلف كان يحرص علي أن تكون رسالته غير مرددة ولا مكررة، فجاءت خلوا من الاستشهاد بمعلومات مؤلفين سابقين عليه، وانحصرت في مصدرين: ما رآه ، وما سمعه. ثم مصدر هامشي يتمثل في قراءاته المبكرة.

لعل توغل أبي دلف في الديار الفارسية، ثم في غيرها من الديار الأعجمية قد أفقده الحاسة المرهفة تجاه لغته العربية الأصلية، فكان اتجاهه للإيجاز والاختصار رغبة في الهروب من هذا المأزق.

ليس ضد الرحال- بل في صفه- أن يتعلم عدة لغات تساعده علي التعامل المباشر مع الشعوب التي يزورها، ولكن المرفوض أن تؤثر اللغة المكتسبة علي اللغة الأصل. وهذا ما حدث مع أبي دلف. ومن الضروري الإشارة إلي أن ناسخ المخطوطة كان متواضع المعرفة بالعربية مما سبب عنتا لمحققي رسالته الثانية خفف منه أن معظمها متناثر في «معجم البلدان» وهذا ليس مبررا لإلقاء العبء علي ناسخ الرسالة وحده.

بعد استبعاد ما قد يعود إلي ضعف الناسخ، يلاحظ مايلي:

- أن أبا دلف يستخدم المقدمة بصورتها التقليدية التي يلخصها المقريزي في قوله = «اعلم أن عادة القدماء من المعلمين أن يأتوا بالرؤوس الثمانية قبل افتتاح كل كتاب، وهي: الغرض والعنوان والمنفعة والمرتبة، وصحة الكتاب ، ومن أي صناعة هو، وكم فيه من أجزاء، وأي أنحاء التعاليم المستعملة فيه» [1].

---

(١) حطط المقريزي. دار التحرير (د.ت) ٤/١

- وأن المقـدمتين تحويان ثناء تقليد ياعلي الله- عز وجل- وصلاة وسلاما علي سائر أنبيائه.

- وأن السجع لايظهر إلا في مقدمتي الرسالتين، ثم يختفي تماما- إلا ما جاء عفوا.

- والسرد مفكك يتبع أسلوب القفزات. والاستطراد فيه أساس.

- واستخدامه لجمل نمطية مكررة متشابهة ملحوظ، فتكاد جملة مثل «ثم خرجنا إلي قبيلة تعرف بكذا.. فسرنا فيهم كذا يوما» تكون الصيغة الوحيدة المستعملة للانتقال من قبيلة لأخري، ولاتدخلها إلا تغييرات طفيفة مثل: « إلي قبيلة تعرف بكذا.. فسرنا بين أهلها كذا يوما».

والأفعال الغالبة في الرسالتين هي تلك الأفعال الدالة علي الحركة مثل «جاوزنا- قطعنا- سرنا- وصلنا- انتهينا- أشرفنا- عبرنا- أقمنا- دخلت- خرجت- شاهدت- رجعت».

- وقد تكرر جمل بعينها في مواضع مختلفة لتدل على الأحكام العشوائية المبالغة التي يصدرها أبودلف، فنهر «الرس» «عليه رمان عجيب لم أر في بلد من البلدان مثله، وبهاتين عجيب» (٤٨).

- «وحلوان» بهـا «رمـان لـم أر في بلد من البـلاد مـثله، وبهـا أيضـا تين عجيب»(٦٢).

- وهذه الجمل التي يستخدمها أبودلف قصيرة في غالبها.

- واستخدامه لأدوات العطف غير دقيق ، فأهل «كابل» يحالفون ملة الصين في الذباحة، ويأكلون السمك والبيض، ويقتل بعضهم بعضا، ولهم بيت عبادة (٤٤٦/٣) و«الصّيمرة» مدينة حسنة تجمع النخل والزيتون والجور والتلج وفواكه الجبل والسهل» (٦٤).

وقد يحكي ألفاظ بعض اللغات ويفسرها؛ فحلوان «بهاتين يقال له «الشاهنجير» تفسيرها ملك التين» (٦٢) ومفردات كثيرة غريبة، لأنها تمثل مصطلحات طبية

وأسماء، معادن أو مواضع، والعودة إلي مظان شرحها في عصرها ضرورية.

وعنصر الحوار يكاد يختفي من الرسالتين سوي مواضع قليلة، واستشهاده بالقرآن الكريم يقتصر علي مقدمة الرسالة الأولي، كما يضمن آية منه في موضع آخر. والاستشهاد بالشعر يقف عند بيت واحد لأبي نواس أورده في سياق حكاية عنه.

- ٣ -

يعد المسعودي من أشهر الرحالين العرب في القرن الرابع الهجري؛ فقد كانت حياته رحيلا دائما بين بلاد وأجناس متعددة، وتجاوزت نصف القرن زمنا. وقد حرص هو نفسه علي تأكيد ذلك في مقدمات كتبه؛ ليعلل ما قد يشوبها من نقص، قال : «علي أنا نعتذر من تقصير- إن كان.. ونتنصل من إغفال- إن عرض؛ لما قد شاب خواطرنا وغمر قلوبنا، من تقاذف الأسفار، وقطع القفار، تارة علي متن البحر، وتارة علي ظهر البر، مستعلمين بدائع الأمم بالمشاهدة، عارفين خواص الأقاليم بالمعاينة، كقطعنا بلاد السند والزنج والصنف والصين والزابج، وتقحمنا الشرق والغرب: فتارة بأقصي خراسان، وتارة بوسط أرمينية وأذربيجان والران والبيلقان، وطورا بالعراق، وطورا بالشام، فسيري في الآفاق، سري الشمس في الإشراق»[1].

وقد وجد المسعودي في نفسه شبيها بأبي تمام حين يقول:

خليفة الخضر، من يربع علي وطن .·. في بلـدة، فظهور العيس أوطاني

بالشام قومي، وبغداد الهوي، وأنـا .·. بالرقتين والفسـطاط إخـــواني

وقوله أيضا:

فغربت حتي لم أجـد ذكر مشرق .·. وشرقـــت حتي قد نسيت المغاربا

خطـــــوب إذا لاقيتهـــن رددني .·. جريحا، كأني قد لقيت الكتائبا [2]

وهذه الرحلات لم يفرد لها المسعودى كتبا مستقلة، وإنما دس ما أفاده منها في

---

(١) مروج الذهب ١/١٠-١١، وانظر كذلك ما كتبه جورجي زيدان ونقله المحقق فى ص٧

(٢) التنبيه والإشراف، المسعودي. تحقيق دي حويه. ط ليدن ١٩٦٧. ص ٧

ثنايا آثاره العديدة التي ضاع معظمها، وقد بلغت اثنين وثلاثين كتابا حسب حصر قام به أحد الباحثين معتمدا علي إشارات وإرجاعات المسعودي فيما وصلنا من كتبه[1]، بينما بلغت عند باحث آخر أربعة وثلاثين كتابا[2]. ولم يصلنا منها سوى كتابين هما:

١- مروج الذهب: وهو مخطوط كتب عام ٣٣٢ هـ ٩٤٤ م، ولكن يبدو أن المسعودي لم يرض عنه، فأضاف إليه عام ٣٤٥ هـ ٩٥٦ م؛ فقد أشار إلي تعديلات «في النسخة الأخيرة التي قررنا أمرها في هذا الوقت علي مايجب من الزيادات الكثيرة وتبديل المعاني وتغير العبارات، وهي أضعاف النسخة الأولي التى ألفناها في سنة ٣٣٢ هـ، وإنما ذكرنا ذلك لاستفاضة تلك النسخة وكثرتها فى أيدي الناس»[3].

٢- التنبيه والإشراف: وقد ألفه المسعودي عام٣٤٥ هـ ٩٥٦ م في خلافة المطيع. وثمة جدل حول نسبة كتاب ثالث إليه هو كتاب «أخبار الزمان..» وقد حسم محققه «عبد الله الصاوي» الجدل حوله حين جزم أن كتاب المسعودي «أخبار الزمان غير هذا» [4] الذي عثر عليه. بينما أعلن «كراتشكوفسكي» أنه «في بعض المخطوطات ينسب الكتاب للمسعودى، ولكن يستحيل عقلا أن يكون من تأليفه سواء من ناحية الموضوع أو الشكل»[5]. وهذا اللبس مرده أن للمسعودي كتابا ضخما بالاسم نفسه.

المشهور عن كتاب «مروج الذهب» أنه كتاب في التاريخ، ولكن إذا شئنا الدقة فإن الكتاب ليس تاريخا فحسب، وإنما هو موسوعة ضمت معارف المسعودي جميعها، تلك المعارف التي حصدها أثناء رحلاته المتعددة الطويلة. صحيح أن الجزء الأكبر من الكتاب مخصص للتاريخ الذي يعني بالماضى أساسا، ولايتيح للمؤلف

---

(١) المسعودي .د / علي حسني الخربوطلي. دار المعارف ١٩٨٠ . ص ٤٢-٤٣.

(٢) التنبيه والإشراف تحقيق عبد الله الصاوي. القاهرة ١٩٣٨ . المقدمة١٧-١٩

(٣) التنبيه والإشراف ط. ليدن ٩٧

(٤) أخبار الزمان.. ينسب للمسعودي تحقيق عبد الله الصاوي دار الأندلس بيروت ١٩٨٣، ص ١١

(٥) تاريخ الأدب الجغرافي العربي ١/١٨٥

مجالا لحكاية تجاربه الذاتية، غير أن المسعودي لم ينس عصره، ولم ينس شخصه، فظفرا - عصره وشخصه- بقسط من اهتمامه، وكان ذلك الربط بين الماضي والحاضر زمانا، والقريب والبعيد مكانا، والموضوع والذات منهجا- كان ذلك كله سببا في نجاح مؤلفات المسعودي والإقبال عليها.

وعلي هذا، فإن نسبة الكتاب إلي محيط الأدب أقرب إلي الدقة، خاصة أن المسعودي كان أديبا قبل كل شئ، حريصا على التأنق فى عبارته، والاستشهاد بالمأثورات الأدبية: شعرا ونثراً.

الكتاب يعتمد علي حصاد رحلات، ولكن هذا الحصاد مبعثر في جنباته، وما يمكن جمعه من إشارات إلي وجوده في أماكن معينة[1]، أو مشاهدات شخصية، أو تجارب ذاتية- قليل للغاية بالقياس إلي حجم الكتاب، إضافة إلي أن المسعودي لم يوضح خط سير رحلاته ولا تتبعه، ولم يذكر بداية رحلاته أو نهايتها، وما إذا كان قد أفاد من رحلة واحدة بعينها أو من رحلاته كلها. ولعل النسخة الأخيرة المعدلة تكون قد احتوت علي شئ من هذا كله، فتقرب من أدب الرحلة.

ورغم أن هناك إشارات زمنية فعددها قليل، منها تلك الإشارة إلي وجوده ببلاد صيمور من بلاد الهند من أرض اللار من مملكة البلهرا، وذلك في سنة أربع وثلاثمائة»[2]، وإلي وجوده في مصر حيث «رأيت صاحب هذا الرجل المقيم بالواحات بباب الإخشيد محمد بن طغج، وذلك سنة ثلاثين وثلاثمائة، وسألته عن كثير من أخبار بلدهم، وما احتجت أن أعلمه من خواص أرضهم، وكذلك كان فعلي مع غيره في سائر الأوقات ممن لم أصل إلي بلادهم» [3]، يضاف إلي ذلك إشاراته العديدة إلي وجوده بمصر إبان تأليف النسخة الأولي عام ٣٣٢ هـ .

بالإضافة إلي الكتب المدونة السابقة عليه، اعتمد المسعودي علي مصادر حية في إمداده بالمعلومات كما جاء فى الحبر السابق وكذلك «لم أترك ممن شاهدت من

---

(١) انظر - مثلا، ١/١٠٠،١/٣٤٣، ١/١٦٧. (مروج الذهب)

(٢) مروج الذهب ١/٢١٠

(٣) مروج الذهب ٢/٢٧.

التجار ممن له أدب وفهم، وممن لا فهم عنده من أرباب المراكب إلا سألته عن ذلك..»[1]. وقد «أخبرني بعض إخواننا من المسلمين ممن كان أسيرا في بلاد النصرانية.. [2]، وكذلك «نمي إلي وأنا بمدينة أنطاكية والثغر الشامي أن النيل زاد في هذه السنة ثمانية عشر ذراعاً» [3]. يضاف إلي ذلك كله المصدر الرئيسي للمسعودي المتمثل في مشاهداته وتجاربه الشخصية التي يتضمنها كتابه، ومعنى هذا أنه لم يكتف بالنقل دون تمحيص، وإنما عرضه علي ما رآه بنفسه وعلمه أثناء رحلاته. ولكن .. يبدو أن معياره النقدي لم يكن دقيقا في مواضع بعينها؛ فقد أورد حكايات عديدة مغرقة في الغرابة، مما أتاح الفرصة «لابن خلدون» كي يهاجمه في أكثر من موضع من مقدمته، مع الاحتفاظ له بكثير من التقدير، ففي «كتب المسعودي والواقدي من المطعن والمغمز ماهو معروف عند الأثبات، ومشهور بين الحفظة والثقات، إلا أن الكافة اختصتهم بقبول أخبارهم، واقتفاء سننهم في التصنيف، واتباع آثارهم»[4]. وهذه المطاعن علي المسعودي اقتصرت علي مواضع قليلة ذكرها ابن خلدون في أماكن متفرقة من كتابه، أما بقية ما كتب فكان ثقة، ولذلك استعان ياقوت بآرائه في بضعة عشر موضعا، وأعلن فى غير موضع ثقته فيه، ولم يعلق علي مايورده تعليقا يوحي بالشك في صحة معلوماته إلا في موضع واحد فقط[5].

ويكاد يكون كتاب «التنبيه والإشراف» نسخة مختصرة من كتاب «مروج الذهب» مع التوسع في بعض الموضوعات التي احتواها الأخير، أو اختصارها.

ولكن يظل الهيكل العام متشابها، باعتبار أن كلا منهما معنى أساسا بالتاريخ، يليه اهتمام بالجغرافيا باعتبارها المدخل الطبيعي لوصف تلك الأجواء التي تقع فيها أحداث التاريخ، ولكن.. يلفت النظر في تلك المقدمة الجغرافية لكتاب «التنبيه

---

(١) السابق ١/١٢٥.

(٢) نفسه ١/١٣٠.

(٣) نفسه ١/١٠٠

(٤) مقدمة ابن خلدون ١/٢٨٣، وانظر كذلك ١/٢٩٢، ١/٣٢٩، ١/٣٣٠

(٥) معجم البلدان ١/٣٨٥ ، وانظر كذلك ١/٥٠٣، ٢/١٣٩، ٣٣٥، ٣/٧٨، ٣/١٤٨، ٣/٤١٦، ٤/٢٨٦، ٤/٤٤٦، ٥/٣٤٠، ٥/٢١١

والإشراف»- أنها احتوت علي وصف جغرافي فلكي يتفوق علي الوصف نفسه في «مروج الذهب» مما يشي بأن المسعودي كان ينتوي أن يصب اهتمامه علي الجغرافيا بأنواعها، ولكن سرعان ما غلبه ميله إلي الإخبار، فتحول الكتاب إلي التاريخ مرة أخري.والدليل الملموس علي نيته تلك ذلك الاستعراض للمؤلفات الجغرافية السابقة عليه- في مقابل استعراض المؤلفات التاريخية في «مروج الذهب»، فقد «صنف أحمد بن الطيب السرخسي صاحب يعقوب بن إسحاق الكندى كتابا حسنا في المسالك والممالك والبحار والأنهار وأخبار البلدان وغيرها، وكذلك أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني وزير نصر بن أحمد بن إسماعيل بن أحمد بن أسد صاحب حراسان- ألف كتابا في صفة العالم وأخباره، وما فيه من العجائب والأمصار والبحار والأنهار، والأمم ومساكنهم وغير ذلك من الأخبار العجيبة والقصص الظريفة، وأبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه في كتابه المعروف بالمسالك والممالك، وهو أعم هذه الكتب شهرة في خواص الناس وعوامهم في وقتنا هذا.. » [1]. ويلفت النظر كذلك تلك المقدمة الطويلة التي أوردها لبيان هدف الكتاب، ولعل قراءتها تشير إلي ذلك التباين بين ما سيحويه كتابه- وإن لم يلتزم بما جاء فيها حرفيا.

والظاهرة الواضحة في الكتاب بروز شخصية المسعودي بالقياس إلي ظهورها في كتاب «مروج الذهب»؛ فقد تدخل المسعودي تدخلا ذاتيا في مواضع متعددة ليبدي آراءه كما نص علي مشاهدته المباشرة لمواضع وحوادث بعينها، وذكر بعض ما يتعلق بشخصه، مثل أنه «جرت بيننا وبين أبي كثير ببلاد فلسطين والأردن مناظرات كثيرة في نسخ الشرائع والفرق بين ذلك، وبين أعبدا وغير ذلك، وبين يهودا بن يوسف المعروف بابن أبي الثناء تلميذ ابن قرة الصابئ في الفلسفة والطب في الرقة من ديار مضر، وبين سعيد بن علي المعروف بابن أشليما بالرقة أيضا. وكذلك بين من شاهدنا من متكلميهم بمدينة السلام مثل يعقوب بن مردويه، ويوسف بن قيوما. وآحر من شاهدنا منهم ممن تقدم إلينا من مدينة السلام بعد الثلاثمائة إبراهيم اليهودي التستري، وكان أحذق من تأخر منهم في النظر،

(١) التنبيه والإشراف ٧٥

وأحسنهم تصرفا فيه»[1]. ولعل في ذكره لأسماء من ناظروه ربطا لكتابه بواقعه المعاصر، ومن ثم اقترابا من الأدب.

وقد يشير المسعودي إلي اهتمامه بموضوعات معينة مثل «تنازع من سلف وخلف في البحار وأعدادها ومسافاتها وأطوالها وعروضها واتصالها وانفصالها وجزرها ومدها، وغير ذلك من أحوالها، ونحن ذاكرون أصح ما نقل وأشهره، ومبينوه، إذ كنا عنينا بذلك برهة من دهرنا، وصرفنا إليه هممنا مشاهدة وخبرا، حتي وقفنا منه على ما نظن أنه استغلق على غيرنا علمه، وغرب عليه فهمه»[2] كما يشير في غير موضوع إلي إقليمه الذي ولد فيه- بابل، ولايحلو حديثه عنه من فخر، «إذ كان به مولدنا، وفيه منشؤنا، وكنا أولي الناس بتقريظه، والإبانة عن شرفه وفضله، وإن كان أشهر من أن يحتاج فيه إلي إطناب، ولايحويه لعظمه- كتاب» [3].

ورغم هذا التوجه الذاتي، فإن الصبغة الأساسية للكتاب تظل صبغة تاريخية، تليها صبغة جغرافية واضحة، وفي هذه الأخيرة يتصف بميزة نادرة، وهي الأصالة؛ بمعني أنه لم يكن يتبع من سبقوه اتباعا أعمي، بل كان يضيف ويبتكر ويحلل وينقد، حتي أن «كرامرس» اعتبره «أعظم الجغرافيين أصالة في القرن العاشر/ الرابع الهجري»[4].

«لقد كان المسعودي أديبا قبل كل شيء، وناشرا للمعارف على منهج الجاحظ وابن الفقيه، مع ميل أكثر نحو الجدية ونحو الأسلوب القصصي، فهو قاص ماهر، وفى كتابه الذي يغلب عليه التاريخ يقابلنا أفضل تصوير للحياة الاجتماعية والثقافة فى عصر الخلافة » [5].

لقد امتلك المسعودي الأديب ناصية اللغة، فتصرف فيها كيف شاء. مسترسلا على الدوام، ولاجئا للسجع في أحوال قليلة؛ ليثبت قدرته علي استخدامه، يحكمه في هذا كله طبيعة ما يكتب، دون محاولة لإغراب أو تعقيد، بل قصد مباشر للغرض دون التفاف.

---

(١) التنبيه والإشراف ٩٩

(٢) التنبيه والإشراف الصاوي ٤٥

(٣) السابق ٣١

(٤) الجغرافيا عند المسلمين ٣٩، وتاريخ الأدب الجغرافي ١٧٧/١

(٥) تاريخ الأدب الجغرافى ١٨١/١ .

لعل معظم الدراسات السابقة- والتي اعتمدت علي الرحلة- اتبعت نهجا تقليديا مألوفا، ذلك النهج المأخوذ عن الجغرافيا اليونانية في صورة ممثلها الأكثر تأثيرا في الجغرافيا العربية.. «بطلميوس».

وأهم سمات ذلك النهج تقسيم العالم إلي سبعة أقاليم، والاعتماد علي ارتباط الجغرافيا بالفلك، أو ما سمي بالجغرافيا الفلكية والجغرافيا الرياضية.

ولأن القرن الرابع الهجرى مثل قمة ازدهار الحضارة الإسلامية- ومن ثم العلوم المختلفة- فقد شهدت الدراسات الجغرافية طفرة كبيرة عمادها محاولة الاستقلال عن الجغرافيا اليونانية، وتخطيها إذا لزم الأمر، تعضد ذلك رغبة أكيدة في الابتكار والاختراع والسبق والإضافة.

اعتمادا علي كون الجغرافيا العربية جغرافيا عملية، نشأت مدرسة جديدة، قسمت العالم الإسلامي إلي عشرين إقليما طبيعيا، وشرعت في تناول كل إقليم علي حدة في محاولة لدراسته دراسة تفصيلية، تساعد علي رسم صورة صادقة للعالم.

أطلق «كراتشكوفسكي» عليها اسم: «المدرسة الكلاسيكية»، بينما أطلق عليها «كرامرس» اسم «المدرسة البلخية» أو «مدرسة البلخي الإسلامية» [(١)].

رءوس هذه المدرسة ثلاثة ، ظهر الارتباط فيما بينهم ظهورا لايدع مجالا لشك. أما الأول فهو: أبو زيد البلخي، والثاني: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الإصطخري، وثالثهم وأكثرهم إبداعا: أبو القاسم محمد بن حوقل النصيبي التاجر.

حول حلقات هذه السلسلة الثلاث قامت دراسات عدة، تحاول فك رموز الصلة فيما بينهم.. الصلة فيما بينهم ثابتة، ولكن طبيعتها وحدودها وأسرارها مازالت خافية. إن هذه الدراسات جميعا جادة، غير أن نتائج معتبرة لم تحرز حتي الآن.

رائد هذه المدرسة نال شهرة كبيرة، ليس كجغرافي فحسب، ولكن كعالم

---

(١) الجغرافيا عند المسلمين ٣١

موسوعي، متعدد المعارف، متفوقا فيها. قال ياقوت: «اتفق أهل صناعة الكلام علي أن متكلمي العالم ثلاثة: الجاحظ، وعلي بن عبيدة اللطفي، وأبو زيد البلخي.. أما الجاحظ فيزيد لفظه علي معناه، وأما أبو زيد فيتوافق لفظه مع معناه»[1].

في محاولة لإلقاء الضوء علي أبي زيد أورد صاحب الفهرست عدة مواقف تبين المراحل الفكرية المتقلبة التي مر بها، وذكر أسماء كتبه فى قائمة كبيرة. وكان غريبا ألا يذكر فيها كتابه «صور الأقاليم» الذي كان أصل تلك المدرسة»[2].

هذا السهو من صاحب الفهرست لاينفي وجود الكتاب، فقد أخذ عنه كثيرون، وقدم آخرون عرضا تحليليا له، فالمقدسي أوضح أن أبا زيد «قصد بكتابه الأمثلة وصورة الأرض، بعدما قسمها علي عشرين جزءا، ثم شرح كل مثال، واختصر، ولم يذكر الأسباب المفيدة، ولا أوضح الأمور النافعة فى التفصيل والترتيب. وترك كثيرا من أمهات المدن؛ فلم يذكرها. ومادوح البلدان، ولا وطئ الأعمال، ألا تري أن صاحب خراسان استدعاه إلي حضرته ليستعين به، فلما بلغ «جيحون» كتب إليه: إن كنت استدعيتني لما بلغك من صائب رأيي، فإن رأيي يمنعني من عبور هذا النهر. فلما قرأ كتابه أمره بالخروج إلي بلخ »[3].

واتهام المقدسي للبلخي بأنه لم يدوخ البلدان ولم يطأ الأعمال محل نظر، فالثابت أنه زار عدة أقطار، منها العراق والجزيرة العربية، مكث فى الأول ثماني سنوات. ويبدو أن كتاب أبي زيد- والذي ألف حوالي عام (٣٠٨ هـ- ٩٢٠ م) فقد مبكرا، ولذلك فإن الأخذ عنه قليل؛ حتي أن صاحب «معجم البلدان» لم ينقل عنه سوي مرة واحدة، يرجح أنها عن مصدر وسيط. والأثر الأكبر الدي تركه الكتاب كان النهج المتميز المبتكر. وإضافة مميزة أخري قدمها البلخي، تمثلت في تلك الخارطات التى زود بها كتابه، وهى بعدد أقسامه، وقد سار على النهح نفسه تلميذاه: الإصطخرى وابن حوقل؛ فزود كل منهما كتابه بعدد مماثل- معدل

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع ٣٧٦/١، وانظر معحم الأدباء ٦٤/٣-٨٦ حيث يقدم ترجمة كاملة له.

(٢) الهرست ١٥٣.

(٣) أحسن التقاسيم ٥ ومعحم الأدباء ٨٦/٣.

ومطور– كان أساسا صالحا لتكوين ما عرف بـ «أطلس الإسلام» ونظرا لأهمية هذه الخارطات أكد «كرامرس» على «وجوب دراسة المتن والخارطات جنبا إلي جنب عند مؤلفي هذه السلسلة دون أن يفصل بينهما فاصل؛ لأن المؤلفين أنفسهم لم يفصلوا بين الاثنين»[١].

وجود هذه الخارطات، وتعديلها وإصلاحها حتي تصل إلي الصورة المثلي، كان– بلا شك– في صالح الرحلة والرحالة، فقد أصبح ممكنا أن يحدد الرحال خط سيره قبل خروجه دونما خطأ كبير يكلفه مشقة ومالاً ليسا فى حسبانه. ومن ثم فقد أطلق علي هذا النوع من الكتب وخارطاتها– أحيانا– اسم «دلائل المسافرين».

وكانت وفاة أبي زيد البلخي فى سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة.. عن سبع أو ثماني وثمانين سنة كما يذكر ياقوت.

– ٥ –

الذى لاشك فيه أن الإصطخري اعتمد علي كتاب أبي زيد البلخى، وأن ابن حوقل اعتمد علي الكتابين كليهما– وإن كان اعتماده على الأول أكبر– غير أنه تفوق عليهما. وكثير أولئك الذين يرون في كتاب الإصطخرى «نسخة معدلة جديدة لكتاب أبي زيد» [٢]. بل إن سبة الكتاب لأحدهما اختلطت علي خبير في الموضوع مثل ياقوت، فأخبر أنه قرأ«في الكتاب المتنازع بين أبي زيد البلخي وأبي إسحاق الإصطخري فى صفة البلدان، قال: ..» [٣] . غير أن النص المنقول ها هنا– وهو عن أحد القرامطة– موجود فى كتاب الإصطخري بألفاظ مقاربة. يؤكد هذا الاختلاف في الألفاظ علي أن الكتاب كتب غير مرة فقد «أنهي أول مسودة له وأبو زيد على قيد الحياة، وذلك حوالي عام (٣١٨–٣٢١ هـ= ٩٣٠–٩٣٣م)، غير أن كتابه قد انتشر في الشرق– بوجه خاص– علي هيئة طوامير ترتفع إلي

(١) تاريح الأدب الجعرافي ١ /١٩٧، وانطر في أبي ريد وكتابه أيضا: الإمتاع والمؤانسة ٢٦/١، ١٥/٢، ٣٨٩/٢ وحريدة العجائب٣، وتاريح الأدب العربي ٢٤٦/٤، والجعرافيا العربية ٨١.

(٢) انظر دائرة المعارف الإسلامية ٢٥٦/٢، والحعرافيا العربية ٨٢، وانظر أحسن التقاسيم ص ٥

(٣) معجم البلدان ١٦٦/٢ ، والمسالك والممالك ٩٠ (قارن بيىهما).

المسودة التي عملت حوالى (٣٤٠هـ = ٩٥٠ م) » [1]. وجدير بالذكر أن كتاب الإصطخري ترجم إلى الفارسية أكثر من مرة، كما ترجم إلي التركية. ومصادر الكتاب يمكن حصرها فى ثلاثة [2]:

١- التجربة والمعاينة الشخصية الناتجة عن رحلاته الكثيرة.

٢- الاعتماد علي المصادر المدونة ككتاب البلخي. وقيل إن كتابه يحوي كثيرا من المادة السابقة عليه.

٣- الاعتماد علي المصادر الحية، وذلك بسؤال أهل الإقليم الذي يكتب عنه، أو من لهم معرفة به.

غير أن المصدر الأول يعد أهمها، وفي هذا الصدد تتعدد الإشارات التي تدل علي أنه زار:

الجزيرة العربية (ص٢٤)، والشام)٣٥)، ومصر (٤٢). وكثيرا من بلاد المشرق (١٢٣،٦٣،٤٢) والعراق (٦٠،٥٧) وبلاد ما وراء النهر وخاصة بخاري (١٦٤،١٦٢).

وسر أهمية هذا المصدر أنه أتاح للإصطخري التعرف المباشر علي المناطق موضوع الوصف والبحث، وكذلك التأكد من صحة أو خطأ السابقين عليه في مجاله.

وتبدو بعض الملامح الأساسية في نهج «المدرسة القديمة» من خلال كتاب الإصطخري الذي :

١- يقسم العالم إلي عشرين إقليما.

٢- يخص كل إقليم بخريطة تتصل اتصالا وثيقا بما يكتب عنه.

٣- الاقتصار علي وصف العالم الإسلامي- كما ادعي، وإن لم يلتزم بهذا الشرط بدقة.

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافي ١/١٩٩.

(٢) انظر في هذه المصادر الثلاثة: المسالك والممالك ١٩، ٢٤، ٣٥، ٤٢، ٦٤، ١٦٢. إلخ.

٤- ذكر كل ما يتصل بالإقليم ، وذلك عن طريق المصادر الثلاثة السابقة.

٥- التدخل التشخصي المباشر، وحكاية بعض المواقف الخاصة كلما أمكن ذلك.

وقد وضع الإصطخري- بنفسه- دستور تلك المدرسة في مقدمة كتابه فقال: «ذكرت في كتابي هذا أقاليم الأرض علي الممالك، وقصدت منها بلاد الإسلام، بتفصيل مدنها، وتقسيم ما يعود بالأعمال المجموعة إليها. ولم أقصد الأقاليم السبعة التي عليها قسمة الأرض، بل جعلت كل قطعة أفردتها مصورة كي تحكي موضع ذلك الإقليم ثم ذكر ما يحيط به من الأماكن، وما في أضعافه من المدن والبقاع المشهورة، والبحار والأنهار، وما يحتاج إلي معرفته من جوامع ما يشتمل عليه ذلك الإقليم، من غير أن استقصيت ذلك كراهة الإطالة التي تؤدي إلي ملال من قرأه، ولأن الغرض من كتابي هذا تصوير هذه الأقاليم التي لم يذكرها أحد علمته. أما ذكر مدنها وجبالها وأنهارها وبحارها والمسافات، وسائر ما أنا ذاكره، فقد يوجد فى الأخبار، ولايتعذر علي من أراد تقصي شئ من ذلك من أهل كل بلد. فلذلك تجوزنا فى ذكر المسافات والمدن وسائر ما سنذكره.. ففصلت بلاد الإسلام عشرين إقليما، وابتدأت بديار العرب، فجعلتها إقليما لأن فيها الكعبة ومكة أم القري، وهي واسطة هذه الأقاليم. ثم أتبعت ديار العرب ببحر فارس لأنه يكتنف أكثر ديار العرب، ثم ذكرت المغرب حتي انتهيت إلى مصر فذكرتها، ثم ذكرت الشام، ثم بحر الروم ، ثم الجزيرة، ثم العراق ثم خوزستان، ثم فارس، تم كرمان، ثم المنصورة وما يتصل بها من بلاد السند والهند والإسلام، ثم آذربيجان وما يتصل بها ثم كور الجبل ، ثم الديلم، ثم بحر الحزر، ثم المفازة التي بين فارس وخراسان ثم سجستان وما يتصل بها، ثم خراسان ثم ما وراء النهر»[١].

وثمة ملاحظات منهجية يمكن إضافتها إلي ماقاله الإصطحرى:

(أ) أنه يعتبر التقدم الحضارى شرطا أساسا لتضمين إقليم بعينه فى كتابه؛ ولذا فإنه تغاضى عن وصف «بلد السودان فى المغرب، والبجة والزنج ومن فى أعراضهم من الأمم؛ لأن انتظام الملك بالديانات والآداب والحكم، وتقويم

(١) المسالك والممالك ١٥.

العمارات بالسياسة المستقيمة. وهؤلاء مهملون لهذه الخصال، ولاحظٌ لهم فى شىء من ذلك، فيستحقون به إفراد ممالكهم»[1].

(ب) وفى كل إقليم تتصدر الخارطة، ثم يليها وصف عام للإقليم وخصائصه، ينتهى بذكر المسافات والطرق -غير أنه يخالف ذلك النهج فى عدة مواضع؛ ففى مصر الجزيرة يقدم المسافات على الوصف العام. وفى وصفه لإقليم فارس -الذى ينتمى إليه- يتوسع على غير المعتاد، بحيث يقارب حجم وصفه لهذا الإقليم وصفه للأقاليم العربية جميعا، كما يحظى وصفه لإقليمىّ خوارزم وخراسان باهتمامه.

(جـ) كما يلاحظ أن وصفه للأقاليم الفارسية يستأثر بأكثر من ثلاثة أرباع الكتاب، وفى هذا دليل على أن خبرة الإصطخرى ببلاد الفرس أفضل من خبرة ابن حوقل، وخبرة ابن حوقل ببلاد العرب أفضل من خبرة الإصطخرى، وهذا الجانب قد يفيد كثيرا فى دراسة الكتابين معا، وتحديد أيهما الآخذ عن الآخر فى موضع بعينه.

(د) وينص الإصطخرى -دوما- على كون المدينة قديمة أو أزلية -أى نشأت قبل ظهور الإسلام، أو محدثة - أى أنشأها المسلمون. والأمر نفسه يلاحظ عند ابن حوقل.

(هـ) وهو ينزه كتابه عن كل سوء؛ فيرفض ذكر بعض العجائب الخارجة عن المألوف حتى لايُتهم، كما يرفض ذكر السوءات الأخلاقية لسكان أقاليم بعينها.

(و) وفى وصفه العام للأقاليم الإسلامية يُلاحظ أنه بدأ من الغرب متجها نحو الشرق، غير أن هذا النهج لم يتبع فى موضعين: ديار العرب وبحر فارس. وقد ذكر سبب ذلك فى حينه: أما تجاوز الأول -أعنى ديار العرب- فسببه أن «القبلة بها، ومكة فيها، وهى أم القرى وبلد العرب وأوطانهم التى لم يتركهم

---

(١) نفسه ١٦

فى سكناها غيرهم»[1].. أما بحر فارس -ويشمل كل ما يحيط بشبه الجزيرة العربية -فيذكر فى غير موضعه لأنه «يشتمل على أكثر حدودها -أى ديار العرب، ويتصل بديار العرب منه، وبسائر بلدان الإسلام»[2].

(ز) وفى تقسيمه للأقاليم لايعتمد التقسيمات السياسية القائمة بل يعتمد التقسيمات الطبيعية؛ ولذلك فإن بعض تقسيماته توشك أن تكون مبتكرة، وأن تكون خاضعة لهواه، فقد «ضممنا إلى سجستان ما يتصل بها من ظهر الغور كله إلى الهند، وجعلنا ديار خلج فى حدود كابل ووخان.. وضممنا قومس إلى نواحى جبال الديلم مع جرجان وطبرستان والرى وقزوين وما يتصل بهما، وجعلنا ذلك كله إقليما واحدا. وضممنا الختل إلى ما وراء النهر، لأن مدينتها وراء النهر، وهى أقرب إلى بخارى منها إلى مدن خراسان»[3] ولعل فى تلك التقسيمات المقترحة دليلا على معرفة جيدة وشخصية بتلك البلاد.

(ح) ويبدو التزامه بوصف «دار الإسلام» دون «دار الكفر» هشا، بل إنه يلتمس حججا واهية ليصف بلادا رآها أو سمع بها، وكأنه يصعب عليه ألا يزود قارئه بما جمع من مادة علمية، فالغور - يقول الإصطخرى - «دار كفر، وإنما ذكرناه فى الإسلام لأن به مسلمين. وهى جبال عامرة ذات عيون وبساتين وأنهار، وهى خصيبة منيعة، وفى أوائلهم - مما يلى المشرق - قوم يظهرون الإسلام وليسوا بمسلمين»[4] وهو منطق هش، يمكن أن تتحول به جميع البلاد إلى «دار الإسلام».

(ط) وهو لا يتورع عن عقد مقارنات من طراز «فضائل البلدان ومساوئها »وهى مقارنات لا تقوم على أساس مقبول فى أحيان كثيرة[5].

(ى) ومما يحمد له أن استطراداته قليلة للغاية، وأن أغلبها قد يكون ضروريا فى موضعه، فلا يسبب خللا واضحا فى البناء العام.

---

(١) المسالك والممالك ٢٠. (٢) نفسه ٢٩

(٣) المسالك والممالك ١٤٥. (٤) نفسه ١٥٣.

(٥) انظر : ١٥، ١٦٤

(ك) كما يحمد له أنه يعلن تشككه فيما ينقل إذا كان يستحق ذلك، كما ينص على كون المعلومة منقولة عن غيره، سواء من مصادر حية أو مدونة[1].

(ل) ونهجه العام أن يجمل، ثم يفصل، لذا فإنه يقدم وصفا عاما للأقاليم كافة فى بداية الكتاب، ثم يبدأ فى التفصيل، وقد يفعل الشيء نفسه فى وصفه للأقاليم، فيجمل ثم يقول : «سأفصل كل ما ذكرته مجملا، فأبتدئ بذكر ما فى كل كورة من النواحى التى تشتمل على القرى.. ثم أتبع ذلك بتفصيل كل ما ذكرته مجملا إن شاء الله»[2].

عكس الكتاب بعض سمات شخصية الإصطخرى، مما ينفى عنه كونه كتابا علميا جافا. بل يمكن تصنيفه على أنه «أدب جغرافى».

ومن خلال الإشارات الشخصية الواردة فى الكتاب يمكن استخلاص أن :

– الإصطخرى كان شيعيا، وهو – فى هذا المقام – لا يصيبه التعصب لمذهبه بالتحيز ضد غيره من المذاهب السائدة آنذاك. ويبدو أن هذا التسامح كان أصيلا فى شخص الإصطخرى، الذى لا يميل إلى مبالغة أو مغالاة أو فخر بنفسه.

– وهو يتمتع بروح الباحث العلمى الذى لا يدخر وسعا فى سبيل الكشف عن حقيقة ظاهرة، أو التأكد من صحة معلومة، أو التعليل لنهج اتبعه.

– ويبدو – مع ذلك – تقيا صادقا، يتورع عن ذكر السوءات، وينسب كل معلومة إلى مصدرها – إن وجد. كما يحاول تفادى ذكر العجائب التى تخرج بكتابه عن الجادة. وقد كان مدحه لأهل السغد وبلاد ما وراء النهر لكرمهم واحتفائهم بالغرباء – كان دليلا على تقديره لكل ما يمت للأخلاق العالية بصلة.

– ودقته فى الملاحظة دعمتها عدة مواقف طريفة، لعل أكثرها طرافة أن «ببصنى تعمل الستور التى تحمل إلى الآفاق، المكتوب عليها «عمل بصنى»، وقد تعمل ببرذون وكليوان وغيرهما من تلك المدن ستور يكتب عليها «بصنى» وتدلس فى ستور بصنى[3]». وهو ما يتبه الغش التجارى بتقليد المنتجات العالمية لعصرنا فى

---

(١) انظر ١٥، ١٦٤

(٢) انظر المسالك والممالك ٦٨

(٣) المسالك والممالك ٥٤، وانظر كذلك ٥٨.

بلاد بعينها. ولاحظ فى «مرو» أن «اليابس من فواكهها من الزبيب وغير ذلك يفضل على سائر الأماكن، وإنما يذكر من «هراة» الكثرة وأنه يكثر فى الآفاق. فأما الطعم والجودة فإن المروزى يفضله. ومن صحة فواكههم أن البطيخ يقدد ويحمل إلى الآفاق، ولم أعلم هذا يمكن ببلد غيره»[1]، ولأهل «جيرفت» سنة حسنة، لا يرفعون من تمورهم ما أسقطه الريح، فيأخذه غير أربابه وربما كثرت الرياح، فيصير إلى الضعفاء من التقاطهم إياها أكثر مما يصير للأرباب»[2].

وقد لاحظ « أمارى » أنه « يذكر القليل عن صقلية، ولكن ما أورده جوهرى للغاية. ويصدق هذا القول على ما ذكره عن جزيرة القلال بالبحر الأبيض المتوسط، وهى ليست بعيدة عن سواحل فرنسا. ومعلوماته عن الصقالبة – رغم تناثرها وقلتها – لا تخلو من بعض القيمة ».[3] ولعل تلك الدقة هى التى دفعت بياقوت إلى النقل عن الاصطخرى أكثر من ثمانين نقلا، دون تشكيك فى أحدها.

– ويدل اتساع مجال أسفاره ورحلاته على حب أكيد للسفر والرحلة، ومن ثم التجربة والمشاهدة والتسجيل، ثم التأليف والتفسير. وليس أدل على اتساع نطاق رحلاته من تلك الخارطات التى لم يكن ليستطيع لها صنعا لولا ذلك.

– وهذه الرحلات التى قام بها تمت فى فترات متباعدة، ولم تتبع خط سير موحدا، لذا لم يكن متوقعا أن يخرج الكتاب فى شكل رحلة ذات مراحل متتالية ومحددة، كما أن هدف التقديم العلمى المباشر منع ذلك أيضا.

– وبقايا من آثار هذه الرحلات سكنت فى ذاكرة الإصطخرى، ولم تغادرها، فطعم بها كتابه، وكان عملها مزدوجا: تقدم المتعة، كما تقدم المعرفة.

أما ما كان علميا صرفا يعتمد على لغة الأرقام، فقد عول الإصطخرى فيه على ما دونه بنفسه أثناء رحلاته، كما استعان بالمصادر الجغرافية السابقة عليه.

---

(١) نفسه ٦٤

(٢) المسالك والممالك ٩٩.

(٣) تاريخ الأدب الجغرافى ٢٠٠/١.

وبسبب هذا النهج العلمى جاء أسلوب االإصطخرى ملتزما بالسمات العامة للنثر العلمى الذى كان قد وصل إلى درجة النضج، ولا يدعم قول القائلين بأن كتاب الإصطخرى كُتب أولا بالفارسية، ثم ترجم إلى العربية - دليل مقبول.

غير أن سمات بعينها يختص بها الإصطخرى، وقد لوحظت فيمن تلوه :

- فهو يستخدم الفعل «كان» بكثرة، واستخدامه له يتخذ صيغا متعددة فهو ناقص تارة، وتام أخرى، وزائد ثالثة. وقد يسبب هذا اضطرابا فى الجملة : فجبل المذيخرة « منيع، لا يسلك إلا من طريق واحد، حتى تغلب عليه القرمطى الذى - كان - خرج باليمن يعرف بمحمد بن الفضل»[1] وخارج «القيروان أبنية كانت معسكر آل الأغلب، ومقامهم بها كان»[2]. وهذا الاضطراب يطول جملا لا تستخدم فيها «كان». ولذلك فإن كثيرا منها يبدو الترابط بين أجزائها مفقودا.

كما يميل إلى توكيد الضمير المتصل بآخر، كقوله : «وقد ركبته -أنا - من عسكر مكرم إلى الأهواز»[3]، وكذلك «هو جبل رأيته - أنا - من وسط روذة الرى»[4].

ورغم عدم ميل الإصطخرى للمبالغة فإنه قد يضطر إليها تحت وطأة الإعجاب أو الحكم المتسرع، وهو فى ذلك ليس بدعا بين الرحالة والجغرافيين العرب، ولذلك فإن «أفعل التفضيل» المطلق - لا المقارن - تستخدم لديه بكثرة وإفراط ، فعماد «ممالك الأرض أربعة، فأعمرها وأكثرها خيرا وأحسنها استقامة فى السياسة، وتقويم العمارات فيها، مملكة إيرا نشهر[5]» وكور «فارس خمس : فأوسعها عرضة وأكثرها مدنا ونواحى كور ة إصطخر»[6].

وفيما عدا الجمل المضطربة أو المبالغة يسود أسلوب الإصطحرى الطابع العلمى

---

(١) المسالك والممالك ٢٦.

(٢) نفسه ٣٤.

(٣) نفسه ٦٣

(٤) نفسه ١٢٣.

(٥) المسالك والممالك ١٥.

(٦) نفسه ٦٧.

العملى، يقصد إلى المعنى بأقل قدر ممكن من الألفاظ المعبرة بدقة، كما يخلو - إلا قليلا - من محاولة استعراض المعلومات والمعارف الخارجة عن الموضوع، فهو لم يذكر بيت شعر واحدا، كما لم يجد السجع السائد - آنذاك - إلى كتابه سبيلا، إلا ما جاء عفوا.

وقد يبلغ وصفه - الذى يسبغ عليه من عاطفته - حدا مقبولا من الجودة، ففى معرض حديثه عن جمال بلاد ما وراء النهر يؤكد على « نزهة ما وراء النهر، فإنى لم أر - ولا بلغنى فى الإسلام - بلدا أحسن خارجا من «بخارى»، لأنك إذا علوت قلعتها لم يقع بصرك من جميع النواحى إلا على خضرة تتصل خضرتها بلون السماء، فكأن السماء بها مكبة خضراء مكبوبة على بساط أخضر تلوح القصور فيما بينها كالنوائر فيها، وأراضي ضياعهم مقومة بالاستواء كأنها مرآة»[1].

وهذا النوع من الوصف الذاتى الداخلى قليل فى كتاب الإصطخرى. وقد يبلغ وصفه حدا من السهولة يقربه من العامية، ووصفه لكرم أهل السُّغد شاهد على ذلك.

ويستخدم - أحيانا - تعبيرات طريفة، مثل أن غوطة دمشق ليست متصلة الخضرة، لذلك فإنك «إذا كنت بدمشق ترى بعينك على فرسخ وأقل جبالا قرعاء من النبات والشجر»[2].

وقد يذكر بعض المفـــردات الأعجمـــية، ويترجمـــها للعربية مثل «مكان يعرف بورغسر وتفسيره: رأس السكر»[3].

ولأن الإصطخرى هو المتحدث الوحيد فى كتابه، فإن الحوار الكاشف لم يستخدم.

---

(١) نفسه ١٦٤.
(٢) المسالك والممالك ١٦٥.
(٣) نفسه ١٧٨.

-٦-

يعتبر ابن حوقل ركنا هاما من أركان المدرسة الكلاسيكية فى الجغرافيا، إذ استوعب أهم مبادئها، ثم أضاف ما استطاع إليها، اعتمادا على رحلاته التى استغرقت أكثر من ثلاثين عاما.

ولد ابن حوقل مع مطلع القرن الرابع الهجرى، وعاش نحو ثلاثة أرباع القرن، وكان موطنه الأصلى نصيبين التى احتفظ لها بكل حب وتقدير ـ رغم أسفاره المتعددة التى اقتضتها مهنته، فقد كان تاجرا رحالا. وقد أشار إلى ذلك فى غير موضع – إن تصريحا وإن تلميحا، كما أشار إلى ذلك ياقوت حين كان ينقل عن «ابن حوقل التاجر الموصلى وكان قد طوف البلاد، وكتب ما شاهده»[١].

ويستفاد من الإشارات الزمنية الواردة فى الكتاب أنه بدأ رحلاته «من مدينة السلام يوم الخميس لسبع خلون من شهر رمضان سنة احدى وثلاثين وثلاثمائة[٢] وأنه دخل المغرب عام ٣٣٦ (٧١) وكان فى الأندلس عام ٣٣٧ (١٠٨)، وفى سجلماسة عام ٣٤٠ (٩٩)، وفى البصرة عام ٣٥٠ (٢٩٠) وعام ٣٥٨ كذلك (٢٣٩)، كما زار نصيبين والموصل وواسط والحيرة وجرجان فى العام نفسه (٢١٤، ٢١٧، ٢٣٩، ٣٤٠، ٣٩٣) وكان فى الباميان سنة ٣٥٥ (٤٥٠) وفى مصر سنة ٣٦٠ (٤١٦). وأخيرا كان فى صقلية فى يوم الجمعة لعشر خلون من رجب عام ٣٦٢ (١٢٨)، إلى غير ذلك، مما يدل على اتساع نطاق أسفاره، وشمولها كل أقاليم العالم الإسلامى تقريبا.

وقد فطن «بارتولد» إلى أن ابن حوقل «عزم على أن يعطى فى نهاية عمله ملخصا كاملا عن رحلاته، ولكنه لم ينفذ ما انتواه»[٣]. وربما تكون بد الضياع قد عبثت بمثل هده القطعة، لأن ما أورده ابن حوقل يدل على أنه كتبها فعلا، إذ يقول : «وقد ذكرت فى آخر كتابى هذا كيف تعاورتنى الأسفار، واقتطعتنى فى البر دون البحر، الى أن سلكت وجه الأرض بأجمعه فى طولها، وقطعت وتر

(١) معجم البلدان ٢٦٢/١

(٢) صورة الأرض ٣، ويلاحظ أن رقم الصفحة سيضمن المتن فيما يلى.

(٣) Hudud al - Clam P. 20.

الشمس على ظهرها»[1].

لقد عكست مادة الكتاب الثرية بعض ملامح شخصية ابن حوقل، فهو مسلم غيور على دينه ومقدساته، حتى إنه كان يشارك فى الحملات الحربية، مثل تلك الغزوة التى انطلقت من «ميافارقين» (١٩٦)، كما كان ينعى بشدة على الحكام المسلمين تخاذلهم أمام الهجمات الشرسة للروم آنذاك، فقد «ألح الروم فى هذا الوقت على سواحل الشام ونواحى مصر، فهم يختطفون مراكبهم من كل أوب، ويأخذونها من كل جهة، ولا غياث ولا ناصر، ومن للمسلمين بناظر؟! والملك فيهم هامل شاغر، والملك جماع مناع، والعالم يسرق ولا يشبع ويفتي بالباطل على ما يبلغ، ولا يخاف معادا ولا مرجعا، والفقيه ذئب أدرع، فى كل بلية يشرع، وبكل ريح يسرى ويقلع، والتاجر فاجر مسقع، ولا يعاف حراما ولا مطمعا والديار والأعشار بيد الأعداء مستسلمة، والأملاك مغتصبة مصطلمة، والأرض من أربابها إلى الله متظلمة» (٢٠٥). وهذه النغمة تتكرر فى مواضع عديدة (انظر ١٧٧، ١٨٨، ١٩٨، ٢٢٢، ٢٢٣).

وفى إحدى أطرف قصصه يبدو اعتزازه بكرامته جليا، فقد أرسله أحد أصدقائه برسالة إلى أحد كبار الأثرياء فى البصرة، فقرأ الكتاب «ثم أقبل على بعض خدمه، وذكر مراكبه وحاله، فوثبت غيظا، وتركته وأنا لا أبصر ما بين يدى من شدة ما نالنى وداخلنى بإعراضه عنى» (٢٩٠).

ويبدو موقفه من القوى السياسية والدينية لعصره متضاربا، فبينما يشن هجوما شديدا على الحمدانيين – بعد أن كان قد مدحهم وأهدى إليهم النسخة الأولى من الكتاب – وعلى حكام الثغور الإسلامية، وعلى الأندلسيين – نجده يمدح السامانيين (٤٦٩، ٤٧٢)، ويطنب فى مدح الفاطميين (٧١، ٧٩، ١٠٩، ١١٣)، وهو لا يميل للأخيرين باعتبارهم قوة سياسية فحسب، بل باعتبارهم مذهبا دينيا كذلك، ولذا فإنه يهاجم سواهم كالمالكية (٩١، ٩٢) كما يهاجم الخوارج (٧٠، ٩٥، ٢٢٥). ولم يقتصر تأييده للفاطميين على القول، بل أتبعه بالفعل، ومن «الطريف فى هذا الشأن موقفه من أمويى الأندلس، فهو يقدم لنا فى مصنفه

صورة من أدق الصور عن الأندلس فى العصر الأموى. ويرى «دوزى» فى ابن حوقل جاسوسا للفاطميين بلا ريب، غير أن «ليفى بروفنسال» – وهو أحد كبار الخبراء... فى إسبانيا الإسلامية – لا يرى فيه هذا الرأى القاطع، إنما هو فى رأيه – على أى حال – من عملاء العباسيين أو الفاطميين. والأسباب التى دفعت إلى هذه التهمة تبدو من طيات كتابه، إذ يمكن إبصار عواطفه الفاطمية فى أنه كان من أوائل من قدموا.. صورة سلبية عن شجاعة أهل الأندلس وعن نظامهم الحربى والإدارى، مبديا دهشته لعجزه عن إدراك السر فى احتفاظهم باستقلالهم حتى ذلك الوقت دون أن يخضعوا لحاكم من حكام المشرق الإسلامى، ويمكن أن يؤخذ قوله بأنه يرى ذلك أمرا سهلا بمثابة إيعاز للفاطميين أو العباسيين بالتدخل»[1].

إن ولاء ابن حوقل للفاطميين ثابت، تؤكده عباراته التى تغرى الفاطميين بالاستيلاء على الأندلس، فمن «أعجب أحوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هى فى يده مع صغر أحلام أهلها، وضعة نفوسهم ونقص عقولهم، وبعدهم عن البأس والشجاعة والفروسية والبسالة، ولقاء الرجال ومراس الأنجاد والأبطال، وعلم موالينا – عليهم السلام – بمحلها فى نفسها، ومقدارجباياتها، ومواقع نعمها ولذتها» (١٠٨ – ١٠٩).

فى نصين نفيسين ذكر ابن حوقل أسباب تأليفه كتابه، ولعل أبرز ما يمكن استنتاجه منهما أنه كان محبا للسفر الدائم، تدفعه إلى ذلك عوامل ذاتية ضاغطة، وأخرى موضوعية. وقد أنتج ذلك كله أثرا قيما نفخر به، هو كتابه: «صورة الأرض».

النص الأول جاء في مقدمة الكتاب، ويبيّن فيه دوافعه للسفر، والثانى يضيف تلك الإشارة الهامة لمقابلته للإصطخرى، وهى تلك المقابلة التى نتج عنها خلط شديد فى مادة كتابيهما، وتطابقهما فى مواضع كثيره ،حتى أصبح كل واحد منهما مصدرا يعتمد عليه فى تحقيق نص كتاب الآخر.

جاءفى النص الأول أنه «كان مما حضنى على تأليفه، وحثنى على تصنيفه،

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافى العربى ٢٠٤.

وجذبنى إلى رسمه – أنى لم أزل فى حال الصبوة شغفا بقراءة كتب المسالك، ومتطلعا إلى كيفية البين بين الممالك فى السير والحقائق، وتباينهم فى المذاهب والطرائق، وكمية وقوع ذلك فى الهمم والرسوم والمعارف والعلوم، والخصوص والعموم، وترعرعت فقرأت الكتب الجليلة المعروفة، والتواليف الشريفة الموصوفة، فلم أقرأ فى المسالك كتابا مقنعا، وما رأيت فيه رسما متبعا، فدعانى ذلك إلى تأليف هذا الكتاب، واستنطاقى فيه وجوها من القول والخطاب. وأعاننى عليه تواصل السفر، وانزعاجى عن وطنى، مع ما سبق به القدر لاستيفاء الرزق والأثر، والشهوة لبلوغ الوطر».

وجاء فى النص الثانى أنه «كان أكثر ما حدانى على هذا الكتاب، وتأليفه على هذه الصورة – أنى كنت فى حال الحداثة شغفا بأخبار البلدان، والوقوف على حال الأمصار، كثير الاستعلام والاستخبار لسافرة النواحى ووكلاءالتجار، وقرأة الكتب المؤلفة فيها... ولقيت أبا اسحاق الإصطخرى، وقد صور هذه الصورة لأرض السند فخلطها، وصور فارس فجودها، وكنت قد صورت آذربيجان التى قى هذه الصفحة فاستحسنها، والجزيرة فاستجادها، وأخرج التى لمصر فاسدة، وللمغرب أكثرها خطأً، وقال قد نظرت فى مولدك وأثرك، وأنا أسألك إصلاح كتابى هذا» (٣٢٩).

وكتاب «صورة الأرض» كتب أكثر من مرة، فقد «رفع ابن حوقل المسودة الأولى من مصنفه إلى سيف الدولة الحمدانى (ت ٣٥٦ = ٩٦٧م)، وترجع المسودة الثانية إلى حوالى عام (٣٦٧= ٩٧٧)، ويميل «كرامرس» إلى القول بوجود ثلاث مسودات للكتاب، مع فوارق يسيرة بين الأولى والثالثة»[1].

ولأن ابن حوقل يمثل إحدى حلقات سلسلة المدرسة الكلاسيكية، فقد كان طبيعيا أن يعتنق المفهوم نفسه الذى وضعه أبو زيد البلخى محددا به ماهية هذا العلم حين قال فى موضعين – وبألفاظ متقاربة : «ليس فى جمع هذه الأطراف بعضها إلى بعض، ولا فى تفريقها – كبير درك، غير الإبانة عما فى أعراضها من المدن والأنهار» (٤٣١، ٤٧٥). وقد اعتنق المقدسى هذا المذهب نفسه، واقتنع بهذا

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافى ٢٠١.

المفهوم، بل أورد الألفاظ نفسها، مع فارق بسيط هو : أن المقدسى نسب العبارة لأبى زيد البلخى[1]، بينما لم ينسبها ابن حوقل لأحد. ومعنى هذا أن ابن حوقل يصف واقعا حقيقيا، ولا يقدم «رؤية» أو محاولة لإعادة تشكيل الواقع، رغبة فى إفادة القارئ وتعليمه.

باعتبار أن الهدف الذى من أجله وضع ابن حوقل كتابه هدف علمى، فقد حاول أن يسلك السبيل العلمى لتحقيقه معتمدا على مصادر متنوعة مثلت مادة عمله. ويمكن القول : إن دراسة ابن حوقل مرت بمرحلتين أساسيتين هما :

١ - الدراسة المكتبية.

٢ - الدراسة الميدانية.

فيما يتعلق بالدراسة المكتبية يلاحظ أن ابن حوقل لم يستوف قراءة كل المصادر السابقة عليه، كما اعتمد على مصادر عامة لا يمكن الركون إليها. وهو فى تعامله مع هذه المصادر : إما أن ينقل عنها، ولا يحيل إليها، أو ينتقد أصحابها. والجانب الأخير هو أبرز الجوانب فى علاقته بهذه المصادر.

فى غير موضع وجه ابن حوقل انتقاداته للسابقين عليه بشكل عام، وأوضح أن الهدف من كتابه هو سد النقص الذى تعانى منه الثقافة العربية فى عصره فى هذا المجال، كما ادعى أن الهدف من كتابه «تصوير هذه الأقاليم التى لم يذكرها أحد علمته ممن شاهدها. فأما ذكر مدنها وجبالها وأنهارها وبحارها والمسافات فيها، وبعض ما أنا ذاكره، فقد يوجد فى الأخبار متفرقا، ولا يتعذر على من أراد تقصى شيئ من ذلك من سافرة أهل كل بلد»(٤).

وقد تعرض اثنان من السابقين لانتقادات ابن حوقل فى غير موضع، بينما حظى ثلاثة برضاه، وآخرون حازوا رضاه بطريق غير ماشر، إذ أحال القراء لكتبهم : اللذان تعرضا لنقده هما الجيهانى وابن خرداذبه، فقد «كان لا يفارقنى كتاب ابن حزداذبه وكتاب الجيهانى وتذكرة أبى الفرج قدامة بن جعفر، وإذا الكتابان الأولان قد لزمنى أن استغفر الله من حملهما، واشتغالى بهما عن ما يلزمنى من

توخـى العلوم النافـعـة والسـنن الواجبـة (٣٢٩، ٥). أمـا مـن تعرضوا لمدحه فهم : قدامة بن جعفر (٣٣٠)، وأبو حنيفة الدينورى (٣٦٣)، والجاحظ (٣٧٢)، يضاف إليهم الإصطخرى (١٤، ٣٢، ٣٢٩). وأحال على ما كتبه الكعبى وقدامة (٤٥٣)، كما أحال على الكتب ذات الطابع العام، فللبصرة «كتاب يعرف بكتاب البصـرة، ألفـه عمر بـن شـبة قبـل كتـاب الكوفـة ومكة يغنى عن ذكر شيء من أوصـافـهـا، وهذه الكتب مـوجـودة فى جـمـيع الأمـاكن» (٢٣٨)، ولمصـر «وأعمالها غير كتاب مؤلف مستوفى» (١٤٣)، ومن مصادره المدونة أيضا ما وجده مـدونا «بخط أبى النصر الوراق» (١٣٥)، وفى «كـتـاب أخبـار الأطبـاء» (١٢٤)، و«بعض الخطوط القــديمة» (٢٣٤)، و«بعض الكتب» (٣٦٧)، و«ابن دريد» (٢٧١، ٣٧٦).

أما الدراسة الميدانية فتشمل مصدرين مهمين :

١ – ما نقله عن غيره شفاها.

٢ – ما عاينه بنفسه.

فيما يتعلق بما نقله عن غيره، يحسب لابن حوقل حرصه على نسبة كل خبر لصاحبه، من باب الأمانة العلمية والتخلص من التبعة، وترواح الإسناد بين : ذكر اسم صاحب الخبر صراحة، أو تجهيله تماما، أو ذكره بصفة ما.

لقد ذكر ابن حوقل أنه سمع أخبارا ضـمنها كتابه من «إبراهيم بن البتكين» (١٤، ١٥، ١٦٣)، وأبى الحسين على بن أحـمـد الجزرى (٢٦)، وأبى القاسم البصرى (٢٩)، وأبى المنيع كثير بن أحمد الجعدى الأسوانى (٥١) وأبى على بن أبى سعيد (٩٥)، وأبى الحسن بن أبى على الداعى (٩٦)، وزيادة الله نصر بن عبد الله (٩٧)، وأبى اسحاق إبراهيم بن عبد الله المعروف بفرغ شغله (١٠)، وأبى الحارث (١٢٥)، وأبى عبد الله محمد بن عيسى (١٢٧)، وعبد الله بن محمد (١٧٥) وأبى الحسين محمد بن عبد الوهاب التل موزنى (١٩٥)، والرافع وياعرا بابا (٢١٨) وأبى بكر الدمشقى (٤٩٤).

وفي مواضع عديدة يصدر الخبر بقوله: «بلغني» (٣٢، ٣٩، ٣٨) و«أخبرني غير إنسان» (٣٣٤، ٣٥، ١٢٦، ١٩٧، ٣١٥)، كما يصدر أخبارا أخرى بقوله: «سمعت ـ حدثني زعم بعض أصحابنا ـ ذكر قوم» (٢٧، ١١٢، ١٢٤، ١٥٦، ١٩٧، ٢٧٢، ٢٧٣، ٣٤٠، ٤٣٤).

وفيما يتعلق بما عاينه بنفسه، يمكن القول بأن جل ما أورده في كتابه، هو عن مشاهدة مباشرة، وأن ما سكت عن إسناده يندرج تحت هذا الإطار، وقد أكد على ذلك في مواضع كثيرة، مثل قوله «وسآتي بما رأيته منهم معاينة ومشاهدة» (٥١)، و«سائر ما وصلته من أخباره وقصصته من أنبائه وآثاره فبالمشاهدة منى لذلك والمعاينة لأشكالها» (١٧٠)، و«هذه جملة أحوال المدن المشهورة، والمراسي والقرى المعروفة على نحو بحر المغرب من حد برقة إلى البحر المحيط، مما انتهيت إليه وأدركته بالعيان، أو أخذته عمن نثأ فيه»(٨٣).

حين المقارنة بين الدراسة المكتبية والدراسة الميدانية، ترجح كفة الأخيرة، باعتبارها المصدر الأساس الذى اعتمد عليه ابن حوقل. أما الدراسة المكتبية فقد أمكن تحديد مواضع الاستفادة بها، وهى قليلة بالقياس إلى الدراسة الميدانية. وهذا يعنى أن الرحلة كانت المصدر الأول الذى اعتمد عليه ابن حوقل فى تأليف كتابه، ومن ثم يصبح جديرا بالوصف الذى أسبغه عليه «كراموس» فى دائرة المعارف الإسلامية إذ نعته بأنه «رحالة عربى وجغرافى مشهور»[١].

ويبدوا أن ابن حوقل كان معنيا بتدوين كل ما يصل إليه علمه مما يفيد فى موضوعه، منذ بداية خروجه عام ٣٣١، والدليل على ذلك هذا التوثيق الرائع لبداية رحلاته، كما يدل عليه أيضا ذكر أسماء مصادره أو صفاتهم فى أغلب الأحوال، مما يعنى اهتماما بالخبر والمخبر معا. بل إنه كان يسأل مصدره أكثر من مرة عن الخبر الواحد ـ فى أزمنة مختلفة ـ حتى يتأكد من صحته، يقول: «وكنت إذا لقيت الرجل الذى أظنه صادقا، وأخا له بما أسأله عنه خبيرا، فأجد ـ عند إعادة الخبر الذى أعتقد فيه صدقه، وقد حفظت نسقه وتأملت طرقه ووصفه ـ أكثر ذلك

(١) دائرة المعارف الإسلامية ١٤٥/١

باطلا، وأرى الحاكى بأكثر ما حكاه جاهلا، ثم أعاود،
والذكر ليسمع الذى استوصفته، وأطالع معه ما صدر
وأجمع بينهما وبين حكاية ثالث بالعدل والسوية
الحكايات، وكان ذلك داعية إلى ما كنت أحسه فى
وركوب الأخطار ومحبة تصوير المدن»(٣٢٩).

ومما يدل على تدوينه معلوماته أثناء رحلاته ذلك العدد الهائل من أسماء القبائل البربرية التى ذكرها (١٠٤ ـ ١٠٧)، وأسماء أبواب مدينة «بنكث» فى بلاد ما وراء النهر (٥٠٨) وغير ذلك.

وتبعا للمُهْدَى إليه جاء المضمون ملائما، فحينما قدم الكتاب للأمير الحمدانى خلا ـ بالطبع ـ من الهجوم على الحمدانيين، ومن مدح غيرهم. بينما النسخة الأخيرة مكتظة بالهجوم على الحمدانيين (١١٢، ١١٧، ١٨٠، ٢١٣، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٦) والثناء على غيرهم، كما أضاف إليها الكثير مما استجد من أحداث ومعلومات؛ فكثير من التواريخ التى يوردها متأخر عن الفترة التى ألف فيها النسخة الأولى، وهذا يعنى أنه كان يصف وصفا آنيا حيا حسب واقعه المعاصر، ومن ثم يكون الكتاب ممثلا صادقا للعصر الذى عاش فيه.

لقد راعى ابن حوقل الأصول المتعارف عليها فى التأليف لعصره، كما التزم بالأصول التى قامت عليها المدرسة الكلاسيكية؛ فبنى كتابه عليها، باعتبارها هيكلا يحتاج إلى ملء فراغاته، ثم كتب مقدمة الكتاب القصيرة والهامة فى آن»(٦).

وبعد أن جمع مادته وحدد نهجه الذى سيلتزمه، وأخرج كتابه مزودا بالخرائط التقليدية ـ عرضه على الجغرافى المعروف أبى إسحاق الإصطخرى، ثم ـ يقول ابن حوقل ـ «رأيت أن أنفرد بهذا الكتاب وإصلاحه وتصويره أجمعه وإيضاحه ـ من غير أن ألم بتذكرة أبى الفرج، وإن كانت حقا بأجمعها، وصدقا من سائر جهاتها، وقد كان يجب أن أذكر منهاطرفا فى هذا الكتاب، لكنى استقبحت الاستكثار بما تعب فيه سواى، ونصب فيه غيرى»(٣٣٠).

النهج الذى اتبعه ابن حوقل يقتفى ـ فى خطوطه العامة ـ أثر المدرسة

الكلاسيكية العربية، ولكنه يختلف عنه فى طبيعة المعلومات التى أوردها فى المحتوى، إذ يميزه عن سابقيه اتساع نطاق رحلاته الميدانية، مما أتاح له فرصة جمع أكبر قدر صادق من المعلومات، كما أتاح الفرصة لتكوين انطباعات شخصية تجعل لعمله شخصية مميزة، وطابعا خاصا به.

واتساقا مع نهج المدرسة السابقة اقتصر ابن حوقل على وصف «دار «الإسلام»، وقسمها تقسيما طبيعيا إلى عشرين إقليما، متبعا الدستور الذى وضعه لنفسه حين قال: «وقد فصلت بلاد الإسلام إقليما إقليما، وصقعا صقعا، وكورة كورة لكل عمل، وبدأت بذكر ديار العرب فجعلتها إقليما واحدا، لأن الكعبة فيها، ومكة أم القرى ـ وهى واسطة هذه الأقاليم عندى ـ وأتبعت ديار العرب ـ بعد أن رسمت جميع ما تشتمل عليه من الجبال والرمال والطرق، وما يجاورها من الأنهار المنصبة إلى بحر فارس ـ ببحر فارس، لأنه يحتف بأكثر ديارها.. ثم ذكرت المغرب... ثم ذكرت مصر... ثم صورت نهر جيحون»[1] (٥ ـ ٧).

لقد استهل ابن حوقل كتابه بالإهداء، تم بالظروف التى أحاطت ببداية أسفاره، وصولا إلى النهج الذى سيتبعه، ثم شرع يرسم خريطة ـ أو صورة ـ لكل إقليم، ويسير على هداها، واقتضى ذلك أن يبدأ برسم صورة للعالم كله، ثم انتقل إلى تحديد مملكة الإسلام والمعمور والمغمور، والممالك المشهورة فى عصره، ويشبه وصف الممالك المشهورة طراز الفضائل الذى كان سائدا آنذاك.

ولم ينس ابن حوقل أن يصف لمعاصريه أهم الطرق التى يمكن سلوكها، فأفرد للمسافات مكانا فى كل إقليم، وصدر به الحديث عن الإقليم أو ختمه به، متخذا وحدات قياس تناسب كل إقليم، ومحصيا كل ما يمكن حصره من طرق توصل إلى إقليم أو بلد ما (٤٠)، وواصفا الطريق كما سلكه ـ بصورة طبيعية أو مقلوبا (٩٠).

إن ابن حوقل كان متحليا بالروح العلمى الحق، فبدا كتابه متماسكا، واضح المعالم، كما بدت أمانته العلمية فى غير موضع، إضافة إلى تواضعه الشديد فى

---

(١) قارن بمقدمة الإصطخرى فى المسالك والممالك ١٥.

مثل قوله: «ولما كان العلم بكليته بإزاء أبناء البشر بكليتهم، فلن يبلغ الإنسان الواحد منه بجزئيته إلا قدر ما اقتضته سعادته» (١٤٣)، وانظر كذلك (٧، ٦٦، ١٠٧، ١٢٠، ١٥٦، ١٧٠، ٢٤٢، ٢٥٦، ٢٦٥، ٢٧٢، ٢٧٦، ٣٥٥، ٤٠٣، ٤٢٥).

وإذا سلك ابن حوقل مسلكا جديدا يشتم منه رائحة الخلاف مع المدرسة التى ينتمى إليها، أو يحتاج إلى تعليل ـ فإنه لا يتوانى عن تقديم ما يبرر هذا المسلك، فقد علل للبدء بديار العرب (١٨)، ولفصل سيناء عنها (١٩) ولإفراد بحر فارس (٤٣)، وإفراد الأندلس (٦١) بالوصف. كما لم يتوان عن إضافة كل جديد مفيد ـ حتى لو كان خارجا بعض الشيء عن هدفه؛ فقد وصف ديار البجة وصفا جغرافيا، وزاد عليه ما وصل إلى علمه من تاريخه السابق والمعاصر له، وكان ـ بذلك ـ أول عربى يتحدث عنهم بالتفصيل. والشيء نفسه يمكن أن يقال عن البربر الذين توغل فى ديارهم، وتعرف على عاداتهم وتقاليدهم عن كثب، ووصفهم وصفا فريدا متميزا. ولعل وصفه لصقلية يعد من أفضل ما كتب الرحالون والجغرافيون العرب عنها فى ذلك العصر، إنه وصف يمكن الاعتماد عليه فى التعرف على أحوالها، كما نبصر فيه توجها أدبيا خالصا، بحيث يمكن القول دون تردد لو أن ابن حوقل وصف البلاد التى زارها كما وصف صقلية لتحول كتابه إلى كتاب فى «أدب الرحلة» من الطراز الأول.

إن ابن حوقل لم يسلم من بعض الانحياز لإقليمه الأكبر ـ العراق، فبالغ فى مدحه (٢٣٤)، وادعى أنه سيوجز فى وصفه؛ لأنه مشهور معروف (٢٤٧، ٢٦٣)، كما أولى مسقط رأسه ـ نصيبين ـ اهتماما كبيرا، فأرخ لها تأريخا طويلا، وصب جام غضبه على الحمدانيين لتسببهم فى تدهورها، وهو سلوك ليس غريبا على ابن حوقل الذى ما انفك ينعى على الحكام المسلمين تقاعسهم وتخاذلهم أمام أعدائهم، وطغيانهم وتجبرهم على مواطنيهم، وكانت بلدته المثال والنموذج الحى للسلوك الأخير.

لقد حاول ـ فى أغلب الأحيان ـ أن يكون دقيقا، فاعتمد على الإحصاءات

التي تتسم بشيء من المبالغة أحيانا (٢٥، ٥٠، ٥٨، ١٢٠، ٤٠٨)، كما تتبع الظاهرة الواحدة في أكثر من مكان وزمان، كظاهرة اتصال الجبال (٣٥، ١٦٨)، وحرص على الوصف الآني الذى ينسب إلى عصره (٣١، ٦٨، ٧٠، ١٠٤، ١٧٦، ٢٣٠، ٢٨٩، ٣٣٧، ٣٥٤, ٣٨٢، ٨٦٤، ٤٦٩، ٤٩٢)، بل إن ناسخ المخطوطة التي اعتمد عليها المحقق علق على ما أورده ابن حوقل واصفا الحال في عصره، في أكثر من عشرين موضعا، وقد أضاف المحقق هذه التعليقات بخط صغير مميز.

وموقفه من العجائب والغرائب علمي، فقد نزه كتابه عن ذكر مالا يعقل، فاليمن «يحكى عن الغيلان بها من الأعجوبة مالا أستحسن حكايته، لأن المنكر لما لا يعلم أعذر من المقر بما يجهل» (٣٩). وحاول ـ كذلك ـ أن يتأكد من صحة ما يروى له؛ فقد سمع عن سمكة «العروس» حكاية غريبة، و«رأيتها أنا وجماعة من ذوى التحصيل فشهدوا بكذب هذه الحكاية»(١٥٧)، وهو مالم يفعله غيره ممن رووا الحكاية نفسها [١].

ويحسب له أيضا أنه ناقش المعتقدات الجغرافية المستقرة في عصره مناقشة علمية، وانتهى إلى نقدها؛ مثل أن الأرض مصورة بصورة طائر (٢٠٩)، وأن الدنيا مسيرة خمسمائة عام (٥٢٧)، وأن الأقاليم سبعة [٢]. إن هذا التوجه العلمى الراشد لقى كل تقدير من قبل صاحب «معجم البلدان» فاستشهد بآرائه في أكثر من عشرين موضعا، مع تعليقات توحي بالثقة فيما يروى. كما أعجب إعجابا شديدا بالفصل الخاص بصقلية، فنقله، وصدر له بقوله: «وقد [illegible] لابن حوقل التاجر فصلا في صفة صقلية ذكرته على وجهه، ففيه مستمتع [illegible] في هذا الكتاب»[٢]، ويبدو أنه نقل عن نص مختصر للكتاب.

---

(١) مروج الذهب ٣٥٦/١، المسالك والممالك للإصطخرى، ٤١، وأحسن التقاسيم ٢٠٨ والإفادة والاعتبار للبغدادى ط بيروت ٤٣.

(٢) معجم البلدان ٤١٨/٣، وانظر كذلك ١/ ١٠، ١/ ١٤٤، ١/ ١٦٢، ١/ ١٧٠، ١/ ١٩٥. ١/ ١٩٨، ١/ ٢٢٥، ٢٣٧/١، ٢/ ٢٦٣، ١/ ٢٧٧، ١/ ٢٧٣، ٤٤٣/١، ١/ ٣٦٨، ١/ ٣٦٩، ١/ ٤٤٠، ١/ ٤٨٣، ٢/ ٢٣٩، ٤/ ٤٣، ٤/ ٣٢٤، ٤/ ٣٤٨، ٤/ ٣٩٢، ٤/ ٤٤٥.

ابن حوقل تاجر فى الأساس، وهو مع ذلك ينحو نحو العلماء تارة، والأدباء تارة أخرى. وقد انعكس هذا التوجه على كتابه، فظهر اهتمامه بالنواحى التجارية والاقتصادية جليا، كما ظهر توجهه العلمى بوضوح حين بنى كتابه على أسس محكمة، وحين قصد ـ فى أغلب الأحيان ـ إلى الهدف التعليمى مباشرة، ناصا على الإيجاز من أجل الإفادة السريعة للقارىء (٢٩٤/٤، ٢٩٥، ٣٤٦، ٤٥٣)، ومعرضا عن الميل للتأنق الشكلى ـ الذى كان سائدا فى عصره، أو حتى للحديث عن شخصه وتجاربه الذاتية التى ـ وإن لم نعدمها فى الكتاب ـ لا تتوازن مع التوجه الموضوعى العلمى السائد فيه.

يمكن القول: إن خصائص النثر العلمى تتوفر فيما كتب ابن حوقل، ولكن هذا لا يعنى أن كتابه خلو من كل تأنق، فثمة مواضع يحرص فيها على السجع ـ الذى يكون مقبولا حينا، وممجوجا أحيانا أخرى ـ خاصة عندما يبالغ فى مدح الفاطميين، إذ تجتمع مبالغتان: مبالغة لفظية ومبالغة معنوية. ولكن هذه المواضع السجعية قليلة على أى حال (انظر ٢٧، ٧٢،٧١، ٩٩، ١٢١، ١٤٦، ٢٠٥، ٢١٢، ٢١٦، ٢٢٥، ٤٩٢).

إن ابن حوقل قلما ينفعل، ولكنه فى تلك المواقف ينتج وصفا أدبيا رائعا، والمثل البارز على هذا فصله الرائع عن صقلية وأهلها (١١٨ ـ ١٣١)، وما كتبه عن أهل «ما وراء النهر» وجمال بلادهم (٤٦٤، ٤٦٥، ٤٧٢). وفى مواضع بعينها يحاول إضفاء الطابع الأدبى بالاستشهاد بشعر مقحم فى أغلب الأحيان، وتكاد تكون النماذج التى يوردها مكررة فى كل كتب الأدب الجغرافى العربى السابقة عليه (٢٨، ١٥١، ١٩٨، ٢٢٠، ٢٣٤، ٤٣١). كما يستشهد بالقرآن الكريم فى بضع عشرة حالة، وبالحديث الشريف فى أربعة مواضع.

أما عادته، فهى: أن يصف الأماكن وصفا خارجيا محايدا، لا يسبغ عليه من نفسه، مع التركيز دوما على الأماكن دون ساكنيها، وإذا ركز على السكان فإن حديثه عنهم يكتسى طابعا عاما دون تخصيص، كأن يتحدث عن خصائصهم اللغوية (١٤، ٢٨٩، ٣٧٦، ٣٤٧، ٣٩٣، ٤٨١).

وفي المواضع النادرة التي ذكر فيها أشخاصا بعينهم في سياق حكايات يزودنا بإشارات عديدة يمكن على أساسها تكوين انطباع عن شخصيته، كحكاية المليونير السيرافي (٢٩٠) وحكاية مجلس المناظرة الذى عقد لإجباره على قبول ضيافة أهل بلدة له (٣٤٠)، وما كتبه عن الصقليين وغبائهم، وعن معلميهم وحمقهم. يضاف إلى ذلك ذكره لأسماء أشخاص بعينهم في معرض المدح أو الذم و«منهم جابر المنوفى ـ لارضى الله عنه»(١٣٨)، وأحد كرام فارس (٢٩٣) والتاجر الذى كان يبيع مليون شاة في اليوم (٣٥٢)، أو لصفاتهم، فقد «رأيت حمالا ـ في خوزستان ـ عبر وعلى رأسه وقرتقيل ـ أو على ظهره ـ وهو يساير حمالا آخر على حاله، وهما يتنازعان في التأويل وحقائق الكلام غير مكترثين بما عليهما في جنب ما خطر لهما»(٢٥٥).

لأن ابن حوقل يكتب في موضوع علمي، فقد استخدم المصطلحات المناسبة له، ويلاحظ استخدامه لمصطلحى «الصرود والجروم» بكثرة (٨٧)، وميله ـ في بعض الأحيان ـ إلى تفسير مصطلحاته أو الأسماء الأعجمية التي يوردها (١٧٣، ٢٧٨، ٢٧٩، ٣٢٢، ٤٣٥، ٤٤٨)، كما يلاحظ استخدامه لمصطلحات معينة بمعنى خاص به مثل: أبواب المال التي تعني مصادر الدخل (٣٠١) أو مصاقبة بمعنى مجاورة (٧٣)، أو تخطف بمعنى تقلع (٤٢).

والظاهرة اللافتة أنه كثيراً ما يجر ضمير الغائب بحرف الجر: الكاف مثل: كهو ـ كهي ـ كهما (٦٧، ٧٤، ١٣٥، ٢٢٩، ٢٤٤، ٣٦٩، ٤٥١، ٤٧٧، ٤٨٩).
كما يستخدم «كان» بإسراف شديد، خاصة كان الزائدة، مما يسبب اضطرابا في الجملة (٢٧، ٤١، ٥٩، ١٦٥، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢٩٥، ٣٤٣، ٣٦٠). يضاف إلى ذلك أن الجملة تفقد سلاستها في مواضع كثيرة، ويصبح فهمها صعبا إلا بعد إعادة ترتيبها، أو حذف لفظة زائدة دخلتها. وقد يعود ذلك إلى الناسخ أو المحقق، أو إلى ابن حوقل نفسه (٤٠، ٢٥).

رغم دلك فإن لغة كتاب ابن حوقل مميزة ـ إذا قورنت بغيرها ـ حسبما يرى «آدم متز» فقد «جاءت كتب المقدسي وابن حوقل في القرن الرابع الهجري،

فكانت هى الذروة التى بلغها العرب فى وصف البلدان، وكلاهما قد سافر حتى دوخ الممالك، وحمله تيار الأسفار، واستهوته حياة الارتحال والسياحة على طريقة المسلمين... وكلاهما قد انتهت إليه اللغة أكثر انصقالا ودقة، وأسلس قيادا مما وجدها المؤلفون المتقدمون، وقد استعملاها استعمال من يملك ناصيتها، وإن كان ابن حوقل - فى ذلك - أقل إظهارا لتكلف الجمال والطرافة من المقدسى»[1].

-٧-

حين يجمع الباحثون - من عرب ومستعربين - على أن عملا بعينه مميز، فإن إجماعهم يكتسى أهمية بالغة.

وحين يؤيد البحث العلمى الموضوعى ذلك الإجماع، فإن هذا العمل يصبح أكثر قيمة وأدعى للاحترام.

من الأعمال القليلة التى نالت هذا الشرف كتاب «أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم «للمقدسى» لقد نال - ومازال ينال - إعجاب وتقدير كل من تعاملوا معه، نظرا لما تميز به من جدة وطرافة.

المتسعرب «اشبر نجر» يرى فى المقدسى «أكبر جغرافى عرفته البشرية قاطبة» ويراه المستعرب الهولندى «كرامرس» أكثر الجغرافيين العرب أصالة، ويرى فى المصنف واحدا من أكثر المصنفات الجغرافية فى الأدب العربى قيمة»[2].

ولا يملك الروسى «كراتشكوفسكى» إلا الاعتراف له «بالأصالة والطرافة وقوة الملاحظة» ، ويعتبره «جغرافيا عظيما، وواحداً من كبار الكتاب العرب قاطبة»[3].

و«لى سترنج» يعد «كتابه أعظم من كل ما صنعه البلدانيون العرب، وأكثرها أصالة»[4] وهو عند د/ شوقى ضيف «طرفة حقيقة» [5] وشريط سينمائى، يعرض

---

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ٢/ ١٠ - ١٢.
(٢) تاريخ الأدب الجغرافى العربى. كراتشكوفكسى ١/ ٢٠٨
(٣) السابق ٢١٥
(٤) بلدان الخلافة الشرقية ٢٨
(٥) الرحلات د. شوقى صيف ١٦.

علينا سكان العالم بكل خصائصهم وصفاتهم. والكتاب ـ أخيرا ـ «نموذج للكتاب العلمى المرتب المنظم المبوب المقسم»[1] والرأى للدكتور نقولا زيادة.

بيد أن هذا الإطراء لم يخل من بعض غمز، باعتبار أن شخصية المقدسى الحاضرة فى كتابه حضورا ملحوظا ـ بل غاليا ـ تنم عن عجب شديد، وهذه ملاحظة صحيحة، غير أن أصحابها لم يجنحوا للمبالغة فيها، حتى لا يتهموا بالتحامل، وللحق: إن شخصية المقدسى ممثلة تمثيلا جيدا فى كتابه، ولا يستطيع قارىء المضى فى أنحاء الكتاب إلا إذا لاحظ إلحاح المقدسى السافر على أن يظهر نفسه شخصية فريدة مميزة؛ إن بالتصريح وإن بالتلميح. وهو ما أغضب ناسخ إحدى مخطوطاته، فتدخل ثلاث مرات ليسبه سبا قبيحا. وربما كان هذا الحضور الدائم سببا فى انعدام أية إشارة لحياة المقدسى فى كتب التراجم المعاصرة والتالية له، اكتفاء بالمعلومات التى أوردها عن نفسه، أو لأن إنتاجه العلمى المعروف لم يتعد كتابه هذا. وهذه ظاهرة يشترك فيها معظم الرحالة الجغرافيين السابقين والتالين للمقدسى.

إن الباحث حين يعتمد على الكتاب فى التعرف على مسيرة حياته، سيجد فيه الكفاية، وسيصادف إشارات غزيرة عنها، منها صريح الدلالة، ومنها خفيها.

على سبيل المثال: لم يصرح المقدسى ـ أو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر البناء الشامى المقدسى البشارى ـ بالعام الذى ولد فيه، ولكن ذكر أنه ألف كتابه عام ٣٧٥هـ= ٩٨٥م، بعد أن بلغ سن الأربعين، ومن ثم يكون مولده عام ٣٣٥هـ = ٩٤٦م، وللتحقق من صحة هذا الفرض نذكر أن المقدسى أشار إلى أنه أقام فى بيت المقدس عشرين عاما قبل رحيله، ثم تصادفنا أول إشارة زمنية إبان حجه عام ٣٥٦هـ= ٩٦٦م، فيكون مولده فى العام السابق نفسه، أو قريبا منه جدا.

وعليه، يصبح مؤكدا أنه قضى عشرين عاما راحلا، قبل أن يضع المسودة الأولى لكتابه ـ تلك التى أهداها للأمير السامانى حينئذ ـ وقضى ثلاثة وعشرين عاما قبل

---

(١) الجغرافيا والرحلات عند العرب د/ نقولا زيادة ٥٠

أن يهدى المسودة الثانية للخليفة الفاطمى، والجدير بالذكر هنا أنه أجرى تعديلات عديدة على المسودة الثانية، مضيفا ومعدلا وحاذفا فى المضمون، معيدا صياغة عباراته فى مواضع عديدة، مراعيا - فى ذلك كله - أن الكتاب مهدى للخليفة الفاطمى.

ولد المقدسى فى بيت المقدس لأب مقدسى، وأم ذات أصول فارسية، وكان لهذا الاختلاط العرقى أثره فى توجهاته.

عائلة الأب كانت مشهورة بالعمل فى مجال البناء، ويروى المقدسى بكثير من الفخر بعض إنجازات جده، كما تدل أسئلته المتوالية لعمه فى هذا المجال على أنه كانت منتسبا إليه. وإشارة وحيدة إلى والده تدعم هذا الرأى. كما أن ميول المقدسى اتضحت جلية حين كان يناقش بنائى الأماكن التى يزورها فى مسائل فنية.

ويبدو أن مجال البناء كان العامل المشترك الذى جمع أباه وأمه، فقد كانت الأم من عائلة مشهورة بالعمل فى هذا المجال أيضا، ولم تكن هذه العائلة مقدسية الأصل، بل كانت من بلدة بيار التابعة لقومس فى إقليم الديلم كما يسميه.

ثمة مواضع كثيرة يذكر فيها خاله عبد الله الشوا، وجده أبا الطيب الشوا، كما يطنب فى وصف بيار وأهلها - حيث مكث أربعة أشهر - معللا هذا الإطناب بأن أخواله منها، وأن كل قومسى تراه ببيت المقدس فهو منها. ويتلقى المقدسى تعليمه المعتاد، ويؤثر التخصص فى الفقه، ليكون القاضى أبو الحسين القزوينى أول إمام - أو شيخ - يتلقى العلم على يديه، مدعيا أنه إنما يناظر على طريقته، ناصا على بعض آرائه واجتهاداته فى أربعة مواضع. ولما كان المقدسى رجلا قد أراد التفقه - على حد قوله - فقد فتش فى المذاهب السائدة آنذاك، وبعد طول نظر، قرر أن يتفقه للمذهب الحنفى، وأن يقرأ لعبد الله بن عامر. وقد كان لهذا التوجه أثره الخطير فى تحديد مسار حياة المقدسى، كما ظهر هذا الأثر جليا فى كتابه.

إن المقدسى كفانا مئونة وصف شخصيته، إذ أورد فى غير موضع آراء معاصريه فيه، وهذه الآراء - جميعا - ترسم صورة مثالية، وتصوره عالما خبيرا مجتهدا، وقد كان الأفضل حذفها، ولكن الشعور بتضخم الذات أبى عليه إلا أن يتركها، بل زاد ما يعتقد فى نفسه عليها.

أحد معاصريه يقول له: «لقد دققت النظر يا مقدسى، واحتطت لنفسك»[1]، وآخر يقول: «لله درك يا أبا عبد الله، ما أحسن ما أتيت به!» (١٤٣)، وآخرون تعجبوا من أقواله، وكان حكمهم: «أنت رجل محصل» (١٦٦)، وقد يقول قائل - على حد زعمه - «أنت رجل قد عملت فى السياحة بيقين وعلم»(٢٥٥)، وعندما وصل إلى أحد الحصون «إذا تم رجل من بيت المقدس، فعانقنى، ورحب بى، وجعل يذكر لأهل الحصن محلى»،(٢٥٦)، وذات مرة قال له رجل: (أراك رجلا على طريقة حسنة، تحب الخير وأهله، وترغب فى جمع العلوم»(٩٧) وهو فى تقدير أهل الديلم عالم كبير، فهم «يسمون العالم معلما وربما تعلقوا بى، وقالوا: لوك معلم، واللوك، هو الجيد»(٣٦٩)، وهو محب لأهل النسك، مائل إلى أهل الزهد. ومن الممكن قبول هذه الآراء - مع الشك فى صدقها، ولكن مالا يقبل ذلك الذى ورد على لسانه مباشرة، بهدف تمجيد ذاته، حتى أنه جعل تأليف كتابه هدفا شخصيا ضيقا «حتى لا تدرس آثاره، وتنقطع أخباره»، يقول - دون مواربة - «فأردت أن أقيم علما أحيى به ذكرى»(٢) «بعدما رغبت نفسى فى الأجر، وطمعتها فى حسن الذكر»(٣).

على الجملة: المقدسى رجل عدل - بمصطلح أهل الحديث، ففى أقاليم المغرب «الستة لا يشهد إلا معدل، وحضرنا يوما إملاكا، فأمرنى أبو الطيب حمدان أن أكتب شهادتى، فهنيت بذلك» (٢٣٨).

ولعل القطعة التى يذكر فيها ما عاناه أثناء رحلاته تعد من أروع ما سطر قلم المقدسى، سواء من حيث طرافتها، أو تعبيرها عن شخص المقدسى، ولذلك فقد ترجمت مفردة إلى اللغات: الهولندية والألمانية والإيطالية والروسية والفرنسية والإنجليزية بين عامى ١٨٧٥، ١٩٤٦ وهى تحت عنوان: «ذكر ما عاينت من الأسباب»[2]

يعد التعريف بماهية العلم موضوع التأليف مدخلا طبيعيا للمؤلف وهو من

---

(١) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم المقدسى تحقيق دى حويه ليدن ط ١٩٦٧ - ص ١٢٧ ويلاحظ أن رقم الصفحة سيصبح فى المتن - من الآن فصاعدا - بين قوسين

(٢) أحسن التقاسيم ٤٣ - ٤٥.

الأهمية بحيث يحكم نظرة المؤلف، ويتحكم فى توجهاته، كما أنه بمثابة الأساس الذى يورث العمل قوة أو ضعفا حسب طبيعته.

والمقدسى بنظـرته الشاملة الكلية لم تفته هذه الملاحظة، فكان همه فى مواضع كثيرة أن يبين ماهية هذا العلم الذى يكتب فيه ـ وإن شاب نظرته شيء كثير من الغرور والفخر، معتقدا فى كتابه ـ وفى نفسه ـ السبق والابتكار، وانعدام النظير. يحدد المقدسى الاسم الدقيق للعلم الذى يكتب فيه بأنه علم ـ أو فن ـ «ذكر الممالك ـ أو الأقاليم ـ الإسلامية وما فيها» أى علم وصفها على ماهى عليه. وهو حين يطبق هذا المفهوم، تصادفه عقبات متنوعة، فيضطر إلى استخدام رأيه، حتى يستقيم له ما يبتغيه، ولكنه ينبه على أن تلك التقسيمات التى يبتكرها تقوم بوظيفة محددة، تتفق مع مفهوم أبى زيد البلخى الذى يعده المقدسى إمامه، ويعجب أيما إعجاب بقوله: «ليس فى جمع هذه الأطراف بعضها إلى بعض ـ ولا فى تفريقها ـ كبير درك، غير الإبانة عما فى أعراضها من المدن والأنهار، وسهولة العبارة فى التفصيل والصور»، ثم يعلق عليه قائلا: «ولعمرى، لقد صدق، ليس فيه إبطال حق ولا إثبات، ألم تعلم أن صدور الأمة قد رأوا آراء، وقدموا وأخروا، وورثوا، وأحلوا وحرموا وجوزوا وأبطلوا، وتلقاه الناس بالقبول، وسكنت إليه قلوبهم، ولم ينكر هذا عليم عاقل، بل أمر به النبى (ﷺ) معاذا لما بعثه إلى اليمن، وعمل به الصحابة؟ فلا عجب أن نرى نحن أيضا فى هذا العلم آراء، ويكون لنا فيه قياس واختيار»(٢٧٠).

ثم يتوجه إلى قارئه، قائلا. «اعلم أنى إنما ذكرت ما عهدت الأمر عليه فى وقتى، وقد تتغير الأمور، ألا ترى أنى اجتزت بمدينة «سرخس» سنة ٣٧٤، فرأيت رئيسهم مخلطا، وخطيبهم سخنة عين؟! وربما سهونا عن ذكر مدن وصفتها، وهى مشهورة، وقد دخلناها فلا يلمنا من كان منها؛ فإن الخطأ والنسيان من شأن الإنسان. وأيضا فلا يستوحش امرؤ ذكرنا عيوب بلده؛ فإنها لا يزيد بذلك ثلبها، كما لا يزيد بذكر محاسنها مدحها، ولكن هذا علم موضوع على الأمانة والصدق، وذكر الخير والشر»(٦٥). وعلى ذلك، فإن غرضه ـ فيما يرى ـ البيان

والإيضاح ـ لا الترتيب، وليس لأحد أن يأخذ علينا فيه الترتيب إلا فى الكور؛ فإنا قد اجتهدنا فى ترتيبها، حتى لا يجد أحد علينا فى ذلك طريقا؛ إلا أن يكون مغفلا»(٢٨٩ ـ ٢٩٠). ولا يرى مناصا من تذكير القارىء أنه لم يودع كتابه ما كان مجازا أو محالا. (٣) هذا هو الجانب الموضوعى من الكتاب، وهو يندرج تحت إطار «الجغرافيا الوصفية» بكل مالها من الخصائص.

ولكن: هل المقدسى صاحب الذات المتضخمة يرضى أن يقتصر على هذا الجانب فقط؟ وأن يكون كتابه مجرد عمل يمكن أن يوضع اسم أى شخص على غلافه؟ إن المتتبع لشخص المقدسى فى كتابه سيدرك على الفور رفضه لهذا النهج، وإصراره على أن يحشر أنفه فى كل صفحات كتابه إن استطاع، وبهذا الإصرار يتحول عمل المقدسى إلى كتاب فى «الأدب الجغرافى»، بدلا من أن يكون كتابا فى «الجغرافيا الوصفية» فحسب. وسبب ذلك تلك المحاولات الدائبة للموازنة بين الذات والموضوع.

إن التدخل الدائم، وفرض الذات، يمثلان التطبيق العملى لهذا التوجه، وهناك نصوص تظهر نوايا المقدسى جلية؛ إنه يعترف بذلك حين يقول: «وقد أودعنا شيئا من الغوامض؛ ليجل ويقل، وأوردنا فيه الحجج توثقا، والحكايات تحققا، والسجع تظرفا، والأخبار تبركا وبسطنا أكثره، ليقف عليه العوام إذا تأملوه، ورتبناه على طرق الفقه، ليجل عند العلماء إذا تدبروه، وذكرنا الاختلافات تبحرا، والنكت تحرزا، وطولناه بوصف المدن لمعان شتى، وذكرنا التثنون لفوائد لا تخفى»(٨).

ولا يعنى ذلك كله ـ فيما يرى ـ خروجا عن خطته المرسومة ونهجه القويم ـ كما حدث مع ابن الفقيه ـ بل ـ يقول المقدسى ـ «أوردت ـ حكايات ومناظرات لائقة بما نحن فيه، غير مشغلة عن الموضع الذى نذكره، وربما سجعت فى مواضع ليتفرج إليها عوام الناس؛ لأن الأدباء يختارون النثر على النظم، والعوام يحبون القوافى والسجع»(٥).

ولأن كتاب المقدسى ذو ميزة فريدة، إذ يعد من يذكر فيه جليلا، فلا غرابة أن يقتصر على ذكر الفقهاء والكبراء فقط، وأن ينزهه عن أن يذكر فيه أحد العامة أو

السوقة.. أيا كان الأمر، فإن انتباه المقدسي إلى ضرورة الوصف الآنى الواقعى الذاتى يجذب كتابه إلى محيط الأدب، وإن ظل محتفظا بسمته الأساسية، وهي أنه كتاب في «الجغرافيا» وفي هذه الأخيرة يبلغ الكتاب حدا من الثراء والتنوع جعل أحد كبار العارفين بالجغرافيا العربية يقر بأن المقدسي «أوشك أن يتناول معظم وجوه الجغرافيا في كتابه»[1]. وقد أعلن المقدسي نفسه«أن العلم في هذا الباب عندنا أوسع من أن نكرره، أو ننقله من كتاب، أو نسرقه ـ إلا أن يضيق بنا الأمر، أو تلحقنا ضرورة»(٦).

يعود سبب تأليف المقدسي لهذا الكتاب إلى دافعين:

(أ) دافع ذاتي.

(ب) دافع موضوعي.

أما الدافع الذاتي فتمثله رغبته في أن يترك أثرا يحيى به ذكره، ويرضى به ربه. وأما الدافع الموضوعي فكان رغبته في أن يسد نقصا في المكتبة العربية آنذاك. ويبالغ المقدسي في تقدير مدى النقص في هذا الفرع؛ فيذكر أن السابقين عليه صنفوا في هذا العلم على الإخلال، وأنه سينفرد بذكره تاما؛ ومن ثم فإنك «إذا نظرت في كتابنا وجدته نسيج وحده، يتيما في نظمه، ولو وجدنا رخصة في ترك جمع هذا الأصل ما اشتغلنا به، ولكن لما بلغنا الله تعالى أقاصي الإسلام، وأرانا أسبابه، وألهمنا قسمته، وجب أن ننهي ذلك إلى كافة المسلمين... وفيما نذكر عبرة لمن اعتبر وفوائد لمن سافر»(٢٤١)، كما أنه «باب لابد منه للمسافرين والتجار ولا غنى عنه للصالحين والأخيار»(٢). وفي عدة مواضع يؤكد المقدسي أن فكرة وضع الكتاب هي نتاج ضغط متوال عليه من معاصريه، اعترافا منهم له بالعلم والمعرفة في هذا الفن.

ويبدو أن تراكم رصيد معرفي هائل في هذا المجال، هو الذى دفع المقدسي دفعا إلى الكتابة في هذا العلم؛ فالحصاد نتاج عشرين عاما من التجوال والبحث

---

(١) كتب دائرة المعارف الإسلامية (٩) كرامرس ترجمة «لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية». بيروت ١٩٨٢ ص ٨٥

والتنقيب والاستفسار، كما أن الساحة الثقافية كانت فى حاجة إلى مزيد من الإسهامات فى هذا المجال.

بعد أن فرغ المقدسى من تأليف الكتاب، قام بتتبع العادات والتقاليد العلمية السائدة فى عصره، وتوصل إلى أن العلماء على قسمين:

١ ـ الأول منهما يعقد لنفسه مجلس علم، فإذا عرف وشهر، صنف الكتب، فيتلقاها الناس بالقبول.

٢ ـ والثانى ينسب كتابه إلى أمير جليل أو صدر نبيل، ليشرف تصنيفه ويعلو قدره. وقد اختار المقدسى أن يندرج فى سلك القسم الثانى؛ فاختار أمير السامانيين ليهدى إليه كتابه فى المرة الأولى، ثم اختار الخليفة الفاطمى فى المرة الثانية ليهديه الكتاب، وحينئذ أجرى عدة تعديلات لتناسب سيده الجديد.

الخلاصة أن المقدسى هدف إلى الفائدة المزدوجة، لنفسه ولمعاصريه، وبذلك كان كتابه معلما أو دليلا، كما هدف إلى إمتاع قارئيه بطريقته الخاصة، فكان كتابه معلما وممتعا فى آن.

* * *

الجغرافيا علم عملى، يعتمد الدراسة الميدانية الواعية منهجا، ويطمئن إلى نتائجها.

وهذه الدراسة الميدانية لها عدة مراحل:

١ ـ الدراسة التمهيدية، أو ما يمكن أن يسمى «الدراسة المكتبية».

٢ ـ الدراسة الأساسية، أو ما يطلق عليه «الدراسة الميدانية».

٣ ـ الدراسة التكميلية ووظيفتها ـ: استكمال ناقص ـ أو تجلية غامض ـ الدراسة الأساسية، ثم تنظيم وتبويب معطيات الدراسة الميدانية وعرضها على نتائج الدراسة المكتبية؛ وصولا إلى نتيجة معتمدة فيما يتعلق بمجال الدراسة.

أولا : الدراسة المكتبية :

وفى هذه المرحلة يجمع الجغرافى كل ماكتب عن المنطقة المستهدفة، ثم يعكف على دراسته. ليحرج بعدة نتائج تفيد فى تحديد خطة الدراسة الأساسية.

هذه النتائج ستؤدى إلى معرفة مدى العناية والعلم بهذه المنطقة، ليظهر أن ثمة جوانب قد استوفيت، وأن أخرى لم تستوف، وأن ثالثة مازالت بكرا، ورابعة تحتاج إلى مزيد من إيضاح.

المنطقة المستهدفة عند المقدسى تتمثل فى المملكة الإسلامية كلها، ولذلك فقد جمع المقدسى كل ماتيسر له من مصادر تتناولها، ثم قام بقراءاتها قراءة فاحصة، ونقدها، ليتوصل إلى نتيجة مؤداها: أن المنطقة - ككل- لم تدرس دراسة شافية، وأن بعض أجزائها قد نال حقه من الدراسة، ومن ثم فهو يعتمد على الوصف الجيد الجزئى لمناطق بعينها لم يزرها، أما الوصف العام فيعتمد فيه على الدراسة الميدانية العملية الشخصية.

فيما يتعلق بالمصادر التى تعرضت للممالك الإسلامية. يُلاحظ أمران:

١- أنه تعرض لأصحابها بالنقد الشديد، الذى يصل أحيانا إلى درجة التجنى، ممهدا بذلك الطريق لكتابه لكى يتبوأ مكانة رفيعة بينها.

٢ - رغم زعمه الإحاطة بالمصادر السابقة عليه، فقد فاتته مصادر هامة للغاية فى مجال عمله، منها- على سبيل المثال لا الحصر -ما كتبه اليعقوبى، وابن رسته، والهمدانى. والمسعودى وابن فضلان، وأبودلف، وأخيرا ابن حوقل، أما من ذكرهم المقدسى فلم يدع أحدهم دون أن يوجه إليه انتقادا، حتى من ادعى أنهم أئمته، وفيما يلى تفصيل لأهم مآخذه عليهم:

١ - ابن خرداذبه:

أخذ عليه أن كتابه- وكتاب الجاحظ أيضا- مختصر، لايحصل منه كثير فائدة، ولكنه اعتبره إماما فى هذا العلم (٦٨)، واعتمد عليه فى بعض المعلومات عن الأندلس، وخراج اليمن وقنسرين، وقصة سد يأجوج ومأجوج، كما بين أن الجيهانى سرق مصنفه، وبذلك ورد ذكر ابن خرداذبه -صراحة- ثمانى مرات.

٢ – أبوزيد البلخي:

ادعى المقدسي أنه إمامه في هذا العلم، ولكنه أخذ عليه أنه «قصد بكتابة الأمثلة وصورة الأرض، بعدما قسمها على عشرين جزءا ثم شرح كل مثال واختصر، ولم يذكر الأسباب المفيدة، ولا أوضح الأمور النافعة في التفصيل والترتيب، وترك كثيرا من أمهات المدن فلم يذكرها، وما دوخ البلدان، ولا وطىء الأعمال، ألا ترى أن صاحب خراسان استدعاه إلى حضرته، ليستعين به، فلما بلغ جيحون كتب إليه: إن كنت استدعيتني لما بلغك من صائب رأيي، فإن رأيي يمنعني عبور هذا النهر، فلما قرأ كتابه أمره بالخروج إلى بلخ»(٤) .

وقد ورد ذكر أبي زيد صراحة خمس عشرة مرة، تعرض في أربع منها للنقد، وفي ثلاث للمدح باعتباره إماما في هذا العلم، ومرتين للمدح باعتباره أو في على الغاية في وصف مناطق بعينها، ومرتين يذكر فيهما مفهومه لهذا العلم، وأربع مرات ذكر فيها بعض آرائه.

٣ – الجيهاني :

أخذ عليه «أنه كان صاحب فلسفة ونجوم وهيئة، فجمع الغرباء، وسألهم عن الممالك ودخلها، وكيف المسالك إليها، وارتفاع الخنس منها، وقيام الظل فيها، ليتوصل بذلك إلى فتوح البلدان، ويعرف دخلها، ويستقيم له علم النجوم ودوران الفلك، ألا ترى كيف جعل العالم سبعة أقاليم، وجعل لكل إقليم كوكبا: مرة يذكر النجوم والهندسة، وكرة يورد ماليس للعوام فيه فائدة، وتارة ينعت أصنام الهند، وطورا يصف عجائب السند، وحينا يفصل الخراج والرد، ورأيته ذكر منازل مهجورة، ولم يفصل الكور ولا رتب الأجناد، ولا وصف المدن ولا استوعب ذكرها، بل ذكر الطرق شرقا وغربا، وشمالا وجنوبا، مع شرح مافيها من السهول والجبال والأودية والتلال والمشاجر والأنهار ، وبداك طال كتابه، وغفل عن أكثر طرق الأجناد، ووصف المدائن الجياد»(٣) ، وفي موضع آخر يتهمه بسرقة أصل كتاب ابن خرداذبه (٤١)، ومع ذلك يعده، إماما في هذا العلم (٦٨) ويأخذ برأيه في عدة مواضع.

٤ - ابن الفقيــه :

يأخذ عليه المقدسى أنه سلك «طريقة أخرى، ولم يذكر إلا المدائن العظمى، ولم يرتب الكور والأجناد، وأدخل فى كتابه مالا يليق به من العلوم: مرة يزهد فى الدنيا، وتارة يرغب فيها، ودفعة يبكى وحينا يضحك ويلهى»(٤) ويزعم أنه رأى كتابه- الأصلى- فى خمسة مجلدات(٥) ، ويأخذ عليه وعلى أبى نصر ذلك الخروج الدائم عن الموضوع رغم أنهما «قد احتجا بأنا إنما أدخلنا خلال كتبنا ما أدخلنا ليتفرج فيها الناظر إذا مل، وربما كنت أنظر فى كتاب ابن الفقيه، فأقع فى حكايات وفنون، أنشأها أين كنت من البلدان، ولم أستحسن أنا هذا»(٥) .

ويزعم المقدسى أنك: «إذا نظرت فى كتاب ابن الفقيه، فكأنما أنت ناظر فى كتاب الجاحظ والزيج الأعظم» (٢٤١) .

ومع هذا النقد اللاذع، فإنه يعده إماما فى هذا العلم (٦٨)، ويستأنس برأيه فى ثلاثة مواضع.

٥ - الإصطخرى :

ويفصل - بصدده - فى شأن نسبة الكتاب إليه، فيصل إلى أنه له، لا لأبى زيد البلخى، وهو «كتاب قد أجاد أشكاله، إلا أنه قد خلط فى مواضع كثيرة، ولم يبالغ فى الشرح، ولا كور الأقاليم»(١) ، كما يستدرك عليه فى موضع آخر (٧٨)، ويعتمده مصدرا أساسيا فى حديثه عن إقليم السند، بحيث يمكن عد هذا الجزء منقولا عن الإصطخرى.

وهذه الانتقادات الخاصة صحبتها انتقادات عامة لسابقيه، غير أنها لاتمنع كونه قد أفاد من هذه المصادر كثيرا.

وهناك مصادر أخرى أفاد منها المقدسى: كالقرآن الكريم، والحديث الشريف، وبعض الآثار عن الصحابة، والأخبار عن التابعين، وكذلك الشعر، فيورد أربعة وعشرين بيتا فى مواضع مختلفة (٩٩- ١٦٠- ٣٣٢- ٣٨٥- ٣٩١- ٣٩٢-

٤٥٠)، كما يورد قصيدة من إنشائه فى ختام الكتاب قوامها اثنان وعشرون بيتا.

وثمة كتب من مصادره تصدر بلفظ أخبار، فهناك كتاب «أخبار البصرة»، (٢٣- ٢٥)، و «أخبار المدينة» (٨٢)، إضافة إلى مصادر أخرى عديدة، مثل: كتاب خزانة عضد الدولة والصاحب (٥- ١٣٣- ٢٥٩- ٢٥٨- ٢٩٤- ٤٤٨)، وخزانة بعض الخلفاء (١٢١)، وبعض الكتب (١٦٠)، وكتاب الطلسمات (٢١١)، وكتاب الدعائم (٢٣٨)، والشمشاطى فى تاريخه (١٢٠)، والبلاذرى (٣١١).

ثانيا : الدراسة الميدانية:

وهذا المجال مبعث فخر المقدسى، إذ يزعم أنه قطع الإسلام طولا وعرضا، ولم يترك بلدا إلا دخله، وهو الزعم الذى نقضه بنفسه عندما أعلن أنه لم يدخل الأندلس، ولم يطأ معظم أراضى إقليم السند.

الدراسة الميدانية المعاصرة تقوم على عدة أسس :

أولا : يقوم بها فريق عمل متكامل، ولا يقوم بها فرد مطلقا، بل إن التحرك الفردى مشجوب عند الجغرافيين المعاصرين.

ثانيا : يقوم الباحث الجغرافى برحلته الميدانية على ثلاث مراحل :

(أ) رحلة تمهيدية .

(ب) رحلة عملية .

(جـ) رحلة مكملة.

ثالثا : تشتمل الرحلة - بجانب الرؤية والاختبار المباشرين- على طريقة الاستبيان: سواء أكان مغلقا أو مفتوحا، أو شاملا أو بالعينة.

رابعا : أن يكون مجالها محدودا حسب الإمكان، حتى يمكن وصفه وصفا شاملا صحيحا.

بدأ من النهاية، لنقرر أن مجال عمل المقدسى كان واسعا للغاية، وإذا كان قد

قضى عشرين عاما راحلا، فإنه زار أقطارا بعينها غبا، وبذلك لم يتيسر له التعرف الدقيق المتأنى عليها، فاضطر للاستعانة بجهود غيره كى يكون وصفه لها متوازنا مع وصف غيرها.

وقد تسبب اتساع المجال فى تشتت جهود المقدسى وتفاوتها، وانعكس هذا على صفحات كتابه، كما ساهم عدم تحديده لهدفه تحديدا دقيقا فى عدم ثبات وصفه للبلاد على وتيرة واحدة، فأغفل جوانب مهمة كثيرة فى بلاد متعددة، وكذلك ساعد الاتساع الزمانى المكانى لرحلاته على اختلاط معارفه وتفرقها، نظرا لطول الفترة بين تحصيلها ثم تسجيلها ثم نشرها، وأسهم فى زيادة صعوبة البحث الجغرافى على المقدسى أنه كان فردا، وأنه لم يكن مؤهلا للبحث فى بداية رحيله، وأن تمويل الرحلة كان ذاتيا، وأن الأدوات التى استخدمها لم تكن قد تطورت بعد، بل إنه اعتمد فى الغالب على خبرته الشخصية فى إدراك الظاهرة دون استعانة بأدوات معاونة. إن الرحلة الجغرافية الحديثة تقوم على أكتاف فريق عمل متكامل، يشكل أفراده كتلة واحدة هدفها خدمة البحث الجغرافى.

والباحث الفرد محدود الإمكانات، وتتعاوره المخاطر والصعوبات، ولذا فإنه ليس مرشحا لأن ينجز أو يضيف كثيرا مما يمكن أن يضاف إلى رصيده، وهذا ماحدث بالضبط مع المقدسى، إذ لم يستطع أن يلملم شتات أفكاره، فاستعاض عن ذلك باختراع التقسيمات والتحديدات التى خضعت لتقديره الشخصى، وكذا بمحاولة المقارنة والتجميع، بين المعلومات والأقاليم، وهو فى هذا الصدد يأتى بنظرات ثاقبة، تنم عن ذكاء ملحوظ خاصة فيما يتعلق بالربط بين المتشابهات، كما أن اضطرار المقدسى للعمل من أجل تمويل رحلاته أعاق مسيرة البحث الجغرافى عنده، وجعله فى مرتبة هامشية فى أحيان كثيرة، ولا حاجة للتذكير بأنه لم يكن يصحب معه إلا الضرورى من أسباب الحياة، وأنه لم يعتمد على أدوات معاونة فى البحث. أما فيما يتعلق بمراحل الدراسة الميدانية العملية، فيمكن ملاحظة أن المقدسى طبقها فى عدد قليل من البلدان، وخاصة تلك التى تطول إقامته فيها، كمكة المكرمة التى يذكر أنه زارها عام ٣٥٦، ثم عام ٣٦٧ (١٠١)، كما يذكر أنه أقام

باليمن حولا كاملا (٦٤) ، وأقام ببيار أربعة أشهر. وهو يتبرأ من التغيرات التى تطرأ على البلدان والظواهر، فتناقض ما يرد فى كتابه (٦٥) .

غير أنه اقتصر فى الغالب على تطبيق المرحلة الثانية الأساسية فى الدراسة الميدانية، وقد اضطره إلى ذلك: ضيق الوقت، واتساع المساحة، وانعدام الأمن– أحيانا، وارتباطه– أحيانا– بالقوافل، إضافة إلى ضيق ذات اليد.

أما فيما يتعلق بالاستبيان أثناء تلك الرحلات الميدانية، فالمقدسى يركز عليه ويستخدمه كثيرا. وقد اعتمد فى هذا الصدد على طريقة الاستبيان بالعينة، إذ اقتصر على عقلاء وأكابر وأجلة كل بلد فى إمداده بالمعلومات التى يطلبها، أو فى الإجابة على الأسئلة التى يطرحها. وعدد الشخصيات التى يورد أسماءها فى كتابه من المعاصرين كعينات للاستبيان بلغ سبعة وسبعين شخصا، وردت أسماؤهم مائة وإحدى وعشرين مرة.

وقد اتبع أيضا طريقة الاستبيان المفتوح، إذ لم يكن الاستبيان المغلق قد عرف بعد، كما أنه يتطلب إمكانات فنية ومادية لم تكن متوافرة حينئذ.

وتعود المقدسى على عرض ماسجله على العارفين بكل إقليم، يقول فى إقليم السند: أما المثال والشكل، فعلى سبيل مادبرت مع من عرف هذا الإقليم ودوخه من أهل الفهم، وأكثر ما مثلت من الأقاليم فلم أمثلها حتى دبرت مع عقلاء ذلك الإقليم، واستعنت بفهمائه» (٤٧٥).

وفى مواضع بعينها يتبرأ من عهدة المعلومات الواردة عنها، فيقول: «لم أدخلهن، ولم أر عاقلا أدبر معه فى بابهن، وإلى أين وجب أن يضفن»(٤٦٨) . أما فيما يتعلق بخرائط المقدسى– التى لم يصمنها دى خويه طبعته– فيذكر أنه بذل فيها مجهودا كبيرا، «حتى صحت، بعدما تأملت عدة من الصور، منها صورة وجدتها بخزانة ملك المشرق على كاغدة مصورة، مثال مربع لم أعتمده، وأخرى على كرباسة عند أبى القاسم بن الأنماطى بنيسابور أيضا مربعة، وماصوره إبراهيم الفارسى– وهو أقرب إلى الصحة، يعتمد عليها، وقد أخل وخلط فى مواضع كثيرة، ورأيت شيخا بسرخس قد فصل الأشكال، وصور بلد الكفر والإسلام كله

خطأ إلا القليل، وقلت له: هل سافرت؟ قال: ماجاوزت سرخس. قلت: قد سمعت بمن شرح الأقاليم بالخبر، وقد وقع فى ذلك ماوقع من التخليط، ولم أر من صور الأقاليم بالنقل غيرك»(٦) .

ويستعرض أهم الخرائط الموجودة فى عصره، ويعلق عليها، ثم يؤكد على ضرورة المعاينة المباشرة للظاهرة، كى يكون رسم خريطتها قائما على أسس سليمة. ولعل أطرف ما فى خرائط المقدسى أنها كانت ملونة حسب زعمه، فمملكة الإسلام «حررنا طرقها المعروفة بالحمرة، وجعلنا رمالها الذهبية بالصفرة، وبحارها المالحة بالخضرة، وأنهارها المعروفة بالزرقة، وجبالها المشهورة بالغبرة، ليقرب الوصف إلى الأفهام، ويقف عليها الخاص والعام»(٩) .

إن اتباع المقدسى لهذا النهج العلمى جعل باحثا مدققا- كياقوت الرومى- يستعين به فى اثنين وأربعين موضعا(١) ، دون أن يعلق على معلوماته كعادته مع غيره، مما يعنى ثقة ضمنية يوليها إياه، والجدير بالذكر هنا أنه استعان بالنسخة المعدلة المكتوبة عام ٣٧٨هـ.

* * *

زعم المقدسى أنه ألف كتابه استجابة لضغوط معاصريه عليه، اعترافا منهم له بالعلم فى هذا المجال، ولكنا نزعم أن توافر كم كبير من المادة العلمية كان الدافع الأول لإخراج الكتاب، ثم كان بحثه عن شهير لينسب إليه كتابه.

ولكن كيف تكونت المادة؟ وكيف صنفها؟ وما الخطوات التى اتبعها قبل أن يخرج كتابه إلى الوجود؟

أكد المقدسى على أنه يصف البلاد على ماعهدها عليه، ومعنى ذلك أن ثمة

---

(١) انظر · معجم البلدان - ياقوت الرومى، بيروت ١٩٨٦ صفحات (١/١٤٣- ١٤٦- ٣٦٠- ٤٤٠، ٢/٢٤٤ - ٣٤١- ٣٤٦- ٣٩٧- ٤٤٦- ٤٥٤- ٤٥٦- ٣/٦٠- ٦٩- ٧١- ٧٩- ١٦٧- ١٦٨- ١٧٢- ١٧٤- ١٨٠- ٢٤١- ٢٩٥- ٣٠٩- ٣٧٦- ٣٨٠- ٤/٤٨- ١٤٣- ١٥١- ١٥٧- ١٩٣- ٢٨٣- ٣٠١- ٣٠٢- ٣٨١- ٣٨٨- ٤٢٩- ٤٥٤- ٤٦٤، ٥/١٦٥- ١٦٨- ١٧٣- ١٩٨)

فكرة محددة ثابتة لديه عن كل بلد، وهذا يدعم القول بأنه كان يدون مايراه فى تلك البلاد، تدوينا مباشرا آنيا، حتى لايترك للذاكرة فرصة التحكم فى مصداقيته، وآية ذلك الجزء الخاص بالمسافات، فهو جزء ضخم فى كل إقليم، ويحتاج إلى معرفة المسافة بين كل موضع وآخر، وهذا يقتضى سرعة تدوين الأرقام حتى لاتنسى.

وإذا، كان قد دون المسافات، فليس ثمة مايمنع تدوين المعلومات عن البلاد، إذ يكون تدوين المسافات، هاهنا- الدافع المباشر لذلك.

إذا ، كانت هناك مادة مدونة آخى المقدسى بينها وفق تخطيطه المبدئى، ثم حاول أن يخفف من جفاف وصرامة المادة بإضافة حكايات شخصية واستطرادات، وبعد أن رتب مادته حسب هذا التخطيط، كتب المقدمة الطويلة الرائعة لكتابه، وضمنها منهجه الذى اتبعه فى صلب الكتاب.

بعد دلك حمل معه مسودة الكتاب- أو محضره كما يسميها- حملها معه أينما حل، ليعرضها على علماء هذا الفن، أو على أهل كل إقليم والخبراء به، ومازال يعدل فى كتابه، وينقح ويزيد، حتى بلغ سن الأربعين وحينئذ رأى ضرورة نشره وإظهاره للعامة.

ويبدو أن لسن الأربعين دلالة خاصة، إذ يقال: إن الإنسان عندها يتناهى عقله ويكمل فهمه وحلمه، ويقال: إنه لايتغير غالبا عما يكون عليه فى سن الأربعين[1] .

وكأن فى دلك إيحاء بأن الكتاب قد أوفى على العاية، لأن صاحبه أوفى عليها كذلك.

يتميز كتاب المقدسى بخاصتين هامتين:

١ - اتباعه لنهج علمى صارم- فى أغلب الأحيان- كفل له تقديم صورة شديدة الوضوح غنية المحتوى، للعالم الإسلامى، كما يقول بروكلمان.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير للصابونى، دار القرآن، بيروت، ١٩٨١، ٣١٩/٣

٢- اعتماده على الدراسة الميدانية المباشرة، التى أدته إلى الاعتداد بذاته، وإدخالها طرفا، مما أحدث شيئا من التوازن فى المضمون، وأبعدعن الكتاب شبح الجفاف الصرف أو العلمية البحتة.

يسدى المقدسى خدمة جليلة عندما يعى ضرورة التنظير لهذا العلم، وتوضيح خوافيه، وتجلية غوامصه، ومن ثم كانت مقدمة الكتاب التى امتدت لحوالى سبع الكتاب، وأتاح هذا الاتساع الفرصة للمقدسى لبيان منهجه، وتوضيح المشكلات التى صادفته، وكيف تغلب عليها، كما أتاح له الفرصة لاستعراض قدراته العقلية والتجميعية، فأتحف قارئه بالعديد من النظريات المقدسية، وزوده بالكثير من الملاحظات الطريفة.

هذه المقدمة تتضمن عدة موضوعات هى: خطبة الكتاب، ثم مقدمات وفصول لابد منها، وذكر البحار والأنهار، وذكر الأسامى واختلافها، وذكر الخصائص فى الأقاليم، وتأثير حروف الأسامى فى أمزجة أهل الأماكن المسماة، وذكر المذاهب والذمة، وذكر ماعاينت من الأسباب، وذكر المواضع المختلف فيها، وباب اختصرناه للفقهاء، وذكر أقاليم العالم ومركز القبلة، ثم أخيرا: مملكة الإسلام.

ورغم أن المقدسى جعل كتابه قسمين، فإن طول المقدمة وثراءها يجعلانها شبه قسم مستقل، وعلى ذلك يكون توزيع أقسام الكتاب كالتالى:

(أ) المقدمة .

(ب) أقاليم العرب، وهى ستة .

(جـ) أقاليم العجم، وهى ثمانية .

تتضمن خطبة الكتاب مقدمة تقليدية، يحمد الله ، ويصلى ويسلم على رسوله وآل بيته وصحبه، ثم تتركز حول الأرض وخلقها وأهم ظواهرها مما حقق انسجاما بين غرضه وألفاظه، وهو بذلك يطبق بعض ما اشترطه البلاغيون، ثم يتحدث عن أسباب تصنيف الكتاب بعامة كما يرى، ويبين أنه قصد إلى فن لم تستوف دراسته ليكتب فيه، وهو «ذكر الأقاليم الإسلامية»، لأنه علم مرغوب فيه من كافة الفئات،

ويوضح أنه جمعه جمعا ميدانيا عانى كثيرا في سبيله، واكتسب آنذاك خبرة واسعة تؤهله للكتابة فيه، وختمها بطمأنة قارئه على أن كم الثقة فى كتابه كبير، لأسباب ذكرها.

وفى الجزء المخصص للمقدمات الضرورية تحدث عن مصادره، وناقشها، ثم تحدث عن رموز ومصطلحات الكتاب، وشرحها شرحا وافيا، بالأمثلة، وهو منحى علمى مشكور، وبين أنه حرصا منه على عدم ملل القارىء، فقد وشح كتابه بما يذهب هذا الملل، ويذكر بعض قواعد التأليف، توطئة لتوضيح اقتصاره على مملكة الإسلام فحسب، وإغفاله وصف ممالك الكفار لانعدام الفائدة ولعدم دخولها، ويفصل أقاليم المملكة. يتنقل المقدسى للحديث عن البحار والأنهار، ويتمسك- فيما يخص البحار- بالحقيقة الكونية المتضمنة فى قوله تعالى ﴿ **مرج البحرين يلتقيان**﴾ ويظل لصفحات طويلة يناقش هذه المسألة، ويقلبها على وجوهها، مفترضا ومتسائلا ومجيبا ومفرعا، وهو فى هذا كله متأثر بمنهج الحنفيين التفريعى الافتراضى، وتفسير هذه المسألة مازال- حتى الآن- محل نظر العلماء، وقد أورد كراتشكوفسكى آراء عديدة، فى هذا الصدد، وناقشها، وأخيرا أيد الرأى القائل بوجود محيط سماوى وآخر أرضى. ثم ينتقل إلى الحديث عن الأنهار فيذكر أن كبارها اثنا عشر نهرا، وصغارها خمسة عشر نهرا، ثم نهيرات أخرى يذكرها فى مواضعها.

ويتضح الطابع التجميعى فى الفصل الخاص بذكر أسامى المواضع التى تتفق أسماؤها، وتختلف فى مواضعها، ويشكل على الناس أمرها، ويذكر فى هذا المجال مائة وثمانية وستين موضعا، ولعل هذا الفصل الذى يعد المقدسى أول من كتب فيه- لعله يعد دافع ياقوت إلى تأليف كتابه: «المشترك وضعا والمفترض صقعا»، والذى اتسعت مادته لتشمل ألفا وواحدا وتسعين اسما، تعالج أربعة آلاف ومائتين وواحدا وستين موضوعا. وإكمالا للفائدة ذكر المقدسى المدن ذات الأسماء المتعددة كمكة والمدينة، وقد اجتمع لديه فى هذا المجال تسع مدن، لها تسعة وعشرون اسما.

يتلو ذلك بيان ببعض الأسماء المتعددة للشيء الواحد فى الأقطار المختلفة، مثل: جزار وقصاب ولحام، ويعددها هنا مائة وواحداً وثمانين اسما.

ومن فصول المقدمة الطريفة الفصل الخاص بخصائص الإقليم، وفيه يفرق المقدسى الأحكام يمنة ويسرة، معتمدا على خبرته الشخصية فى هذا المجال، فيبدأ بتوزيع الفضائل على اثنى عشر إقليما، ويوزع المثالب على إقليمين فقط هما: خوزستان والمغرب، ويثنى برأى الجاحظ، ويستدرك عليه، ثم يتحدث عن فضائل أو عيوب مواضع بعينها، وكذلك سكانها، محكوما بلغته المسجوعة التى تجبره على قول مالايريد. ويشمل هذا الفصل ثلاثة وسبعين موضعا بعضها مكرر.

ويمكن فى هذا الصدد ملاحظة أن أغلب أسماء الأشخاص الذين يوردهم المقدسى ينسبها إلى بلدها، بل إن اسمه منسوب إلى بلده، كما يلاحظ استعانته بمصادر معنونة بأخبار البلاد، كأخبار البصرة، وأخبار المدينة، وغير ذلك، كما اتبع فى تقسيمه القسمين الكبيرين: العرب والعجم، وأيضا أورد بعض المفاخرات بين البلدان (٣٢٦). ولعل جذور ذلك كله تعود- دون أن يدرى المقدسى- إلى فكرة الشعوبية التى سادت فى القرون السابقة عليه، ولعل فكرة الشعوبية هذه كانت دافعا لتقدم علم الجغرافيا العربى، إما لتأييدها، أو لنفيها. وبناء على خبرة واسعة، واعتمادا على أسماء البلدان ومواقعها، يبين المقدسى لقارئه الكيفية التى تدله على خصائص كل بلد، وذلك فى الفصل المسمى فى إحدى نسخ الكتاب بتأثير حروف الأسامى فى أمزجة أهالى الأماكن المسماة؛ فهو يزعم- مثلا- أن كل بلد فيه صاد فأهله حمقى، وإذا اجتمعت صادات فنعوذ بالله، وكل بلد آخره ان «ألف ونون» فله خاصية وطيبة، وكل بلد شديد البرد فأهله سمان ضخام كبار اللحى وكل بلد على بحر أو نهر فالزنا واللواطة فيه (٣٦) إلى آخر تلك الملاحظات الطريفة الخفيفة التى هى أقرب للفكاهة منها إلى الحقائق العلمية.

وأخيرا يجد نفسه مضطرا لترشيح مدينة لتكون ملكة مدائن المملكة، وبلا تردد يتوج الفسطاط التى انتزعت العرش بجدارة من بغداد، ونسختها إلى يوم الدين على حد تعبيره.

ولاشك أن هذه الأحكام ترضى فضول القارىء، وتقيم علاقة وثيقة بينه وبين العمل الذى بين يديه، رغم أنها- فى الغالب- أحكام شخصية. ولكن أليس من حق المقدسى أن يصدرها طالما أن الدوق الشخصى هو الفيصل النهائى فى هذه النواحى الطريفة؟

ومع ذلك يراعى المقدسى نسبية الأذواق، فيختم هذا الفصل بعبارة رائعة أضافها للنسخة الثانية، يقول: «وعلى الجملة، أطيب البلدان ما كانت اليد فيه أوسع، ولو كانت قرية». (٣٦).

أما الفصل الثانى فتناول فيه المذاهب السائدة فى عصره، وعددها ثمانية وعشرون مذهبا، وزعها حسب أماكن انتشارها، وناقش أصولها، ثم انتقل إلى القراءات وأهل الذمة وخلافات المذاهب، وصفات فقهاء كل مذهب، كما علل لاختياره نظام الرباعيات بدلا من النظام السباعى السائد، متوقعا النقد، ورادا عليه قبل أن يوجه إليه.

أما أفضل فصول المقدمة وأطرفها، وأكثرها دلالة، فهو ذلك الفصل المعنون بـ «ذكر ماعاينت من الأسباب» ويتعرض فيه لما لاقاه أثناء رحلاته، وقد مر آنفا، ثم يلبه الفصل الحاص بذكر المواضع والمشاهد المختلف فيها، أى المختلف فى تحديد أماكنها كقبر آدم عليه السلام، الذى ذكر أنه فى خمسة مواضع مختلفة، وعدة هذه المواضع والمشاهد المختلف فيها خمسة عشر موضعا، ثم يختصر بابا للفقهاء، يوضح فى بدايته دلالة كل لفظ يطلقه على المواضع، ويذكر أن الأقاليم- فى عرفه- أربعة عشر إقليما، وأن الأمصار سبعة عشر مصرا، وأن القصبات سبع وسبعون قصبة، ثم يفصل ذلك كله ذاكرا الكور والمدن والقرى والنواحى.

بعد ذلك ينتقل إلى ذكر أقاليم العالم ومركز القبلة، فيبدأ بصورة عامة للأرض، ويفصل الأقاليم السبعة متبعا النظرية السائدة آنداك، تم تخصص المملكة الإسلامية بالوصف، فيذكر موقعها ومساحتها وخراجها، وأخيرا يهدى كتابه للأمير السامانى. بعد هذه المقدمة الطويلة المفيدة يشرع المقدسى فى وصف الأقاليم الإسلامية، وهنا يبدأ الجانب التطبيقى فى الكتاب.

كل إقليم يحتوى على عدة كور، ولكل كورة قصبة، ولها عدة مدن وكل مدينة لها عدة نواح أو قرى، والأقاليم على نوعين: الأقاليم العربية، والأقاليم العجمية.

وقد زعم المقدسى أن هذه الأقاليم مرتبة حسب حدودها، ولكن متتبعا مدققا لهذا الزعم سيكتشف زيفه، أو عدم دقته على الأقل، هذا بينما يسود وصف الأقاليم العربية نهج واضح المعالم.

وهذه التقسيمات من اختراع المقدسى، لم يسر فيها على مثال سابق، وإن كان متسقا مع أغلب أصول مدرسة البلخى الإسلامية.

وقد زعم أن هذه التقسيمات موضوعة على أسس طبيعية، لا على أسس سياسية، يقول ممثلا لهذا النهج «أما الولايات فليست حجة فى هذا الباب. ألا ترى أن سيف الدولة كانت له قنسرين والرقة، ولم يقل أحد أن الرقة من الشام»(٣٥). غير أنه ما لبث أن نقض هذا الزعم، معتمدا الواقع السياسى أصلا؛ فالمنطق العلمى ـ حسب مفهومه ـ يقتضى فصل جانب هيطل عن جانب خراسان فى إقليم المشرق، ولكنه لم يفعل، واحتج بأنا «لم نحب أن نفرق مملكة آل سامان؛ إذ المشهور فى الإسلام أنهم ملوك هيطل، وإنما دار ملكهم فى هيطل» (٦٨)، وكذلك فعل مع «غرج الشار» حيث جعل هذا الموضع مستقلا لاعتبارات سياسية، غير أنه عاد إلى التقسيم الطبيعى مرة أخرى فى حديثه عن إقليم السند؛ إذ «أضفنا إليه مكران؛ لأنها بقربه مصاقبة له، ولتتصل الأقاليم: بعضها إلى بعض (٤٧٤)». تذبذب المقياس هذا نتيجة مباشرة لتدخل عوامل غير موضوعية فى منهجه أملاها ـ فى الحالة الأولى ـ أنه يقدم كتابه للسامانيين، وفى الثانية إعجابه الشديد بملك غرج الشار وعدله.

أعلن المقدسى فى خطبة الكتاب أنه سيلتزم بمضمون معين، يحشو به الشكل، وأنه لن يحيد عما جاء فى الخطبة، التى أورد فيها أنه سيذكر مملكة الإسلام وما فيها من المفاوز والبحار والبحيرات والأنهار، ووصف أمصارها المشهورة ومدنها المذكورة ومنازلها المسلوكة وطرقها المستعملة، وعناصر العقاقير والآلات، ومعادن

الحمل والتجارات،واختلاف أهل البلدان فى كلامهم وأصواتهم وألسنتهم وألوانهم ومذاهبهم، ومكاييلهم وأصواتهم وصروفهم، وصفة طعامهم وشرابهم وثمارهم ومياههم ومعرفة مفاخرها وعيوبهم، وما يحمل من عندهم وإليهم، وذكر مواضع الأخطار فى المفازات، وعدد المنازل فى المسافات، وذكر السباخ والصلاب والرمال والتلال والسهول والجبال، والحواوير والسماق، والسمين منها والرقاق، ومعادن السعة والحصب، ومواضع الضيق والجدب، وذكر المشاهد والمراصد والخصائص والرسوم، والممالك والحدود، والمصارد والجروم، والمخاليف والزموم، والطساسيج والتخوم، والصنائع والعلوم، والمباخس والمشاجر، والمناسك والمشاعر»(١ ـ٢).

وقد اقتضى التطبيق العملى للمنهج أن تنقسم دراسته لكل إقليم إلى قسمين:

١ ـ وصف عام مفصل للإقليم يغطى فبه الكور والمدن والقرى والنواحى.. إلخ.

٢ ـ قسم أسماه «جمل شئون الإقليم»، وتضمن ما يلى حسب الترتيب الغالب: المناخ ـ والزراعة، والأنهار والبحار، والمذاهب، واللغة واللهجات، والقراءات، والتجارات، والحصائص (ما تفرد به الإقليم) ، والمكاييل، والموازين، والنقود، والرسوم (أى العادات والتقاليد) ، والمياه والمعادن، والعصبيات المذهبية أو العرقية والمشاهد، والأخلاق، والولايات (أى الانتماء السياسى) ، والضرائب، والمكوس، والمراصد، والخراج، وصفات أهل الإقليم، ثم ـ أخيرا ـ المسافات بين مختلف مواضع الإقليم الواحد.

ويتضح مما سبق أن الالتزام الحرفى بما جاء فى الحطبة غير قائم، وهذا لا يعنى التحلل التام مما شرطه على نفسه، فحوالى ثلاثة أرباع ما أورده فى الحطبة يتضمنه التفصيل الإقليمى التطبيقى.

ولكن ثمة إضافات أملتها طبيعة كل إقليم؛ كالمضار والقبائل فى إقليم الحزيرة العربية، والموقع فى إقليم الشام، والشهور القبطية فى مصر.. إلى غير ذلك. ويعترض الوصف العام للأقاليم ـ الملتزم بالمنهج ـ حكايات طريفة، تمجد شخصه، وتظهر كما لو كانت خروجا على المسار، بيد أنه حاول أن يقيم صلة واهية بين حكايته وموضعها، ومعلوم أنه أحذ على ابن الفقيه ذلك الحشو والاستطراد غير

الملائم، إلا أنه وقع فى الشرك نفسه، ولكن المؤكد أن الفارق بينهما مازال متسعا، وكفة المقدسى هى الراجحة فى هذا المجال بالطبع. ويخرج كذلك عن نطاق منهجه المحدد بعض الاستطرادات، كبعض المسائل الطبية (٢٤٢)، ومعظم ما ذكره من حكايات عن أبى حنيفة أو عن نفسه أحيانا. ولعل مما يدخل مجال الفائدة والخدمة المباشرة للمسافرين ذكره للمسافات والمراحل داخل كل إقليم. والاهتمام الذى يوليه لطريق ما يحدده مدى أهمية هذا الطريق، ولذلك فإنه: من ناحية يغفل تفصيل طرق المغرب، ويعلن أنه اختصر مسافات هذا الجانب وأجملها «لطولها وكثرتها، وقلة المسافرين فيها» (٢٤٧)، ومن ناحية أخرى يفرد لبادية العرب فصلا وخريطة مستقلين «لأن أحدا من أهل الأقاليم الثلاثة عشر لا طريق له إلى مكة فى البر إلا فيها، ولا غنى له عن معرفتها، وأيضا فإن فيها مناهج لا تعرف، ومياها قد تجهل. وفى ذكرها فوائد لا تحصى، وأجرو حسبة لا تخفى، وقد سافرت فيها غير مرة، ومسحتها يمينا وشمالا، وشرقا وغربا، وتفحصت عن طرقها، وسألت عن مياهها، وتبحرت فى معرفتها، حتى حزت الكثير من أسبابها، وعرفت معظم طرقها» (٢٤٨).

إلا أن التنفيذ الفعلى لم يف بما ادعاه المقدسى.

مع تلك التوجهات المنهجية الكبيرة. كانت هناك توجهات منهجية مهمة منها:

- البعد عن المحاز والمحال، وعدم السرقة أو التكرار، أو حتى النقل إلا حين ضرورة.
- المقارنة الدائمة بين البلدان، مما أكسب الكتاب كثيرا من الحيوية.
- الاعتذار عن السهو والخطأ، والنص على نسيان أسماء أو صفات مواضع بعينها.
- الوصف الآنى، الذى يعتمد على وصف الشىء كما رآه، وقتما رآه.
- أن المقدسى داعية وحدة، رأى ما عليه المسلمون من تفرق بسبب المذاهب والعصبيات والخلافات السياسية، فآلمه ذلك، ودعا المسلمين للاتفاق طالما أن أصول الإسلام لا خلاف عليها بينهم . وتطبيقا لهذه الدعوة، نفى عن نفسه

التعصب لمذهب أو فرقة أو دولة، ويشهد الكتاب فى بعض مواضعه على أنه لم يكن ملتزما تماما بتلك الدعوة، فهو يتعصب للحنفية، ويهب نفسه لخدمة الدولتين: السامانية، فالفاطمية.

- وقد حفظ لنا المقدسى بعض نصوص رحلات السابقين عليه؛ كرحلة مجاهد ابن يزيد وخالد البريدى إلى الكهف، ورحلة سلام الترجمان إلى السد.
- وإحصاءاته طريفة، ولكنها غير دقيقة فى الأغلب؛ كإحصائه ثلاثة آلاف حمل جمل فى كل أسبوع ـ كلها حبوب ودقيق ـ تخرج من مصر إلى الحجاز، أو إحصائه عشرة آلاف مصل يصلون قدام الإمام فى مسجد عمرو بن العاص بمصر.

ويمكن إضافة بعض الملاحظات الطريفة التى تدل على دقة نظر المقدسى، مثل:

- أن النيل كان يصب فى البحرين الأحمر والمتوسط قديما، نقل ذلك عن بعض العلماء المصريين، ليؤيد نظريته فى التقاء البحرين وتحديدهما.
- وأن بنائى المسجد الحرام من مصر والشام، بدليل أسمائهم المكتوبة على الحائط. (٧٣).
- وأن تسمية واسط بهذا الاسم سببها أن منها إلى بغداد أو إلى الكوفة أو إلى البصرة، أو إلى حلوان، أو إلى الأهواز، خمسين خمسين فرسخا ـ هو استدلال خاطئ لأن وسط العراق العاقول (١٣٥).
- وأن حَلَق العلم فى جامع عمرو بن العاض كثيرة، دخلتها مع جماعة من المقادسة، فربما جلسنا نتحدث فنسمع النداء من الوجهين: دوروا وجوهكم إلى المجلس، فننظر، فإذا نحن بين مجلسين. على هذا جميع المساجد، وعددت فيه مائة وعشرة مجالس»(٢٠٥).
- وكذلك لاحظ المقدسى أن المصريين «يكثرون الإشارة فى الصلاة، والنخع والمخاط فى المساجد، ويجعلونه تحت الحصير.. وأنهم يحبون رءوس السمك، ويقال: إنهم إذا ارأوا شاميا قد اشترى سمكا اتبعوه، فإذا رمى رءوسها أخذوها.

ويكثرون أكل الدلينس ـ أقذر شيء ـ حيوان بين زلفتين صغيرتين، يفلقان، ويحسى مثل المخاط» (٢٠٥)، إنه يعني بذلك ما نسميه «أم الخلول».

ويصف أبا الهول بأنه صنم، يزعم أن «الشيطان كان يدخله فيكلمه حتى كُسر أنفه وشفتاه» (٢١٠).

أما أهل المغرب، فقد لاحظ عليهم ملاحظتين: «حب التغرب» (٢٣٦) و «البخل الشديد» (٢٤٣)، ولعل هذا الوصف بالبخل يتعارض تماما مع وصف ابن حوقل لهم بالكرم.

وقد لاحظ كذلك أنه: «إذ اتكلم أكثر أهل بخارا هزوا أكتافهم إلى فوق، ورأيت أبا بكر الإسمعيلى يفعل ذلك» (٣٢٨).

وأن «لأرمية عقبة فى طريق الموصل، يركب الناس فيها أعناق الرجال كما تركب الدواب لصعوبتها، ويربطون أرجل الصبيان بالسلاسل والحبال كى لا يتدحرجوا إلى البحيرة» (٣٨١).

إنها جميعا ملاحظات طريفة، وليس العجب من الملاحظات فى ذاتها، وإنما العجب من ذاكرة المقدسى كيف وعتها وحفظتها، ثم من جرأته التى جعلته يضمن هذه الطرائف الدالة فى كتابه، دون أن يخشى لوما ولا مؤاخذة.

الانطباع العام عن أسلوب المقدسى أنه صعب ومتكلف، ويتراوح الحكم عليه بين الاعتدال والمغالاة.

«فبروكلمان» يرى أن أسلوبه: «لا يخلو من بعض التصنع، ذلك التصنع الذى أخذ ينتشر فى الفترة التالية من دواوين الكتب إلى الأدب» وتتمثل الإضافة المهمة فى تأكيد بروكلمان على أن المقدسى لم يضح قط بالمحتوى فى سبيل الشكل [١].

و«آدم متز» يقرن المقدسى بابن حوقل فى الحكم، «فكلاهما قد انتهت إليه اللغة أكثر انصقالا ودقة، وأسلس قيادا مما وجدها المؤلفون المتقدمون. وقد استعملاها فى فنهما استعمال من يملك ناصيتها، وإن كان ابن حوقل فى ذلك أقل إظهارا لتكلف الطرافة والجمال من المقدسى» [٢].

---

(١) تاريخ الأدب العربى ٤/ ٢٥٤.

(٢) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ١٢/٢.

أما «كراتشكوفسكى» فقد تعرض لهذا الأمر فى موضعين: الأول حين تعليقه على الفصل الخاص بما عاينه المقدسى، حيث أوضح «أن هذه الحكاية مكتوبة فى لغة مسجوعة تحفل بالكثير من التعابير النادرة والإشارات المقتضبة؛ لذا فإنها تمثل أنموذجا طريفا لأسلوب المقدسى، ويبرز فيها ميله الواضح إلى السجع والنثر المقفى، وإن الصعوبات التى تعترض فهم هذه القطعة قد جعلت من ترجمتها أمرا عسيرا... وهذه القطعة تذكرنا بعض الشىء بالمقدمة المعروفة لليعقوبى ولكنها تمتاز عليها بحيوية أكثر فى العرض»[1].

وفى الموضع الثانى يعلن أن «لغة المقدسى وأسلوبه ينتميان لا إلى أعسر أساليب هذه المدرسة فحسب، بل إلى أعسر أساليب مدرسة الجغرافيين العرب إطلاقا. وإذا كان الإصطخرى يتبع أسلوبا مبسطا فى كتابه ويمكن تفسير بعض الوعورة فيه بأن اللغة العربية لم تكن لغته الأصلية، وأن ابن حوقل بدوره لا يخلو من آثار الصنعة والتكلف والميل إلى السجع، فإن المقدسى قد أوفى على الغاية فى هذا الباب؛ إذ بالرغم من تملكه لناصية اللغة، نراه يلجأ إلى الصنعة المرهقة، فيفسح المجال للسجع، لا فى بداية الكتاب وخاتمته فحسب، بل فى صلبه أيضا، ولداع أو لغير داع. ويحفل متن المقدسى بالألفاظ الصعبة القليلة الاستعمال، لأنه كان يميل بعض الشىء إلى غريب اللغة»[2].

وإذا كان أغلب ما مر مآخذ على المقدسى، فإن فى صفه شيئين مهمين:

١ ـ محاولة رسم خريطة لغوية ـ إذا جاز هذا التعبير ـ للعالم الإسلامى.

٢ ـ إيجاد صلة قوية بين الأدب والجغرافيا، باستحدامه أسلوبا مزيجا من روح الفن وروح العلم. بل إن قطعا كاملة من الكتاب تعد أدبا خالصا.

فيما يتعلق بالشق الأول، يلاحظ أن وصف كل إقليم اقتضى وصف لغته فحصص المقدسى جزءا منفردا لذلك الوصف، وأسماه أحيانا «لغة أهل الإقليم»

(١) تاريخ الأدب الجغرافى ٢١٢/١ ـ ٢١٣

(٢) السابق ٢١٤/١.

وأخرى «لسانهم»، مما يعنى أن دلالةالمصطلحين واحدة عنده. غير أن هذا الوصف لم يكن مطرداً دوما، فثمة أربعة أقاليم لم يصفها المقدسى وصفا لغويا، واثنان آخران لم يفرد له فيهما مكانا، وإنما جاء الحديث عرضا فى المقدمة التقليدية لكل إقليم.

والوصف اللغوى فى الأقاليم الباقية يتراوح بين الاقتضاب ـ كما فى إقليم «أقور»، والتوسط ـ كما فى إقليم «خوزستان» والتوسع ـ كما فى إقليم «المشرق»، وربما كان حاكم ذلك أن الأخير يحوى أجناسا شتى ذوى لغات متعددة، وأن مساحته واسعة، بينما الأول صغير المساحة، ويقطنه جنس واحد، يتمثل فى عدة قبائل عربية.

وهذه الخريطة اللغوية ذات معالم صوتية وصرفية ونحوية ودلالية وإن كان الأول والأخير أكثر بروزا من الثانى والثالث.

وقد تكتسى هذه الملاحظات طابعا عاما، وتبدو وكأنها محاولة لملء فراغ، أو لتسويد بياض ـ كما قال الناسخ بحق ذات مرة، ونموذج ذلك وصفه المقتضب للغة أهل إقليم أقور، فهى «حسنة، أصح من لغة الشام، لأنهم عرب، أحسنها الموصلية» (١٤٦).

وقد لا يكتفى برصد الظاهرة اللغوية؛ فيجنح إلى تفسيرها؛ فأهل إقليم العراق «لغتهم مختلفة، أصحها الكوفية، لقربهم من البادية، وبعدهم عن النبط» (١٢٨).

وفى بعض الأحيان يعمد إلى المقارنة السطحية بين ظاهرتين، أو يسخر من ظواهر لغوية لجماعة بعينها لصالح أخرى، كسخريته من المصريين، انتصارا للشاميين، «فأهل الشام يعيبونهم أبدا، ويسخرون منهم، يقولون: مطر أهل مصر الندى، وطيرهم الحدا، وكلامهم ـ يا سيدى ـ رخو مثل النساء: أعزك الله، مالك كده؟» (٢٠٣).

ومماله دلالة هنا أن الذمة فى مصر ـ حينئذ ـ كانوا يتحدثون بالقبطية، وهذا

يعنى أن العربية لم تكن قد انتصرت انتصارا نهائيا على القبطية حتى نهاية القرن الرابع. وقد يأسره إقليم، فيتتبع لغته تتبعا دقيقا، ليخرج بملاحظات طريفة، كتلك التى خرج بها من إقليم الجبال، ومنها أن «أهل الرى يغيرون أسماءهم يقولون لعلى وحسن وأحمد: علكا وحسكا وحمكا. وأهل همذان أحمد لا ومحمد لا وعيشلا، وبساوة: أبو العباسان حسنان جعفران وأكثر كنى أهل قم: أبو جعفر، وأهل أصفهان: أبو مسلم، وبقزوين: أبو الحسين. وألسنتهم مختلفة: أما بالرى فيستعملون الراء، يقولون: راده، راكن، وأهل همذان يقولون ـ: واتم، واتوا، وبقزوين القاف، وأكثرهم يقولون للجيد «نغ» ولسان الأصفهانيين وحش، وفيه مد. ولا يرى فى ألسنة الأعاجم أقرب مأخذاً من لسان أهل الرى» (٣٩٨). أما من حيث الملاحظات العامة، فقد أدرك المقدسى أن معظم أسماء البلاد الأعجمية على اسم من أنشاها، كما مال إلى التفسير اللغوى أو التاريخى الناجم عن حادثة بعينها فى بقية الأسماء، بل جنح إلى اختراع أسماء جديدة لم تعهد من قبل، كإقليم الرحاب، وإقليم الديلم، إضافة إلى مسلكه الطريف المتمثل فى محاولة استخراج خصائص أهل كل إقليم من اسمه.

ولعله ينفرد بتتبع التطور الدلالى لأسماء بعض البلاد، كما فى حالة سامراء، إذ يزعم أنها مرت بالأطوار التالية: سرور من رأى ـ سرمرى، ثم: ساء من رأى ـ سامراء» (١٢٢). ويعد تخصيصه فصلا منفردا للحديث عن المصطلحات والرموز التى استخدمها فى كتابه ـ يعد عملا رائدا فى زمانه.

إن المقدسى ممتلك لناصية اللغة، ولكن الإدلال الدائم بمقدرته وثقافته أدى به إلى مبالغة وإفراط كانا سببا فى الطعنات الموجهة إلى أسلوبه.

الملاحظ أن المفردات التى يستخدمها تبدو متنافرة ومغرقة فى الإغراب حين يتكلف وتتضخم ذاته رغبة فى الاستعراض، وأنها تسهل وترق حين يترك العنان لها، لتتحرك كيفما شاءت.

وقد ساعد على كثرة المفردات الغريبة والنادرة شيئان:

١ ـ أن الجزء الأكبر من الكتاب يحتله وصف البلاد الأعجمية، ومن ثم فقد

اضطر المقدسي إلى إيراد الكثير من المفردات الأعجمية، التي شرح بعضها حينا، وتغاضى أحيانا، ويتعلق بذلك عدم ضبطه أسماء المواضع ضبطا حرفيا ـ لا شكليا، مما يستدعي الإحالة إلى غيره ممن ضبطوها، وهذا النهج يسبب مشاكل كثيرة لكل من يتعرض للكتاب: بالتحقيق أو الدرس.

٢ ـ أن المقدسي زعم أننا «سنتكلم في كل إقليم بلسانهم ونناظر على طريقتهم، ونضرب من أمثالهم، لتعرف لغتهم ورسوم فقهائهم، فإن كنا في غير الأقاليم ـ مثل هذا الأبواب (أبواب المقدمة» تكلمنا بلغة الشام؛ لأنها إقليمي الذى به نشأت وناظرت.. ألا ترى إلى بلاغتنا في إقليم المشرق؛ لأنهم أصح الناس عربية، ولأنهم تكلفوها تكلفا، وتعلموها تلقفا، ثم إلى ركاكة كلامنا في مصر والمغرب، وقبحه في ناحية البطائح؛ لأنه لسان القوم» (٣٢).

وواضح أنه يعنى بذلك الأسلوب بشكل عام، لا اختلافات الألفاظ الكتابية والمصطلحات فحسب، كما يذهب إلى ذلك كراتشكوفسكي. وقد قام المقدسي نفسه بجمع مثل هذه الاختلافات ـ سواء في الألفاظ الكتابية أو المصطلحات العامة ـ في فصل خاص، كما وفي بوعده فيما يتعلق بألفاظ أخرى، فالمركب يسمى «الجلبة» في حديثه عن اليمن (٩٧)، وفي خوزستان يسمى «المركب» وفي واسط يسمى «السفينة» (١١٨). وفي الأقاليم العربية يستخدم «القصبة» و«المدينة» و«المخاليف» بينما يستخدم «الرستاق» و«الطسوج» و«الزموم» في الأقاليم الأعجمية.

ومعنى هذا كله أن كتاب المقدسي يحتوى على ثروة لغوية كبيرة جديرة بدرس خاص يكشف عن أسرارها.

ويندرج في إطار تضخم الذات استخدامه لضمير الجماعة حين الحديث عن نفسه، كبديل ـ يرضيه ـ عن ضمير المفرد.

والمقدسي مولع للغاية باستخدام الجملة الاسمية في أبسط صورها ـ أي المكونة من مبتدأ وخبر مفردين حسب، بل إن الروابط بين الجملة وسابقتها وتاليتها شبه معدومة. وبذلك يشبه أسلوبه تلك القفزات الرشيقة الحفيفة، معتمدا على التوازن الكمي بين كل جملة وأخرى، ومستغلا التوافق الإيقاعي الذى

يحدثه السجع المفضل عنده.

ولكن ... أين الجملة الفعلية من هذا كله؟ وهل تستطيع أن تؤدى الدور نفسه الذى تؤديه الجملة الاسمية فى كتاب يفترض أنه فى «الأدب الجغرافى» ؟

الاسم يدل على معنى، والفعل يدل على حدث وحركة، والرحلة فى جوهرها مجموعة أحداث متوالية تتسم بالحركة المستمرة الدائبة، ولذا فإن من الأفضل أن يعبر عن الحركة والحدث بما يدل على الحركة والحدث، أى بالفعل أو الجملة الفعلية، وبذلك لا تفقد الرحلة الحقيقية شيئا من حيويتها. وهذا بالفعل ما يمكن تطبيقه على ما كتبه المقدسى.

حين تستخدم الجملة الاسمية الرشيقة الخفيفة القصيرة، تشعر أنه يقفز بك، ولكن.. فرق كبير بين: القفز فى المحل، والقفز إلى الأمام. فى حال الجملة الاسمية يكون القفز فى المحل، وفى حال الجملة الفعلية يكون القفز للأمام. والأخير هو المطلوب قطعا.

استخدام الجملة الاسمية، والانبهار الشديد بالسجع، أوقع المقدسى فى حرج - وأى حرج، إذا اضطر إلى استجلاب الفاصلة لتدل على غرضه حينا، وتبعد عنه حينا، وتكون على شبه الضد منه أحيانا.

وليت المقدسى اكتفى بالسجع حسب، ولكنه أراد إثبات مقدرته مرة أخرى، فعكف على دراسة كل وجوه المحسنات اللفظية، توطئة لتضمينها فى كتابه، خاصة فى المقدمات التقليدية لكل إقليم، مثل وصفه للشام ومصر، وأيضا فى المدن الكبيرة كشهر ستان التى يصفها بقوله:

«هى مصر الإقليم وقصبة جرجان، كثيرة الفواكه والزيتون والرمان، ومشاكلة رملة فلسطين فى البلدان، لها بهاء وآئين، أهل مروة وإتقان، وفيهم وطاء وظرف ولطف وإحسان، حسنة الأسواق والمساجد والأتيان، جيدة البطيخ والحلواء والباذنجان، وكأنما عجن الخبز بالزيت والأدهان، بها النارنج والأترنج والعناب، والنخل لولا برد يفسد الأرطاب، وسمك عجيب شبه ثيران، فهى بلدة سرية

عظيمة القدر والشان، وأنهار عليها جسور طيقان، وبها علم ودين وأشياخ وأموال، وقد زخرفوا الجامع وأزروا الحيطان وهو بنصفين كفسا وبغداد، وعلى الرسم حذاء المنبر دكان، وإزاء دار الأمير إلى ثم ميدان، آذان بتطريب وألحان، والخطيب حنفى والإقامة اثنان، ولها البحر ورستاق دهستان، وقد غابت فى رياض وأشجار وأقصاب، وخرماروذ فلا تنسى فآفة العلم نسيان، به تين وزعرور ورمان، بلا منع ولاطرد ولا دفع أثمان، وجبال عامرة على نعت لبنان، وخانات ظريفة ومسجد دينار ـ فهذا كله صحيح ولكن.. فاسمع الآن: هو مصر حره شديده مع كرب وذبان وبراغيث ضارية إليها صرفنا اسم كركان، والتين حماء والماء آكران، ومن حلها من بلده فليعدد الأكفان، فإن بها منجلا يحصد الأبدان، وتراهم على رأس الجمل يوم النحر حزبان (حزبين)، فمجروح ومضروب وجيران، ولا يفارقهم مرج وقتل وجيشان، جيش من الديلم والآخر من ترك سامان، وتعصب وحش عليه الفريقان، وتشيع مفرط مع خلق قرآن، لها تسعة دروب أولها درب سليمان، ثم درب القومسيين ثم درب لشارع حيان، ثم درب كندة ثم درب الباذنجان، والباركاه قبله درب خراسان، فهذا ما أتقنته من وصف جرجان» (٣٥٧ ـ ٣٥٨)

وأطرف من هذا الوصف وصفه لمرو بأنها «قصبة نفيسة طيبة ظريفة، بهية رحبة خفيفة، أطعمة لذيذة بها نظيفة، منازل مليحة لهم أنيفة، من ظرفها للجانبين هى صنيفة، مشايخ أجلة عقولهم شريفة، الجامع بآناط لا خشب ولا سقيفة، وكل ليلة بمجلس عصائب عفيفة، مذكر فقيه يقفو أبا حنيفة، مدارس لكل دارس وظيفة، أسواقهم حسنة: ألا ترى صفوفها بالجامع الأعلى من كل جانب لفيفة، وثم الدار المذكورة الرفيفة، بها إيوان صاحب الدولة الشريفة، ولا تسأل عن حمامات مرو ولا الهريسة والخبز والعقل والباس فإنها معروفة، وسل عن مياههم وكسبهم والمروات فإنها ضعيفة، وعن دهائهم وهرجهم فعندى منها صحيفة، أنباء صدق أنفسها معربة ظريفة، ولست ممن يأكل بعلمه رغيفه، لكننى طالب جنة وراغب فى دعوة كثيفة، فمرو بلدة سرية لو لم تكن من أهلها خفيفة، قد خربت إلا منازل طفيفة، وربض ثلثه مهدم كأنها سليفة،

منازل قد شعثت وأسقطوا سقوفه، وفسق ظاهر هروجهم معروفة، مكاسب ضيقة لهم فى طرهم لطيفة، لا سخاوة ولا رواس نظيفة، ولا لطينهم علاكة وفى الصيف حارة رشيفة»(٣١٠ ـ ٣٣١). والنموذجان كلاهما أقرب إلى الفكاهة اللغوية منهما إلى الرغبة فى توصيل المعلومات، وأطرف ما فيهما ـ وفى أضرابهما ذلك الانقلاب المفاجىء من ذكر المحاسن إلى ذكر العيوب، وهو الانقلاب الذى افتن فيه المقدسى فى مواضع عديدة. وإذا كان المقدسى قد شغف باستخدام الجملة الاسمية؛ فإنه لم يعن نفسه فى إيجاد الروابط الملائمة للجمل، بل أهملها فى أغلب الأحيان، فى حين يسرف فى استخدامها فى مواضع قليلة، كاستخدامه للواو فى وصف المصريين، وأنهم «لا نظير لأقلامهم، وزاجهم، ورخامهم، وخلهم وصوفهم، وخيشهم، وبزهم، وكتانهم، وجلودهم، وحذوهم، وهلمختاتهم، وليفهم، ووزهم، وموزهم، وشمعهم، وقندهم، ودقهم، وصبغهم، وريشهم، وغزلهم، وأشنانهم، وهريستهم، ونيدتهم، وحمصهم، وترمسهم، وقرطمهم، وقلقاسهم، وحصرهم، وحمرهم، وبقرهم، وحزمهم، ومزارعهم، ونهرهم، وتعبدهم، وحسن نغمتهم، وعمارة جامعهم، وحالومهم، وخيسهم، وحيتانهم، ومعايشهم، وتجاراتهم، وصدقاتهم. كل ذلك فى غاية الجودة» (٢٠٣ ـ ٢٠٤) إنه يستخدم الواو فى هذا النص القصير اثنتين وأربعين مرة، ولكن يلاحظ أن علاقة الجوار بين كل لفظة وأخرى ضعيفة، بل ثمة تنافر فى حالات بعينها، ولولا وجود الواو لأمسكت كل لفظة بتلابيب الأخرى ضجرا من صحبتها.إن النصوص السابقة تعتمد على الجملة الاسمية، وهناك نصوص قليلة تعتمد على الجملة الفعلية، ورغم قلة مثل هذه النصوص، فإنها تحوى كثيرا من شروط القصة القصيرة النموذجية، خاصة فيما يتعلق بالنهاية أو الجملة الختامية، إنها تلك النصوص القصصية التى تحكى مغامراته.

على سبيل المثال هناك هذا النص الذى يحكى عن إحدى مغامراته فى حوزستان التى يتهم أهلها بالسذاجة، يقول:

«ولما دخلت السوس، قصدت الجامع فى طلب شيخ أسمع منه شيئا من

الحديث، وعلى جبة صوف قبرصية وفوطة بصرية، فدفعت إلى مجلس الصوفية، فلما قربت منهم لم يشكوا إلا وأنا صوفي، فتلقونى بالترحيب والتحية، وأجلسونى فيما بينهم، وجعلوا يسألوننى، ثم بعثوا رجلا فأتى بطعام، فجعلت أنقبض عن الأكل ـ وما كنت صحبت هذه الطائفة قبل ذلك ـ فجعلوا يتعجبون من انقباضي وعدولى عن رسومهم، وقد كنت أحب أن أخالط هذه الطائفة، وأعرف طريقتهم وأعلم حقائقهم، فقلت فى نفسي: هذا وقتك، هذا موضع أنت به مجهول.

فانبسطت إليهم، وكشفت ثوب الحياء عن وجهى: فمرة كنت أراسلهم، ومرة أزعق معهم، وتارة أقرأ لهم القصائد، وأخرج معهم إلى الرباطات، وأذهب إلى الدعوات، حتى ـ والله ـ حللت من قلوبهم وقلوب أهل البلد بحيث لا غاية، ووقع لى بها اسم، وقصدنى الزوار، وحملت إلى الثياب والصرر. وكنت آخذه وأدفعه إليهم برمته فى الوقت؛ لأنى كنت غنيا وفى وسطى نفقة وافرة، وأناكل يوم فى دعوة ـ وأى دعوة، وكانوا يظنون أنى أفعله زهدا، وجعل الناس يتمسحون بى، ويذيعون خبرى، ويقولون: لم نر فقيرا قط أفضل من هذا.

حتى إذا وقفت على سرائرهم، وعرفت ما أردت منهم، هربت منهم فى سجو ليلة، فأصبحت وقد قطعت أرضا. فبينا أنا بالبصرة يوما، وعلى ثوبى ، وغلام يتبعنى، إذ رآنى رجل منهم، فوقف ينظر إلى شبه المتعجب، فجزت عليه شبه المنكر» (٤١٥).

وثمة نص آخر يحكى رغبته فى الحج بلا زاد، عملا بالعرف السائد لدى بعض الفرق الصوفية آنذاك (٢٢٥ ـ ٢٥٦).

ومثل هذه النصوص ذات العناصر القصصية قليل، ولكنه يمثل ظاهرة جديرة بالتوقف. إن انتهاج المقدسى لخطة لغوية تقتضى تفضيل الجملة الاسمية التى تميل إلى الاستقلال الذاتى، وإهماله للجملة الفعلية التى تميل إلى التواصل، هذا التفضيل وذلك الإهمال أديا إلى عدة نتائج، منها.

- افتقاد الصلة بين الجملة والجملة السابقة عليها أو التالية لها فى كثير من

المواضع، مما أظهر كل جملة نبتا شيطانيا بلا جذور ضاربة فى الأعماق.

– وترتب على ذلك أن الانتقال من جملة إلى أخرى افتقد المنطقية والتبرير.

– وإذا كانت الجمل تكون الفقرة ـ التى ستصبح بدورها غير متسقة فى إطارها العام، فإن منطقيا وطبيعيا أن تفقد الصلة بين الفقرة وما سبقها وما يليها. ساعد على ذلك ـ أيضا ـ الطبيعة الانفصالية للكتاب الذى يصف مواضع جغرافية.

– وبدوره أدى ذلك إلى خلل عام فى بنية الكتاب من الناحية الأدبية ـ كنص دال على شخص صاحبه، ومن هنا فلا غرابة أن مال المقدسى ـ فى ظل غياب خطة أدبية محددة ـ إلى الاستطراد والحشو وتكلف وجه صلة بين ما يريد تضمينه، وبين ما يجب أن يضمن بالفعل. ولو أن المقدسى تتبع خط سير رحلته من البداية إلى النهاية تتبعا تاما أو نسبيا، لأنقذ نفسه من هذا الخلط من وجهة نظر الأدب.

لكن.. من وجهة نظر أصول النهج العلمى، يسجل للمقدسى كل الإعجاب والتقدير لالتزامه بخطة دقيقة، وتغفر له بعض الزلات التى اقتضتها ذاته المتضخمة واستطراداته العديدة، وكذا يغفر له أن شبح التكرار يخيم كثيرا على وصفه؛ لأن طبيعة العلم أملت ذلك.

مع ذلك كله.. يلفت النظر ظاهرة هامة، تؤكد الصلة الوثيقة بين كتاب المقدسى والأدب، إنها استخدامه للحوار بين شخصيات متعددة، أو بينه وبين آخرين، أو الحوار ذى الطرف الواحد، أى الحوار الافتراضى بينه وبين ذاته. الحوار متعدد الأطراف اقتضاه اعتبار المقدسى نفسه مناظرا، فجعل يذكر المناظرات بنصوصها، ولكن يشكك فى حرفيتها كونه المنتصر دائما فيها. الجانب الحوارى الثانى يلاحظ عليه ملاحظة هامة للغاية، إذ يرتبط بالفكاهة غالبا، فيورث العمل حيوية من ناحيتين: من ناحية الحوار فى ذاته، ومن ناحية الروح الفكاهى السائد، ولا يغيب ـ هنا ـ التنبيه على أن كم المعلومات المتضمن فيها ذو دلالة على ظواهر بعينها، إنه يعطى معلومة مدسوسة فى ثنايا الحكاية، ليحقق بذلك

صفة يجب توافرها فى كتاب «أدب الرحلة».. إنها التقديم غير المباشر للمعلومة.

هناك نصوص عديدة تدعم هذا الرأى، منها تلك الحكاية: «وصف لى رجل بالزهد والتعبد، فقصدته وتركت القافلة خلفى، وبت عنده تلك الليلة، وجعلت أسائله، إلى أن قلت: ما قولك فى الصاحب (بن عباد) فجعل يلعنه، ثم قال: إنه أتانا بمذهب لا نعرفه قلت: وما هو؟ قال: يقول معاوية لم يكن مرسلا. قلت: وما تقول أنت؟

قال: أقول كما قال الله عز وجل: « لا نفرق بين أحد من رسله»، أبو بكر كان مرسلا، وعمر كان مرسلا.. حتى ذكر الأربعة، ثم قال: ومعاوية كان مرسلا.

قلت: لا تفعل؛ أما الأربعة فكانوا خلفاء، ومعاوية كان ملكا. فجعل يشنع على، وأصبح يقول للناس: هذا رجل رافضى، فلو لم تدرك القافلة لبطشوا بى» (٣٩٩). وفى موضع آخر: «ذكر لى بعض علمائهم بكوه بيان، فقصدت مسجداً فيه رئيسهم مع جماعة من المشايخ، فسألتهم عنه، فبعثوا رجلا يدعوه، وجعلوا يسألوننى إلى أن قالوا: أهل بيت المقدس يصلون إلى الكعبة؟ وما يشاكل هذا من المعضلات.

قلت: عالمكم هذا يجلس إليكم؟ قالوا: نعم. قلت: ولم يعلم هذا المقدار؟! لا حاجة لى فى لقائه» (٤٦٩).

ويتصل بهذا الجانب الفكاهى تلك التعبيرات الطريفة المكثفة الدالة، التى تنم عن قوة ملاحظة، مثل:

- أهل الرساتيق خير من أهل القصبة، تراهم فيها سباعا، وفى غيرها نعاجا»(٢٧٣).
- إلا أنها جنة يرعاها بقر، قوم غنم، لا سخاوة ولا ظرافة، تحت عمائمهم محاد، وفى معاملتهم فساد» (٣٨٨).
- فما أحله من إقليم لولا أهله، وما أحسن قصباته لولا مصره، لأنه يعنى الأهواز مزبلة الدنيا، وأهله فمن شر الورى» (٤٠٣)
- ولم أر بلدا أكثر عورا من كازرون، والمفاليج بشيراز كثير (٣٤٩).

- فالرى فوق ما وصفنا، إلا أن ماءهم يسهل، وبطيخهم يقتل (٣٩١).
- أهل طبرية: شهرين يرقصون، وشهرين يقمقمون، وشهرين يثاقفون، وشهرين عراة، وشهرين يزمرون، وشهرين يخوضون. يعنى: يرقصون من كثرة البراغيث، ويلوكون النبق، ويطردون الزنانير عن اللحم والفواكه بالمذاب، وعراة من شدة الحر، ويمصون قصب السكر، ويخوضون الوحل. (١٦١) والجانب الحوارى الثالث يمثله الحوار ذو الطرف الواحد، حيث ترك؛ المقدسى العنان لنفسه، مفترضا فى نفسه العلم والجلوس مجلس العالم، ومفترضا أن ثمة طلابا يسألونه، فيجيب عليهم، فيسألون، فيجيب.. وهكذا حتى يستوفى المسألة. وهو فى ذلك ينهج نهج الأرأيتيين الحنفيين الافتراضى.

الفصــل الرابع

الرحلة .... وأدب الرحلة

أدب الرحلة :

ارتبط ظهور نماذج جيدة من أدب الرحلات بإدراك أصحابها لقيمة الرحلة بكل تفاصيلها كحدث يستحق التسجيل، ومن ثم توزيع اهتماماتهم بين جانبى الإمتاع والتعليم ـ دون فصل بينهما.

والملاحظ أن هذا الإدراك؛ لم يتم الإجماع عليه فى فترة زمنية بعينها، وإنما.. كان النموذج يظهر، ثم تمر فترة طويلة قبل أن يظهر نموذج آخر. فالواضح أن أدب الرحلة لم يكن نوعا أدبيا معروفا أو مهما، وإلا لتغير الحال، ولقى من اهتمام النقاد والقراء الشىء الكثير.

والظاهرة اللافتة فى نماذج أدب الرحلات المعروفة لنا ـ أنها غير مستقلة بذاتها فى كتب، وأن معظمها قصير الحجم، ومن ثم لم تتح الفرصة للرحال ـ بسبب هذا القصر ـ للتعبير عن ذاته جيدا، فرحلات عمارة بن حمزة «والغزال، ومحمد ابن موسى المنجم، وسلام الترجمان، والإمامين: الشافعى والرازى، والأسير العائد هارون بن يحيى والفتية المغررين المغامرين ـ كلها رحلا قصيرة، ومنها القصير للغاية كرحلات عمارة بن حمزة ومحمد بن موسى وهارون بن يحيى، وكذا معظم النصوص التى يوردها بزرك بن شهريار ـ وإن كان الأخير يتميز بأن كتابه يشبه «معجم رحلات» ، وأن جمع هذه الرحلات بعضها إلى بعض يساعد على تكوين رحلة واحدة غاية فى الروعة.

وغريب أن يجمع بين هذه النصوص كون أهدافها مبنية على خيال بحت، أو أنها رسمية؛ فرحلات عمارة بن حمزة والغزال وسلام الترجمان وابن فضلان ـ رحلات رسمية، كما أن دوافع رحلات محمد بن موسى وسلام الترجمان والفتية المغررين هى دوافع من صنع الخيال، سواء أكان هذا الخيال خيال الخليفة الواثق، أو حيال الفتية المعررين أنفسهم. وسواء أكانت هذه الرحلات رسمية، أو ذات أهداف خيالية، فإن ارتباطها بالسلطة واضح، ومن تم فإن بعضها يمكن اعتباره تقارير رسمية رفعها هؤلاء بعد عودتهم لسادتهم.

وإحدى تلك الرحلات الرسمية احتلت بجدارة المرتبة الأولى فى هذه الحقبة

كلها، وكانت نموذجا متميزا لأدب الرحلة، إضافة إلى غنى مضمونها فى نواح كثيرة، حتى إن دراسات غزيرة قامت عليها ـ أعنى بذلك رحلة ـ أو رسالة ـ ابن فضلان التى نالت شهرة واسعة فى عصرها وعصرنا. ولعل غنى هذه الرسالة فى نواح عديدة هو الذى أتاح الفرصة للتوسع فى دراستها فى هذا العمل وهذا يعنى ـ فيما يعنى ـ أن النص نفسه هو الذى يفرض على الدارس طريقة تناوله.

وهنا يجب التنبيه ـ مره أخرى ـ على أنه لم تظهر حتى الآن نظرية نقدية متكاملة تتناول أدب الرحلات، وإنما الأمر متروك للاجتهاد الشخصى لكل ناقد، ولمدى تجاوبه مع النص.

ومما يؤسف له أن أدبنا الحديث يشهد نشاطا غزيراً على مستوى الإبداع فى هذا الفرع، ولكن.. لا يواكب هذا التدفق حركة نقدية ملائمة ـ اللهم إلا بعض مقالات تنشر بين الحين والحين على سبيل المدح أو المجاملة، أو الدعاية لكتاب فى أدب الرحلة.

ـ ١ ـ

الرحلة التى قام بها «عمارة بن حمزة» إلى ملك الروم يرجح أنها تمت فى عهد الخليفة المنصور وتحت رعايته، وقد أوردها «ابن الفقيه» بنصها دون تصرف فيه[1]. ويبدو أن عمارة كان وحده فى هذه الرحلة الخطيرة، حاملا كتاب الخليفة إلى ملك الروم «يتوعده بالخيل والرجال»(١٣٧).

وقد تعرض عمارة لعدة اختبارات ـ رغبة فى إفزاعه وتخويفه ـ بعد وصوله حاضرة الروم، قال: «فانتهيت إلى مكان يحجب منه الرجل على مسافة بعيدة، فجلست حتى أتى الإذن، فسرت إلى مكان آخر فجلست حتى أتى الإذن ثلاث مرات، ثم وصلت إلى داره ـ الملك ـ فأدخلت دارا، وإذا على طريقى أسدان عن جنبى الطريق، وطريقى عليهما لا أجد من ذلك بدا، فقلت: إن كان لابد من الموت فلن أموت عاجزا، فحملت نفسى، فلما صرت بينهما سكنا، فجزت

(١) مختصر كتاب البلدان، ١٣٧ ـ ١٣٩ ويلاحظ أن رقم الصفحة سيكتب بعد الاستشهاد مباشرة فيما يلى

ودخلت دارا أخرى، وإذا سيفان يختلفان على طريقى فحزرت، أنه لو مر بينهما ذبابة لقطعاها، فقلت: الذى سلمنى من الأسدين سيسلمنى من السيفين، فاستخرت الله ومضيت، فلما صرت بينهما سكنا»(١٣٧).

وبعد دخوله قصر الملك تعرض لما يشبه الألعاب السحرية، إذ كان الملك مولعا بالعجائب والكيمياء، ثم سلم الرسالة وأدى الكتاب، وقربه الملك إليه، ثم أخذ يتفاخر بما فى مملكته، بيد أن هذا التفاخر قوبل بسخرية عمارة، وقبل الرحيل أظهر الملك براعته فى الكيمياء، فحول الرصاص والنحاس إلى فضة وذهب، وكان أعجب مارآه عمارة أن الملك «كان إذا أراد أن يصرف الناس خرجت فى ظهر كل رجل كف من الحائط فتدفعه، فيعلم أنه قد أمر بالقيام» (١٢٩).

وبعد العودة «حدثت المنصور بهذا الحديث، فكان هذا الذى حداه على طلب الكيمياء» (١٣٩).

رغم قصر هذا النص فإنه متميز، حيث وصلنا بعبارات المؤلف الأصلية، كما أنه دال على شخصيته، تلك الشخصية الجريئة المقدامة الواعية بمهمتها وتمثيلها لحضارة بأكملها، تلك الشخصية التى أسرت الملك بحديثها، فرفع الكلفة فيما بينهما.

إن عمارة لم يكتف بالوصف، بل تعداه إلى النقد المتمثل فى سخريته من الملك عندما افتخر بنباتات يعتقد فى ندرتها رغم أن بعضها ـ عند العرب ـ «فى أخرب المواضع والمفاوز، وأنه مباح لمن أراده»، أو «حطب الأراذل».(١٣٨).

ورغم ذلك فهو مولع بالعجائب والغرائب، ويصل ولعه هذا إلى حد السذاجة التى قد تلازم الرحال فى ظروفه الخاصة تلك.

وقد استغل عمارة أنس الملك به، فلم يجد حرجا فى السؤال عن تفسير بعض ما صادفه، رغبة منه فى زيادة رصيده المعرفى.

وفى جلسة سمر مع المنصور حدثه عمارة بهذا الحديث، ويبدو أن المنصور طلب منه تدوينه، أو أن أحد الجلوس رأى فيه من الطرافة ما يستحق التدوين فدونه. وهذا

التدوين تم ـ بلا شك ـ بعد العودة، ولم يلتزم عمارة نهجا محددا، وإن راعى التسلسل المنطقى للأحداث، فجاءت مرتبة زمانا ومكانا.

والنص مفعم بالحركة ذات الانتقالات السريعة التى ساعدت عليها الجمل القصيرة، والأفعال الدالة على الحركة هى السائد مثل «انتهيت ـ جلست ـ سرت ـ مشيت ـ وصلت. أدخلت.. إلخ».

وهناك عدة لوحات أفلح عمارة فى رسمها كلوحة الأسدين والسيفين، ولوحة النباتات العجيبة ـ فى عرف ملك الروم ـ ثم لوحة تحويل المعادن الرخيصة إلى معادن ثمينة. وأسلوب عمارة سهل غير متكلف يقصد إلى المعنى من أقصر الطرق؛ إنه يصف أحداثا عديدة فى ألفاظ قليلة.. «ثم قمت فمشيت فانتهيت إلى الملك، فسلمت عليه ـ والترجمان بينى وبينه ـ فأديت الرسالة، وأوصلت الكتاب، فأمرنى بالجلوس، وسألنى عن الخليفة وعن أشياء من أمر الإقليم. ثم أمر بمنزل، وإقامة ما أحتاج إليه، وأمرنى بالانصراف والبكور عليه» (١٣٨) . واستخدام «إذا الفجائية» موظف للتعبير عن الدهشة التى اعترته عند رؤيته المعادن «الرخيصة تتحول إلى ثمينة»



فى الطرف الغربى من العالم الإسلامى شهد الأندلس ازدهارا حضاريا كبيرا، وقويت دولة الأمويين، حتى خطبت ودها الممالك المجاورة، راغبة فى عقد الصلح أو زيادة الروابط. عندما حدث ذلك أصبح الطريق ممهدا لتنشيط السفارات، ولعل أكثر هذه السفارات شهرة وإثارة للجدل تلك السفارات التى قام بها شاعر الأندلس المشهور «يحيى بن الحكم البكرى» الملقب بالغزال (١٥٣ ـ ٢٥٠هـ = ٧٧٠ ـ ٨٦٤م).

ذكر «ابن دحية» فى «المطرب» أن سفارة الغزال «كانت إلى ملك المجوس أى «النورمان» وذكر نفس الأحداث والأشعار التى أوردها «ابن حيان» فى «المقتبس» فى حديثه عن رحلة الغزال إلى إمبراطور القسطنطينية. وقد أثبت الأستاذ «ليفى بروفنسال» .. «أن الرحلة لم تكن إلى ملك المجوس، وأنها كانت إلى إمبراطور القسطنطينية، وأن ابن دحية قد اعتمد على عناصر خيالية، ولم يعتمد على حقائق تاريخية. على أنه لا يبعد أن يكون الغزال قد قام برحلة إلى القسطنطينية، وأخرى إلى بلاد النورمان الذين كانوا قد هاجموا الأندلس فى أيامه، والذين أسماهم بعض المؤرخين بالمجوس»[١] وتجدر الإشارة إلى أن هذا الهجوم على إشبيلية حدث عام (٢٢٩هـ = ٨٨٤م).

وقد نادى «أحد العلماء الفرنسيين منذ أمد طويل برأى مؤداه أن رحلة الغزال إلى بيزنطة هى الوحيدة التى حدثت فعلا، بينما تستند رحلته إلى «النورمان» على محض اختلاق.. بيد أنه من العسير الاتفاق مع هذا الرأى المتطرف، لأن الرحلة فى واقع الأمر تحفل بتفاصيل واقعية، بل إن شخصية الملك المذكور فى الرحلة والتى أجهد تحقيق اسمه العلماء وقتا طويلا، قد تمكن العلامة النرويجى «زايبل» من إثبات شخصيته»[٢].

افتراض أن الغزال قام برحلة أو رحلتين لن يغير من الواقع الفنى والأدبى شيئا،

(١) الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة د أحمد هيكل. دار المعارف ١٩٧٩. هامش ١١٥

(٢) تاريخ الأدب الجغرافى العربى ١٣٦/١

إذ إن النصوص قد اختلطت، ووصلنا نص واحد يمثل الرحلتين معا هو الذى أورده ابن دحية[1]. والإضافات التى يوردها المقرى فى «نفح الطيب» لاتزيد عن كونها روايات أخرى لحوادث بعينها تختلف قليلا فى تفاصيلها.

الذى لاشك فيه أن النص الأصلى لم يصلنا، وإنما وصلنا وصف مختصر لهذا النص بأسلوب ابن دحية والمقرى لا بأسلوب الغزال نفسه، باستثناء بعض النقول الصغيرة. وهذا الوصف يشى بأن النص الأصلى كان يمثل طفرة كبيرة فى أدب الرحلة عند العرب.

كان اختيار الغزال لهذه المهمة موفقا، لما كان عليه «من حدة الخاطر وبديهة الرأى وحسن الجواب والنجدة والإقدام والدخول والخروج من كل باب»[2]. يضاف إلى ذلك حبه للرحيل والسفر، فقد رحل إلى المشرق وقضى فيه مدة.

لقد كان مكلفا بتسليم رسالة الموافقة على الصلح الذى طلبه ملك النورمان، كما حمل معه بعض الهدايا فى مركب أعد له خصيصا هو وصاحبه: يحيى بن حبيب، وتعرضا لخطر الغرق فى البحر، إلا أنهما سلما، فسجل الغزال ذلك الموقف شعرا.

أراد ملك النورمان أن يهين الغزال وصاحبه بعد وصولهما إلى حاضرته، ففطن الغزال لذلك؛ وتصرف تصرفا ينم عن ذكاء من جانبه، وإهانة لملك النورمان فى الوقت نفسه؛ إذ أرسل الملك للغزال وصاحبه طالبا رؤيتهما «فاشترط الغزال عليه ألا يسجدا له ولا يخرجهما عن شيء من سنتهما. فأجابهما إلى ذلك. فلما مشيا قعد لهما فى أحسن هيئة، وأمر بالمدخل الذى يفضى إليه فضيق حتى لا يدخل عليه أحد إلا راكعا. فلما وصل إليه، جلس على الأرض، وقدم رجليه وزحف على إليته زحفة، فلما جاز الباب استوى واقفا... فقال (الملك): «هذا حكيم من حكماء القوم وداهية من دهاتهم»، وعجب من جلوسه إلى الأرض وتقديمه رجليه فى

---

(١) المطرب فى أشعار أهل المغرب. ابن دحية تحقيق/ مصطفى عوض الكريم الخرطوم ١٩٤٥هـ ، ١٣٠ - ١٣٦.

(٢) المطرب فى أشعار أهل المغرب ١٣٠ .

الدخول، وقال: «أردنا أن نذله فقابل وجوهنا بنعليه، ولولا أنه رسول لأنكرنا عليه ذلك» .. وللغزال معهم مجالس مذكورة.. في بعضها جادل علماءهم فبكتهم، وفي بعضها ناضل شجعانهم فأثبتهم»[1].

شغل الغزال من نقلوا عنه بمغامراته ونوادره مع زوجة الملك؛ فقد أعجبت به وبظرفه فاختصته بمجلس يومي تسأله ـ فيه ـ عما بدالها، وكان إعجابها به يزداد نظرا لذخيرته المتجددة من الحكايات والنوادر، وخبرته الكبيرة في معاملة النساء.

إن التفات الغزال إلى نفسه، واعتبارها موضوعا يمكن الاتكاء عليه جعل من الرحلة أدبا خالصا، فلم تحم شبهة الجغرافيا حولها؛ لأن الغزال كان يعي أنه أديب مبدع قبل كل شيء، وأن الوصف العلمي الجاف ليس من وظيفته، وخسارتنا المتمثلة في ضياع نص الرحلة الأصلي ـ لهذا ـ كبيرة.

إن هذه الرحلة الرسمية وفرت على الغزال كثيرا من المتاعب التي يعانيها الرحال في الإعداد والتجهيز والانتقال وتوفير النفقات، كما أن الأمن من الأخطار البشرية كان متحققا؛ لذا فإنه كان سعيدا بمهمته محبا لها؛ لأنها أتاحت له الفرصة لاستخدام طاقاته المعطلة، ولإثبات مهاراته المتعددة، كما أنها وفرت له فرصه إثبات ظرفه الذي يلازمه أينما حل.

لهذا انطبعت الرحلة بطابع الظرف والتلقائية وعدم التكلف أو ادعاء الوقار. إن الصراحة التي حكى بها الغزال أحداث رحلته عملة نادرة قلما تتوفر في كثير من الرحالة، ولو توفرت لاكتسبت رحلاتهم شيئا كثيرا من الاحترام والطرافة.

كان لجوء الغزال إلى حكاية بعض التفاصيل الدقيقة سببا في ازدياد قيمة رحلته الأدبية، ورغم دلك فهو لم يورد من التفاصيل إلا ما يمثل متعة أو إفادة للقارئ، وساعده على الانتقاء ذوقه الأدبي المهذب والمنقح.

ورغم أن النص الأصلي للرحلة لم يصلنا فإن معالمه الأساسية واضحة، وهي معالم تقليدية، يبدأ بالمقدمة التي توضح ظروف الرحلة وأسبابها والاستعداد لها، تم

---

(١) نفسه ١٣٢

يشرع في وصف حاضرة النورمان وما لاقاه فيها، وأخيرا يحكي ـ باختصار ـ كيف عاد من رحلته التي استغرقت عشرين شهرا.

والمحور الذي يجمع هذه الأطراف الأربعة كان الغزال نفسه الذي مثل رابط الأحداث المنطقي والطبيعي، فلم تبد مفككة أو متنافرة.

ولأن الغزال يحمل بين جنباته روح فنان واع، مضى يحكي تفاصيل رحلته لأصدقائه، بعد أن كان قد دون كثيرا منها وقت حدوثها مستخدما الشعر حينا والنثر أحيانا، بل قام بالتعليق عليها، وأجاب على بعض التساؤلات حولها. ويبدو أن الذي جمع أطراف هذه الحكاية هو «تمام بن علقمة» الذي لقي الغزال وسمع منه تفاصيلها، وسأله عن مواضع فيها، كما أدلى ببعض الإيضاحات حول الغزال وحياته.

ولابد أن الغزال قد استخدم كل مهاراته في التدوين أو الحكاية بأسلوب رشيق جذاب للقراء والمستمعين؛ فقد استخدم الشعر والنثر، كما استغل عنصر الحوار استغلالا ذكيا مكثفا، فأكسب رحلته كثيرا من الحيوية والحركة، وجعل منها رواية متسقة مشوقة رغم واقعيتها. وبذلك كله مثلت رحلة الغزال خطوة طيبة في سبيل الوصول نحو «أدب رحلة عربي» ـ رغم ضياع النص الأصلي.

* * *

ارتبطت عدة رحلات رسمية باسم الخليفة الواثق بالله (تولى ٢٢٧ ـ ٢٣٢هـ = ٨٤٢ ـ ٨٤٧م) وهى تظهر مدى شغف الخليفة بكل غريب وعجيب، حتى إن دوافعها كانت ـ فى الغالب ـ دوافع خيالية لا تستند إلى منطق سديد.

من هذه الرحلات رحلتان قام بهما محمد بن موسى المنجم (توفى عام ٢٥٩هـ = ٨٧٣) : الرحلة الأولى كانت للتأكد من وجود أهل الكهف بالقرب من عمورية، «ويميل علماء البيزنطيات إلى اعتبار هذه الرحلة واقعة تاريخية صحيحة»[1]. أما الرحلة الثانية التى شارك فيها محمد بن موسى بأمر الخليفة، فقد أرسلها إلى طرخان حاكم الخزر، وهى ترتبط برحلة «سلام الترجمان» المشهورة إلى سد يأجوج ومأجوج.

لقد أكد ابن خرداذبه على واقعية الرحلة الأولى، ونقل نصها من خلال حديث مباشر مع صاحبها[2]، أما الثانية فلم يتعرض لها بذكر، بينما ذكرها «المقدسى» فى سياق نص رحلة سلام الترجمان[3]، ولعلها كانت إضافة منه، لأن النص الأصلى الوارد فى كتاب ابن خرداذبه ـ والمنقول شفاها عن سلام نفسه ـ لم يشر إلى الرحلة الثانية.

وعلى هذا فقد وصلنا نص الرحلة الأولى فقط من خلال رواية ابن خرداذبه، ونقلها عنه من تلوه مع بعض الإضافة أو التحريف.

والنص نقله ابن خرداذبه عن محمد بن موسى نفسه، وهو يصور رحلته إلى «خرمة» التى كان يعتقد أن بها أصحاب الرقيم، تلك الرحلة التى أولاها الخليفة اهتماما خاصا ،فكتب إلى عظيم الروم طالبا منه توجيه من يرشد محمدا إلى خرمة، ففعل، ووصل محمد وغلامه إلى حيث يوجد أصحاب الرقيم، وحينئذ بدأ فى سرد ما حدث له بألفاظه مركزا على ما حدث داخل الكهف.

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافى العربى ١٣٣/١.

(٢) المسالك والممالك ١٠٦، ومعجم البلدان ٦١/٣

(٣) أحسن التقاسيم ٣٦٣، والمسالك والممالك ١٦٢.

لقد كان حارس الكهف حريصا على إبعاده عن الأجسام الموجودة بداخله، وفطن محمد إلى ذلك، فشك فى حقيقة هؤلاء، وصمم على فحصهم بنفسه مما أدى بالحارس إلى ادعاء أن من يفعل ذلك يصاب بآفة فى بدنه، فقال محمد: «دعنى أنظر إليهم وأنت برئ، فصعدت بشمعة غليظة مع غلامى، فنظرت إليهم فى مسوح تتفرك فى اليد، وإذا أجسادهم مطلية بالصبر والمر والكافور ليحفظها؛ وإذا جلودهم لاصقة بعظامهم، غير أنى أمررت يدى على صدر أحدهم، فوجدت خشونة شعره وقوة نباته. وأحضر الموكل بهم طعام، وسألنا الغذاء عنده، فلما ذقنا طعامه أنكرنا أنفسنا فتهوعنا (قئنا عمدا)، وإنما أراد أن يقتلنا أو أن يغصنا فيصح له ما كان يدعيه عند ملك الروم من أنهم أصحاب الرقيم ،فقلنا: إنما ظننا أنك تريا موتى يشبهون الأحياء، وليس هؤلاء كذلك»[1].

والظاهرة اللافتة فى هذا النص القصير ـ وأمثاله ـ أنه يفعل فعل القصة القصيرة فى عصرنا، إذ يميل إلى التركيز والتكثيف، ويبتعد عن الخلط والتشويش؛ لذا فإن التركيز على شحص الرحال ـ فى موقف ـ يشبه ما يفعله القصاصون المحدثون.

إن محمد بن موسى مكلف بمهمة رسمية عليه أن يقوم بها، ورجوعه دون تحقيقها يعرضه للعقوبة أو غضب الخليفة عليه ولومه، ومن ثم عليه استغلال كل طاقاته.

لقد كان مستنفر الحواس، حتى إنه أحصى الخطوات التى سارها فى السرداب المؤدى إلى الكهف. واستطاع ـ بسهولة ـ اكتشاف خدعة حارسه، ووسط هذا الجو المخيف قرر أن يتأكد بنفسه من الحقيقة ليدل على أن روح المغامرة فى داخله، كما أن السم لم يؤثر فى بدنه القوى، فتقيأه ـ بسرعة ـ ليعود سالما، وليخبر الخليفة بما حدث.

التمهيد القصير الذى يورده ابن خرداذبه لا يدل على أن ثمة مقدمة كانت فى النص الأصلى، ووصف رحلة الذهاب غير واف بها، والتركيز على المنطقة هدف

---

(١) المسالك والممالك ١٠٧

الرحلة. أما رحلة العودة فقد أغفلها محمد بن موسى تماما. وربما يكون ابن خرداذبه قد أسقطها لأنها لا تتعلق ـ في تقديره ـ بالغرض الذى من أجله استشهد بالنص.

بعد العودة قدم تقريرا رسميا بما حدث أثناء الرحلة ليقرأه الخليفة، كما أخبر الخليفة شفاها بكافة التفاصيل. وعندما قابل ابن خرداذبه أعاد عليه هذه التفاصيل، ودونها ابن خرداذبه بألفاظ محمد بن موسى مع بعض التصرف الذى لا يخل بالجوهر.

لغة النص مكثفة، تعرض الحقائق دون اهتمام بزينة لفظية قد تحجبها، وتستخدم الأفعال التقليدية الدالة على الحركة، كما تستخدم عنصر الحوار مما يشى بصحة الرحلة، وواقعية أحداثها.

ومن بين هذه السفارات التى خرجت بأمر الخليفة الواثق سفارة «سلام الترجمان» إلى الصين للتأكد من أن السد الذى بناه ذو القرنين لما يزل على حاله، ويبدو أن حديثها كان منتشرا ومشهورا فى العصور الوسطى.

المعلومات المتوفرة عن «سلام» قليلة، ولا تتعدى أن تكون نتفا نقلها لاحق عن سابق، فابن خرداذبه ـ وهو أوثق مصادرها ـ ينقل تفاصيل رحلته فى نص موثق، ويقدم له بقوله: «حدثنى سلام الترجمان أن الواثق بالله لما رأى فى منامه كأن السد الذى بناه ذو القرنين بيننا وبين «يأجوج ومأجوج» قد انفتح، فطلب رجلا يخرجه إلى الموضع فيستخبر خبره، فقال «أشناس»: «ماها هنا أحد يصلح إلا سلام الترجمان، وكان يتكلم بثلاثين لسانا»[1].

وهذه الثلاثون لسانا قابلة للزيادة عند غير ابن خرداذبه، فقد «حكى عن سلام الترجمان ـ وكان عارفا بألسن كثيرة، حتى قيل: إنه كان يعرف أربعين لغة ويجارى فيها ـ أنه رأى السد عيانا[2]» وادعى «ابن رسته» فى الأعلاق النفسية أن ابن خرداذبه قال: «حدثنى سلام الترجمان ـ وكان يترجم كتب الترك التى ترد على السلطان (؟) الواثق بالله قال» . [3]. والواضح أن علاقته بالواثق كانت قوية إلى درجة مكنته من الفوز بثقته، كما كان يتمتع بميزات عديدة أهمها الشباب والقوة الجسدية والذكاء والأمانة، وكان شبابه وقوته الجسدية من أسباب عودته موفور الصحة بعد الرحلة الشاقة، وبعد أن «ماتِ من الرجال الذين كانوا معنا ومن مرض منهم فى الذهاب اثنان وعشرون رجلا: من مات منهم دفن فى ثيابه، ومن مرض خلفناه مريضا فى بعض القرى، ومات فى المرجع أربعة عشر رجلا، فوردنا «نيسابور» ونحن أربعة عشر رجلا»(١٦٩).

ويبدو سلام ـ من خلال النص ـ مثقفا يساعده على ذلك معرفته الواسعة

---

(١) المسالك والممالك ١٦٢ ـ ١٦٣، ويلاحظ أن الاستشهاد بهذا النص سيصمن المتن فيما يلى.

(٢) خريدة العجائب وفريدة الغرائب عمر بن الوردى مطبعة البابى الحلبى ١٩٣٩، ١٩

(٣) الأعلاق النفسية. ابن رسته ليدن ١٩٦٧، ١٤٩

باللغات، كما يبدو مرتبا منسقا قد أعد لكل شيىء عدته، ،وما قبوله القيام بهذه المهمة إلا الدليل العملى على كونه مثقفا متعطشا للمعرفة النظرية والعملية التى تفيدها الرحلة.

وفى المواضع القليلة التى كان يتحدث فيها عن نفسه يذكر أنه كان يسأل ثم يتلقى الجواب الذى يدونه، وحتى المعلومات التى يقدمها دون النص على أنها إجابة سؤال لا يمكن إلا أن تكون كذلك، لأنه دائما يقدم لها بقوله:«ذكروا»، وإذا صح أنه ذهب بالفعل إلى هذا السد، أو إلى سور الصين العظيم ـ كما يعتقد بعض الباحثين ـ وأنه حك حديدا ليريه الواثق، فإن هذا يدل على نزعة إيجابية نشطة، ثم على ذكاء بإقامته دليلا عمليا ملموسا على صحة حجته.

وصلنا نص رحلة سلام فى رواية موثقة تضمنها كتاب «المسالك والممالك» لابن خرداذبه، وزاد من الثقة فى هذه الرواية أنه نقلها عن مصدرين: عن سلام نفسه، وعن تقرير كتبه سلام للواثق، أو كما يقول هو: «فحدثنى سلام الترجمان بجملة هذا الخبر، ثم أملاه من كتاب كان كتبه للواثق بالله»(١٧٠)

وعندما شرع المقدسى فى نقل هذه الرواية صدرها بقوله: «قرأت فى كتاب ابن خرداذبه وغيره فى قصة هذا السد على نسق واحد، واللفظ والإسناد لابن خرداذبه، لأنه كان وزير الخليفة، وأقدر على ودائع علوم خزانة أمير المؤمنين، مع أنه يقول: حدثنى سلام الترجمان أن الواثق بالله..»[١].

وقد نالت هذه الرواية انتشارا واسعا فى الأدب العربى، ورواها «الجغرافيون المتقدمون والمتأخرون مع تفاوت فى التفاصيل مثل: ابن رسته، وياقوت، وأبى حامد العرناطى، والإدريسى، والقزوينى، والنويرى وغيرهم. وحفظ لنا الإدريسى بضعة تفاصيل منها وجدت على ما يظهر فى المسودة الأصلية لابن خرداذبه التى لم تصل إليا وسقطت من موجز كتابه الموجود بين أيدينا»[٢].

هذا فيما يتعلق بمدى الثقة فى نض الرحلة، أما الرحلة نفسها ـ كحدث ـ فقد دار حولها جدل شديد، وتطرف من تعرضوا لها بين التأكيد على صحتها،

---

(١) أحسن التقاسيم ٣٦٣.

(٢) تاريخ الأدب الجغرافى العربى ١٤٠/١.

واعتبارها ضربا من الخيال، وتوسط آخرون فمنحوها بعض ـ لا كل ـ ثقتهم[١] .وقد تعرض سلام نفسه لحملة ظالمة قادها د/ حسين فوزى، مدعيا أنه حكى مشهدا غريبا لجارية تخرج من البحر، وهو فى ادعائه هذا مصدق للقزوينى الذى نقل هذا الادعاء ـ بدوره.. عن أبى حامد الغرناطى. وأبو حامد الغرناطى لم يذكر اسم سلام الترجمان مطلقا عند ذكره لهذه الرواية، وإنما قال: «ولقد حدثنى بعض التجار»[٢]، فتحول «بعض التجار» عند الغرناطى إلى «سلام الترجمان» عند القزوينى [٣]، ووجد د/ حسين فوزى الفرصة سانحة لمهاجمة سلام والسخرية الشديدة منه دون أن يكلف نفسه التحقق من صحة الواقعة، أو التثبت من النص الأصلى[٤]، وقد ذكر المسعودى هذه الحكاية أيضا دون التعليق عليها[٥].

الواضح من نهج سلام أنه لم يجنح إلى حكاية كل مشاهداته فى رحلته، وإنما اقتصر على ما هو ضرورى، ذلك أنه سيرفع تقريره إلى الخليفة الذى يهمه ـ فى المقام الأول ـ الاطمئنان على سلامة السد. لذلك فإن الاعتقاد الأقرب للصواب أن النص الذى بين أيدينا ـ فى أغلبه ـ نص التقرير الفعلى الذى قدمه سلام للخليفة، وأنه قد أثبت فى مسودات ابن خرداذبه المتأخرة، وأن المسودات الأولى قد تضمنت بعض الحكايات الشفهية التى حذفت من المسودات المتأخرة، ولكن بعد أن ذاعت المسودات الأولى .ولعل تأييدا لهذا يقدمه ابن خرداذبه حين قال: فحدثنى سلام بجملة هذا وأملاه على من كتاب كان كتبه للواثق»(١٧٠).

تسيطر البنية الرباعية التقليدية على رحلة سلام الترجمان التى تتكون من:

١ ـ مقدمة قصيرة. ٢ ـ رحلة الذهاب. ٣ ـ وصف المنطقة هدف الرحلة.

٤ ـ رحلة العودة.

---

(١) انظر. الأعلاق النفيسة ١٤٩، ومعجم البلدان ٣/ ٢٠٠ وتاريخ الأدب الجغرافى العربى١/ ١٣٩ ـ ١٤٠.

(٢) تحفه الألباب ونخبة الأعجاب أبو حامد الغرناطى. تحقيق جبرائيل فيران. باريس ١٩٢٥، ١١٩ ـ ١٢٠

(٣) عجائب المخلوقات ١٢٦

(٤) حديث السندباد القديم ١٣٥ . و الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ١٧ .

(٥) مروج الذهب ١/ ١٩٥.

والمقدمة ـ رغم قصرها ـ صورت الجو الذى كلف فيه سلام برحلته، ثم دلت على خطورتها التى قد تنتهى بموت من يقوم بها، لذا فإنه يتسلم ديته مقدما. ومن الطريف أن ينص سلام على كيفية التجهيز للرحلة؛ إذ أمر الخليفة «أن يهيأ للرجال اللبابيد، وتغشى بالأديم، واستعمل لهم الكستبانات بالفراء والركب الخشبية، وأعطانى مائتى بغل لحمل الزاد والماء» (١٦٣) فلم «يسلم من البغال التى كانت معنا إلا ثلاثة وعشرون بغلا»(١٧٠).

وفى رحلة الذهاب نص على أنهم تزودوا الكتب من الحكام إلى من يليهم مما سهل المهمة كثيرا؛ فقد كانوا يمدونهم بالنصائح والأدلة؛ فملك الخزر ـ على سبيل المثال «وجه معنا خمسة أدلاء، فسرنا من عنده ستة وعشرين يوما، فانتهينا إلى أرض سوداء منتنة الرائحة، وكنا قد تزودنا قبل دخولها خلا نشمه من الرائحة المنكرة، فسرنا فيها عشرة أيام»(١٦٣). وقد ترتب على هذا الاطمئنان وذلك التنسيق والتجهيز الدقيق ألا تمر السفارة بأخطار ينعكس أثرها على نص رحلة الذهاب، لذا جاءت خلوا من الحركة التى قد تنجم عن الترقب والقلق، وأثرت طريقة التدوين ـ إلى حد كبير ـ فى هذا. ولا يخفف من هذا الجمود إلا الموقف الحوارى بين سلام وأهل الحصن، ذلك النص الذى أورده «النويرى» بتفصيل أكبر[1].

وبعد أن يفرغ سلام من وصف منطقة السد يشرع فى وصف رحلة العودة التى تماثل ـ إلى حد كبير ـ رحلة الذهاب، ولكنها تقدم كشف حساب السفارة من المفقودين سواء أكانوا موتى أو مرضى ـ من البشر أو البغال ـ ثم يختتم بالنهاية السعيدة.. بالوصول إلى نقطة الانطلاق وطمأنة الحليفة. وبذلك تنتهى الرحلة نهاية طبيعية.

ويبدو ـ من النص ـ أن زيادات قد أضيفت إلى التقرير الأصلى الذى كان يقتصر على وصف السد فقط، بينما يمثل ما سبقه وما تلاه رواية شفهية اختص

---

(١) نهاية الأرب فى فنون الأدب. شهاب الدين النويرى دار الكتب المصرية ١٩٢٩، ٣٦٢/١.

بها سلام ابن خرداذبه، ودليل ذلك أسلوب سلام نفسه، فهو لا يتوجه بخطابه للخليفة مباشرة، ولو فعل لدل أسلوبه ـ من خلال آيات الثناء والتحفظ ـ على ذلك.

ويبدو ـ كذلك ـ أن سلاما صرح بما دونه ابن خرداذبه بعد خلافة الواثق، لأنه يتحدث عنه وكأنه ليس خليفة، خاصة أن خلافة الواثقة لم تزد على خمس سنوات قضى منها سلام عامين وثلثا فى رحلته.

إن مارآه سلام فى رحلته كثير، وإثباته ـ كله ـ يمثل عبئا لا يمكن القيام به، والاختيار ضرورى، ومجال الاختيار محدود، وسلام يعرف المطلوب منه تماما، وينفذه دون حاجة إلى توجيه.. هذا فيما يتعلق بوصف السد أو وصف المنطقة هدف الرحلة، أما ما قبل ذلك وما بعده فقد دون اعتمادا على الذاكرة، وهنا وقع سلام فى حيرة سرعان ما خرج منها لأنه اعتمد منهجين:

(أ) الاعتماد على الذاكرة التى نقحت ما اختزنه، ولم تبق إلا البارز المهم.

(ب) اتباع خط سير الرحلة دون الخروج عليه إلا لذكر شىء هام لم تسقطه الذاكرة.

إن تدوين الرحلة مر بمرحلتين: (أ) كتابة تقرير رسمى للخليفة، وقد اتسم هذا التقرير بالإيجاز الشديد والبساطة فى العرض، وعدم الخروج عن الموضوع، والدقة فى التعبير.

– التقديم والتعليق بحديث شفهى أدلى به سلام لابن خرداذبه، وقد انطبع الجزءان كلاهما بظروف تدوينهما، فجاء التقرير علميا تتضح فيه خصائص الأسلوب العلمى، بينما جاءت الأجزاء الأخرى مراعية للأسلوب الأدبى، وبخاصة فى استخدامها طريقة الحكى التى أملتها طبيعتها. ويغلب أن يكون التقرير قد كتب أثناء الرحلة نفسها فى وقت قريب من مشاهدة السد[1]، فاحتفظ بدقته الفائقة حيث استخدم لغة الأرقام التى لا تكذب، هذا بينما اعتمدت الأجزاء الأخرى على الذاكرة التى إن اثبتت شيئا أغفلت أشياء.

---

(١) نهاية الأرب ٣٦٤/١

إن حوالى خمسين رجلا رافقوا سلاما فى مهمته الصعبة، وكان حضورهم مقصورا على تحويل «تاء الفاعل» إلى «نا الفاعلين»، أو «الأنا» إلى «نحن» فى أغلب الأحيان، وقد يثور سلام على هذه السيطرة ويتذكر أنه قائد السفارة فتعود «نا الفاعلين» أو «الأنا» لتطل برأسها من جديد، وحتى فى هذه الثورات يلاحظ أنها ما تكاد تنشط إلا لتهدأ أو تخمد؛ لذا فإن تتبعا لشخصية سلام ـ من خلال النص ـ يصبح صعبا.

صحيح أن سلاما يمثل الشخصية الرئيسية، وأن الشخصيات الأخرى تقترب من أن تكون شخصيات مساعدة مساندة، إلا أن هذا، أو ذاك ـ لم يترجما عمليا خلال النص:

لقد اكتسب سلام لقب «الترجمان» لبروزه فى مجاله:

- وأسلوب المترجم أسلوب يخلو عادة من التزيين والتعقيد، ويقصد إلى المعنى مباشرة من أقصر الطرق.
- والتقرير سيرفع للخليفة؛ لذا فإنه لابد أن يتسم بالدقة والبساطة فى العرض.
- والحديث الشفهى مع ابن خرداذبه لابد أن يرتبط بالتقرير الأصلى، والوضع الطبيعى للتقرير ـ حسب خط السير ـ فى منتصف الرحلة، ومن هنا فالحديث لابد أن يكون مقدمة وتعقيبا على التقرير.
- ولا وقت ولا مجال للمقدمات التقليدية التى اعتادها كتاب ذلك العصر، بل المطلوب مقدمة قصيرة دالة.. هكذا فكر سلام.. ثم نفذ.
- والسرد فى الرحلة مبسط ودال، لا يخضع إلا لعامل واحد هو خط سير الرحلة، فلا يظهر أسلوب القفز أو الاستطراد أو التعويج.
- والأفعال المستخدمة يغلب عليها طابع الحركة، مثل: شخصنا ـ وجه ـ تزودنا ـ انتهينا ـ سرنا ـ صرنا ـ سألنا ـ أقبلنا ـ انصرفنا ـ وردنا.. إلخ.
- والمفردات ـ فى مجملها ـ سهلة، واضحة المعنى باستثناء الجزء الخاص بالسد الذى يحتاج إلى دراسة خاصة تفسر ألفاظه، وإن كانت مفهومة فى سياقها.

- وقد يبدو نسق الجملة مختلا فى بعض الأحيان.
- والخطأ النحوى شائع فى تذكير العدد وتأنيثه خاصة، وربما عاد ذلك إلى ناسخ المخطوطة أو محققها الذى يجانبه الصواب فى قراءة كثير من الكلمات ورسمها إملائيا.
- وهناك مواقف حوارية قصيرة بين سلام وبعض المسلمين وأهل السد، وهذا يؤكد الصبغة الأدبية للرحلة.

* * *

في عام ١٣٥٠هـ نشر الأستاذ محب الدين الخطيب نص «رحلة الإمام الشافعي» وحكى أنه كان كثير الأخطاء؛ ومن ثم قدم ناشره الأول البراءة من صحة بعض تفصيلاته. فغم الأستاذ لذلك، ولم يهدأ له خاطر إلا بعد أن نشرها مصححة في «المطبعة السلفية» ليقدم بذلك خدمة جليلة لقراء العربية.

ونص هذه الرحلة يستغرق ثماني سنوات كاملة، وقد راعى فيه الإمام الشافعي أن يقدم صورة معبرة عما عاناه خلالها في طلب العلم، وحفل هذا النص بكثير من اللمحات والإشارات الذكية التي تجعل منه نصا جيدا طريفا يدخل «أدب الرحلة» من أوسع أبوابه.

ودرجة الثقة في هذا النص عالية، فقد استمر الرواة في تناوله ـ شفاها وتدوينا ـ ما يزيد على الثلاثة قرون ونصف القرن، وترتفع سلسلة الرواة إلى الربيع بن سليمان الجيزي تلميذ الشافعي الذي يقول في بداية النص: «سمعت الشافعي يقول...»[١]

والنص يحكي كيف أن الإمام الشافعي خرج من مكة المكرمة ـ في طلب العلم ـ وهو لما يتجاوز أربع عشرة سنة، ورحل إلى المدينة دون استئذان أمه التي يسميها «العجوز»؛ ليصل إلى المدينة عصر اليوم الثامن، ثم يقيم في ضيافة الإمام «مالك» ثمانية أشهر يغادر بعدها إلى الكوفة، ومن ثم يطوف في العراق وأرض فارس وبلاد الأعاجم. ولما بلغ الحادية والعشرين ـ وكان حينئذ في الرملة ـ قرر العودة إلى المدينة ليرى الإمام مالكا بعد أن أصبح غنيا، فوصل المدينة عصر اليوم السابع والعشرين، ومكث بها ثلاثة أيام، ثم غادرها إلى مكة. فلما وصلها حثته أمه على إنفاق ما معه من مال ـ وكان مالك قد وهبه مالا كثيرا ـ لئلا يدخل عليها مفتخرا، ففعل، وسار بذلك الفعل الرجال على آباط الإبل، فأعجب مالك بفعله، ووعده بأن يرسل إليه مبلغا مماثلا كل عام. يختم الشافعي قائلا:

---

(١) رحلة الإمام الشافعي. نشرها محب الدين الخطيب. المطبعة السلفية القاهرة، ١٣٥٠هـ، ص٥

«وأقام مالك ـ رضى الله عنه ـ يحمل إلى كل عام مثل ما كان دفع إلى أول مرة وظيفا إحدى عشرة سنة. فلما مات مالك ـ رحمه الله ورضى عنه ـ ضاق بى الحجاز، وخرجت إلى مصر، فعوضنى الله عبد الله بن الحكم، فقام بالكلفة، فهذا جميع ما لقيت فى سفرى. فافهم ذلك يا ربيع» قال الربيع: «فسألنى المزنى إملاء ذلك بحضرته، فما وجدنا بالمجلس فرصة فما وقع كتاب السفر لأحد غيرى من أصحابه: لا حرملة ولا غيره. والله أعلم»[1].

والرحلة تبدأ بداية طيبة، إذ تضع القارىء مباشرة أمام الملابسات التى أحاطت بها، وهى بداية تعبر بوضوح عن روح وثاب يطلب العلم ويبذل فى سبيله ما يستطيع، ثم عن روح أشبع بحب الرحلة، ما يكاد يهدأ إلا لينشط. يقول الشافعى: « فارقت مكة ـ وأنا ابن أربع عشرة سنة، ولا نبات بعارضى ـ من الأبطح إلى ذى طوى، وعلى بردان يمانيان، فرأيت ركبا منيخة، وسلمت عليهم فردوا السلام. فوثب إلى شيخ كان فيهم فقال: سألت بمن ألقيت علينا سلامه إلا ما حضرت طعامنا.

وما كنت علمت أنهم أحضروا طعاما. فأجبت مسرعا غير محتشم، فرأيت القوم بدأوا يأخذون بالخمس ويدفعون بالراحة، فأخذت كأخذهم كيلا يستشنع عليهم مأكل. قال: والشيخ ينظر إلى ساعة بعد ساعة، ثم أخذت السقاء وشربت ريا، وحمدت الله وأثنيت عليه. قال: فأقبل على الشيخ وقال: مكى أنت؟ «قلت: مكى» قال: «قرشى أنت؟». قلت: «قرشى». ثم أقبلت عليه وقلت له: يا عم، بم استدللت على ذلك؟فقال: «أما فى الحضر طعام؟ ومن أحب أن يأكل طعام الناس أحب أن يأكلوا طعامه، وذلك فى قريش خصوصا».

قال الشافعى: «فقلت من أين؟» قال: «من يثرب مدينة النبى (صلى الله عليه وسلم). فقلت:« من العالم بها والمتكلم فى نص كتاب الله والمفتى بأخبار رسول الله (صلى الله عليه وسلم)؟ فقال« سيد أصبح: مالك بن أنس رضى الله عنه».

فقال الشافعى رحمه الله: فقلت: «واشوقاه إلى مالك»... فما كان غير بعيد

(٢) نفسه ٢٩

حتى قطروا بعضها إلى بعض، وأركبونى البعير الذى كانوا وعدونى بركوبه. قال الشافعى: فعلوت على ظهره، وأخذ القوم فى السير، وأخذت أنا فى الدرس، فختمت من مكة إلى المدينة ست عشرة ختمة: ختمة بالليل، وختمة بالنهار، ودخلت المدينة فى اليوم الثامن بعد صلاة العصر»[1].

فى النص شخص الشافعى واضح المعالم جليها، وإن كان أوضح تلك المعالم شعوره بالاعتزاز بنفسه، وتقديره لها باعتبارها منتمية لطبقة العلماء. وليس ذلك غريبا على صبى نشأ نشأة مرفهة، ومحوطة بكل مظاهر العناية، يعضدها نسب قرشى يفخر به الشافعى أينما حل. والصفة الثانية البارزة ذكاء الشافعى على المستويين: النظرى والعملى، فقد كان يتمتع بذاكرة قوية للغاية أكسبته احترام الآخرين وإعجابهم، كما كان يتمتع بسرعة بديهة وحضور ذهن كثيرا ما رفعا من شأنه فى مجالس العلم. وكانت النتيجة العملية لذلك كله أن عرض عليه الخليفة هارون الرشيد تقلد منصب القضاء، فرفض مفضلا أن يسيح فى طلب العلم على أن يسكن فى طلب الجاه.

وهو مع ذلك مرهف الحس، طاف بأزقة الكوفة، فرأى «أبوابا واسعة ودهاليز منقوشة بالذهب والفضة، فذكرت ضيق أهل الحجاز وما هم فيه، وقلت: «أهل العراق ينقشون بيوتهم بالذهب والفضة، وأهل الحجاز يأكلون القديد ويمصون النوى! ثم أقبل علىّ محمد بن الحسن وأنا فى بكائى»[2].

وفى موضع آخر: «أمر ـ الخليفة هارون الرشيد ـ لى بألف دينار، فما برحت من مقامى حتى قبضتها. ثم سألنى بعض الغلمان والحشم أن أصلهم من صلتى، فلم تسع المروءة ـ إذ كنت مسئولا ـ إلا أن قاسمتهم مما أنعم الله علىّ به، فخرج لى قسم كأقسامهم، وعدت إلى المسجد الذى كنت فيه ليلتى»[3].

والإشارة السابقة إلى كرمه دعمتها إشارتان أخريان، ففى الأولى «قبضت الأربعين ألفا، وخرجت من مدينة «حران» وبين يدى أحمال الدنانير والدراهم،

---

(١) رحلة الإمام الشافعى.

(٢) رحلة الإمام الشافعى، ص١.

(٣) السابق ٢٣

يلقانى الرجال وأصحاب الحديث، فمازلت أجيز كل إنسان منهم على قدر ما قسم لى ومعرفته، حتى دخلت مدينة الرملة وليس معى إلا عشرة دنانير»[1].

ويبدو حرص الشافعى على أن تكون رحلته طريفة فى تزويدها بكثير من الدقائق التى قد لا يلتفت كثيرون إلى أهمية تدوينها. إنها دقائق تكسب الرحلة شيئا من خفة الروح والواقعية. وهذه الدقائق هى التى تساعد على رسم صورة صادقة لعصرها، يقول الشافعى: «عندما أزمعت السفر، زودنى مالك بصاع من أقط، وصاع من شعير، وصاع من تمر، وسقاء فيه ماء ـ واكترى لى بأربعة دنانير، ودفع إلى باقى الدنانير، وودعنى، وانصرف»[2].

ويتصل بهذا النهج حكايتان طريفتان، أحسن الشافعى نقلهما: الأولى حدثت فى الكوفة، والثانية فى حران، فعندما وصل إلى الكوفة اتجه إلى المسجد «بعد صلاة العصر، وصليت العصر. فبينما أنا كذلك إذ رأيت غلاما قد دخل المسجد، فصلى العصر، فما أحسن أن يصلى. فقمت ناصحا لها مشفقا، فقلت له: أحسن صلاتك، لا يعذب الله هذا الوجه الجميل بالنار. فقال: أنا أظنك من أهل الحجاز، فيكم الغلظة والجفاء، وليس فيكم رأفة أهل العراق، وأنا أصلى هذه الصلاة خمس عشرة سنة بين يدى محمد بن الحسن وأبى يوسف، فما عابا على صلاتى قط. وخرج معجبا ينفض رداءه فى وجهى»[3].

وفى طريق عودته إلى المدينة دخل «حران» يوم الجمعة، «فذكرت فضل الغسل وما جاء فيه، فقصدت إلى الحمام. فلما سكبت الماء على رأسى رأيت شعر رأسى شعثا، فقلت: أحيى سنة فى سنة. فدعوت المزين، فلما بدأ فى رأسى وأخذ القليل من شعرى دخل قوم من رؤساء البلد، فسارع إلى خدمتهم وتركنى. فلما قضوا ما أرادوا منه عاد إلى ما أردته، وخرجت من الحمام، فدفعت إليه أكثر ما كان معى من الدنانير، وقلت له: خذ هذه، وإذا وقف بك

(١) رحلة الإمام الشافعى ٢٣ .

(٢) السابق ١٢.

(٣) نفسه ١٣

غريب فلا تحقره»[1].

والرحلة تتسم بطابع الالتزام، فالخلط الزمانى والمكانى منتفيان، والاستطراد لامكان له، وقد مهد ذلك الالتزام للتمسك ببنية تقليدية، ذات أربع وحدات:

١ ـ مقدمة قصيرة للغاية.

٢ ـ رحلة ذهاب، وهدفها المبدئى الوصول للمدينة المنورة، ولكن مالبث هذا الهدف أن اتسع زمانا ومكانا.

٣ ـ وصف المناطق التى زارها وصفا ذاتيا من خلال تجاربه الشخصية.

٤ ـ رحلة العودة والخاتمة.

وليس الالتزام بتلك البنية عجزا عن الابتكار أو الاختراع؛ فالشكل الخارجى لا يحدد قيمة الرحلة بمفرده، إنما يتحكم فى ذلك الوحدات الصغيرة، والروح السائدة فيها.

وقد اعتمد الإمام الشافعى فى حكايته لتفاصيل رحلته على الذاكرة، وليس ثمة ما يحول دون ذلك فى حال كون الرحال قوى الذاكرة. وقد أملاها فى مطالع القرن الثالث الهجرى على تلميذه الربيع بن سليمان الجيزى، ومن ثم رواها تلميذه لغيره.

ولأن الإمام الشافعى عالم فذ، فقد كان أمر تمكنه من أدواته الفنية مفروغا منه؛ ولذا فإن الرحلة ـ التى وصلتنا بألفاظه ـ لا يبين فيها خلل أو تفاوت، بل يبدو أسلوبها منطقيا متلائما مع طبيعتها، ينم عن روح صاحبها المتدفقة رقة وعذوبة، وفخرا واعتزازا وذكاء لماحا، وخبرة تفوق - بلا شك ـ المرحلة السنية التى تمت فيها الرحلة. وطبيعى بعد ذلك أن يكون الأسلوب متميزا، مليئا بالتعبيرات الطريفة التى تقف دليلا على تمكنه من لغته، وتصرفه فيها، يقول ـ مثلا ـ «وجلس كل واحد منا فى مصلاه يسبح الله، إلى أن طلعت الشمس على رءوس الجبال كالعمائم على رءوس الرجال»[1]. وقوله: «لو سألتنى يا

---

(١) رحلة الإمام الشافعى ٢٨ ـ ٢٩

أمير المؤمنين، أن أفتح باب القضاء بالغداة وأغلقة بالعشى - بنعمتك هذه - ما فعلت ذلك أبدا». (١٩) وقوله: «فلما وصلت إلى الحرم، خرجت العجوز - رحمها الله تعالى - ونسوة معها، فلقيتنى وضمتنى إلى صدرها، وضمتنى عجوز كنت آلفها وأسميها خالتى... وقالت لى: هيهات، تخرج من مكة بالأمس فقيرا لا مال لك، وتعود إليها مثريا، مفتخرا على ؟!» (٢٨).

وحرصا على إضفاء الحيوية على الرحلة أمدها الإمام الشافعى بمواقف حوارية: طويلة حينا، وقصيرة أحيانا، ترك فيها الباب لأطرافها لتعبر عن ذواتها، دونما تدخل أو تحيز أو مصادرة.

وسواء أخرجت الرحلة فى طلب العلم، وانعكس ذلك فيها، أو لم ينعكس، فالمؤكد أنها كانت على مستوى المسئولية الحضارية، فقدمت نموذجا يمكن احتذاؤه. ولو تعهد نموذج كهذا وطور لوفر على أدب الرحلة وقتا كبيرا أضاعه فى البحث عن هوية.

* * *

-٦-

إن المحدثين قد أسهموا بنصيب وافر في تثبيت الرحلة كأساس علمي ضروري، ولم يقتصر دورهم على هذا فحسب، بل أسهموا في إنضاج «أدب الرحلة» بإنتاج نماذج طيبة منه. وكان الدافع لإنتاجها رغبتهم في بيان مدى ما كانوا يعانون في سبيل جمع الحديث الشريف.

ثمة نموذج لهذا الإنتاج يمكن أن يعد مثالا، يحكي قصة رحلة قام بها الإمام الرازي، وهي تمضي على النحو التالي:

«لما خرجنا من المدينة من عند داود الجعفري؛ صرنا إلى الجار (مدينة على ساحل البحر الأحمر) وركبنا البحر، وكنا ثلاثة أنفس: أبو زهير المرور وذي شيخ، وآخر نيسابوري. فركبنا البحر وكانت الريح في وجوهنا، فبقينا في البحر ثلاثة أشهر، وضاقت صدورنا، وفني ما كان معنا من الزاد، وبقيت بقية، فخرجنا إلى البر، فجعلنا نمشي أياما على البر حتى فني ما كان معنا من الزاد والماء، فمشينا يوما وليلة لم يأكل أحد منا شيئا ولا شربنا، واليوم الثاني كمثله، واليوم الثالث. كل يوم نمشي إلى الليل، فإذا جاء المساء صلينا وألقينا بأنفسنا حيث كنا، وقد ضعفت أبداننا من الجوع والعطش والعياء، فلما أصبحنا اليوم الثالث جعلنا نمشي على قدر طاقتنا، فسقط الشيخ مغشيا عليه، فجئنا نحركه وهو لا يعقل، فتركناه ومشينا ـ أنا وصاحبي النيسابوري ـ قدر فرسخ أو فرسخين، فضعفت وسقطت مغشيا علي، ومضى صاحبي وتركني، فلم يزل هو يمشي إذ أبصر من بعيد قوما قد قربوا سفينتهم من البر، ونزلوا على بئر موسى (صلى الله عليه وسلم) فلما عاينهم لوح بثوبه إليهم فجاءوه معهم الماء في إداوة، فسقوه وأخذوا بيده.

فقال لهم: الحقوا رفيقين لي قد ألقوا بأنفسهم (هكذا) مغشيا عليهم، فما شعرت إلا برجل يصب الماء على وجهي،و ففتحت عيني فقلت: «اسقني» فصب من الماء في ركوة أو مشربة شيئا يسيرا، فشربت ورجعت إلى نفسي. ولم يروني ذلك القدر، فقلت: «اسقني». فسقاني شيئا يسيرا. وأخذ بيدي، فقلت:

ورائى شيخ ملقى، قال: «قد ذهب إلى ذاك جماعة، فأخذ بيدى، وأنا أمشى أجر رجلى، ويسقينى شيئا بعد شيء، حتى إذا بلغت إلى عند سفينتهم، وأتوا برفيقى الثالث الشيخ، وأحسنوا إلينا أهل السفينة فبقينا أياما حتى رجعت إلينا أنفسنا.

ثم كتبوا لنا كتابا إلى مدينة يقال لها «راية» إلى واليهم وزودونا من الكعك والسويق والماء. فلم نزل نمشى حتى نفذ ما كان معنا من الماء والسويق والكعك، فجعلنا نمشى جياعا وعطاشا على شط البحر، حتى وقعنا إلى سلحفاة قد رمى بها البحر مثل الترس، فعمدنا إلى حجر كبير، فضربنا على ظهر السلحفاة فانفلق ظهرها، وإذا فيها مثل صفرة البيض، فأخذنا من بعض الأصداف الملقى على شط البحر، فجعلنا نغترف من ذلك الأصفر فنتحساه، حتى سكن عنا الجوع والعطش.

ثم مررنا وتحملنا حتى دخلنا مدينة الراية، وأوصلنا الكتاب إلى عاملهم، فأنزلنا فى داره، وأحسن إلينا، وكان يقدم إلينا كل يوم القرع، ويقول لخادمة: «هاتى لهم باليقطين المبارك» ،فيقدم إلينا من ذاك اليقطين مع الخبز أياما. فقال واحد منا بالفارسية «لا تدعوا باللحم المشئوم». وجعل يسمع الرجل صاحب الدار. فقال: «أنا أحسن بالفارسية؛ فإن جدتى كانت هروية» فأتانا بعد ذلك باللحم. ثم خرجنا من هناك، وزودنا إلى أن بلغنا مصر»[1] .

النص طريف، يركز على رحلة قام بها ثلاثة من المدينة إلى مصر، استغرقت قرابة الأربعة أشهر، عارضا لما لا قوه من متاعب أثناءها كادت تودى بهم.

ولأنه يحكى حكاية ذاتية، فقد برز فيه شخص الإمام الرازى، الذى حرص على أن يكون رفيقاه فارسيين مثله، كما حرص على ذكر الدقائق والتفاصيل التى ترفع من شأن الرحلة. كما يبدو فيه الالتزام بخط سير محدد، وبفترة زمنية محددة.

فالأصدقاء الثلاثة خرجوا من المدينة المنورة، وقد تزودوا بالماء والزاد، واتجهوا

(١) الرحلة فى طلب الحديث: الخطيب البغدادى تحقيق/ نور الدين عتر. دار الكتب العلمية بيروت ـ ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م. ص ٢١٤ ـ ٢١٦

لى «الجار» حيث ركبوا مركبا فى عكس اتجاه الريح، فضلوا فى البحر لمدة ثلاثة أشهر. ثم وصلوا إلى البر بعد أن نفد زادهم، وأوشكوا على الموت، لولا إنقاذ سفينة رست على البر ـ مصادفة ـ لهم، ومن ثم واصلوا الرحلة، ليقعوا فى المأزق نفسه، ولكن عناية الله تحوطهم حتى يصلوا إلى مدينة الراية. ويقضون فترة هنالك، ثم يواصلون السير إلى مصر.

وأثناء ذلك يصف الرازى نفسه بنفسه، فيتابع التغيرات الطارئة عليها مع كل تقلب وتحول، دون أن يرفع من شأنها، أو يحط منه، ودون أن يلجأ إلى خياله يمتطيه فيدعى بطولة زائفة. وليس ثمة ما يمنع أن يعبر عن سروره بحادثة فكهة، تتمثل فى طلبهم اللحم من مضيفهم بحيلة طريفة.

وطبيعى أن تتكون هذه الرحلة القصيرة ـ الكاملة فى آن ـ من وحدات معتادة تتمثل فى المقدمة، ثم الرحلة ومتاعبها، ثم الوصول إلى مصر. وبذلك تكون قد وصلت إلى نهايتها. وطبيعى ـ كذلك ـ أن صاحبها لم يدونها أثناءها؛ فقد كان فى حالة لا تسمح له بذلك وإنما رواها بعد عودته إلى مستقره، ولذلك قدم لها ابنه بقوله: «سمعت أبى يقول». ولعل الظاهرة الواضحة فى هذه الرحلة السهولة المطلقة فى أسلوب الرازى، تلك السهولة التى تصل إلى حد الركاكة أحيانا، ولعل مرد ذلك كونه فارسى الأصل، واحتفاظه بلغته الأصلية مع العربية، مما أدى إلى تأثر كل منهما بالأخرى.

وهذه السهولة ليست فى غير صف الرحال، بل إنها مطلوبة طالما عبرت بصدق عما مر به أثناء رحلته. ولأنها تعبر عن التلقائية التى لا تخفى وراءها حقيقة.

وقد نتج عن هذه السهولة تعبيرات صادقة طريفة مثل: «كانت الريح في وجوهنا»، و«لما أصبحنا اليوم الثالث جعلنا نمشى على قدر طاقتنا» و«فأخذ بيدى وأنا أمشى أجرُّ رجلى» و«أحسنوا إلينا أهل السفينة، فبقينا أياما حتى رجعت إلينا أنفسنا» ولعل الموقفين الحواريين فى هذا النص القصير يضفيان عليه كثيرا من الحيوية ويقربانه من «أدب الرحلة».

لقد وصف الإمام الحاكم أهل الحديث وصفا يكاد ينطبق على الإمام الرازى وصاحبيه؛ فهم «قوم آثروا قطع المفاوز والقفار على التنعم فى الدمن والأوطان، وتنعموا بالبؤس فى الأسفار مع مساكنة أهل العلم والأخبار، وقنعوا عند جمع الحديث والآثار بوجود الكسر والأطمار. قد رفضوا الإلحاد الذى تتوق إليه النفوس الشهوانية، وتوابع ذلك من البدع والأهواء والمقاييس والآراء والزيغ. جعلوا المساجد بيوتهم، والأساطين تكاهم وبواريها فرشهم»[1].

(١) الرحلة فى طلب الحديث ٢٢٠-٢٢١.

-٧-

فى عـام (٢٨٨هـ= ٩٠٠م) تخلص الرحـال العـربى «هارون بن يحـيى» من أسره، واستغل فرصة وجوده فى أوربا فزار عدة بلاد فيها، ثم قدم وصفا مفصلا للقسطنطينية -حيث كان أسره- ووصفا مختصرا لهذه البلاد.

والخدمة الجليلة التى قدمها ابن رسته تمثلت فى حفظه قطعة كبيرة من وصفه، وكان هارون بن يحيى قد وقع فى أيدى قراصنة من أهل «أطالية» بآسيا الصغرى، وذلك قرب «عسقلان» بفلسطين فساقوه بحرا وبرا إلى القسطنطينية، وامتدت إقامته بعض الوقت زار خلاله «روما» عن طريق «سلانيك» كما زار أيضا أرض الصقالبة والبندقية[1].

وادعى «كراتشكوفسكى» أنه «إذا كان وصفه للقسطنطينية لايخلو من معلومات هامة طريفة تقوم على الملاحظة المباشرة، فإن وصفه لروما -على عكس ذلك- يقتصر على إيراد العجائب، ويمثل رواية نقلية ترتفع إلى مصادر مسيحية شرقية»[2].

وهارون يحكى ما يدل على وصوله الفعلى إلى روما، فقد لاحظ أن «أهل روما -صغيرهم وكبيرهم - يحلقون لحاهم كلها لايتركون منها شعرة واحدة على أذقانهم، ويحلقون وسط هاماتهم، فسألتهم عن السبب فى حلق لحاهم، وقلت لهم: إن زين الرجال فى اللحى، فما مرادكم من هذا الذى تفعلونه بأنفسكم؟! فقالوا: «إن كل من لم يحلق لحيته ليس نصرانيا خالصا»[3].

والنص الذى يورده ابن رسته شبه كامل؛ لأن حلقاته متصلة؛ إذ يبدأ بذكر ظروف الأسر وملابساته، والطريق الذى سلكه حتى وصل إلى القسطنطينية، ومن ثم يشرع فى وصف المدينة وصفا مفصلا ويركز على وصف قصر الملك وكنيسته الخاصة، ثم يصف الكنيسة العامة، كما يؤكد على حسن معاملته للأسرى المسلمين.

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافى العربى ١٣٥/١.

(٢) تاريخ الأدب الجغرافى العربى ١٣٥/١

(٣) الأعلاق النفيسة ١٢٩-١٣٠.

في ثنايا ذلك يذكر بعض العجائب والطلاسم التي لفتت انتباهه، وبعد افتكاكه يواصل سيره محاولا وصف كل البلاد التي يمر بها مشيرا إلى دياناتها وعادات أهلها، إلى أن يصل إلى روما، فيفيض في وصف كنيستها وبعض عجائبها، ومن ثم يصل إلى فرنسا فبريطانيا التي ليس وراءها عمران - فيما يرى.

ورغم دقة هارون في الوصف فإن ولعه بالعجائب سيطر عليه، فجعله يتخيل بعض الأحداث الغريبة التي ربما يكون قد سمعها ولم يرها، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على سلامة طوية، بيد أنه قد يرى الشيء الغريب فلا يبهر به، وإنما يبحث عن تفسيره، حدث هذا في موضعين.

وقد كان هارون من السماحة بمكان؛ فقد أدى حياده إلى وصف هؤلاء الذين زارهم وصفا حسنا، ذاكرا فضائلهم ومتغاضيا عن عيوبهم، ومركزا على أن أسرى المسلمين كانوا يعاملون معاملة حسنة مميزة.

ورسم هارون أكثر من لوحة بدقة، كلوحة قصر الملك، وسباق الخيول في ساحته، ولوحة كنيسة القصر، ولوحة خروج الملك إلى الكنيسة العامة، وكذا كنيسة روما.

لقد أيقظ هذا الخروج غير المتعمد روح الرحال في نفس هارون؛ فلم يكتف برؤية القسطنطينية، وإنما شرع في التجول ليرى ما وسعته الرؤية وما أسعفته قدراته.

ويبدو أن ابن رسته قد اختصر المقدمة التي كتبها هارون في الأصل، وحكى مجملها من أجل الوصول -بسرعة- إلى وصف القسطنطينية وروما، بيد أن هذا الاختصار لم يقض تماما على تفاصيل رحلة الذهاب التي ذكر بعضها، وكان التركيز على وصف القسطنطينية وروما الغرض الرئيس من التدوين، وقد طغى هذا الغرض على ما سواه؛ فلم يتحدث هارون عن رحلة العودة، وربما يكون ابن رسته قد حذفها لأنها خروج عن موضوعه، وتكرار لما سبق -فيما يظن.

وخصوصية المكان طغت على خصوصية الزمان، فبرز اهتمامه بالمكان، بينما اقتصر اهتمامه بالزمان على ذكر بعض المسافات -الزمنية- بين المدن بالأيام.

والدقـة التى يصف بهـا القـصـور والكنائس والمدن توحى بأنه قـد دون تلك الأوصاف أثناء رحلته فى شكل مذكرات، ثم ضمها مضيفا إليها وصف بعض البلاد التى زارها معتمدا على ذاكرته.

والضمير المستخدم يترواح بين «الأنا» و«النحن» و«الأنت».

وأسلوب هارون سـهل مبسط لاتَعَمُّل فـيـه ولاتكلف ولاتزيد، وإنما الهـدف الأسمى توصيل المعلومات مباشرة.

ولغة الأرقام خير ما يؤدى هذا الغرض، ويبدو أن هارون كان مولعا بالإحصاءات، ولذا فإن كما كبيرا من الأرقام متضمن فى النص.

وهناك بعض الأخطاء -النحوية خاصة- التى ربما عادت للمحقق نفسه.

والجزء الأول الذى يتحدث فيـه هارون عن نفسـه فى رحلة الذهاب مفـعم بالحيوية، وقد انعكس ذلك على الأفعال المستخدمة مثل: خرجنا- مشينا - انتهينا- ركبنا.. إلخ. وهذه الحركة ما تلبث أن تهدأ حين يشـرع فى وصف المدن والكنائس.

وقد يحكى هارون بعض المفردات الأجنبية، ليدلل على معرفته بلغات متعددة وعلى واقعية رحلته.

-٨-

تمثل رحلة ابن فضلان -أو رسالته- خطوة طيبة نحو الاستقلال الذاتي لأدب الرحلة العربي عن الجغرافيا؛ فقد كانت بمثابة طفرة كبيرة وثورة على الخلط بينهما.

المعلومات المتوفرة عن ابن فضلان شديدة الندرة، فمن غير المعروف: أين ولد؟ ولامتى ولد؟ ولاكيف نشأ، ولا أين عاش مراحل حياته الأولى؟ ولا أى المناصب تقلد؟ وهل له نتاج أدبى أو علمى سوى رسالته؟ وفى أى الفروع؟

إن علامات استفهام كثيرة تحيط ابن فضلان وحياته؟ ولايعرف عنه سوى أنه: «أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد مولى محمد بن سليمان ثم مولى لأمير المؤمنين، فهو من العجم الموالى لهذا الزمان، والمؤلف -ابن فضلان- فى رسالته يدعونا إلى الاعتقاد بغير ذلك، فينقل إلينا قول ملك الصقالبة يخاطبه -معرضا بأصحابه فى الرحلة: إنما أعرفك أنت، وذلك أن هؤلاء قوم عجم. فهل يريد بذلك أنه عربى اللسان؟ أم عربى الجنس؟ أم أن الملك يجهل أصله فدعاه كذلك؟»[(١)].

ليس ثمة ما يمنع كون ابن فضلان أعجمى المولد والنسب، عربى المربى والانتماء، وأن تكون هذه النشأة قد هيأت له الإلمام ببعض المعارف السائدة فى عصره، مما أهله للالتحاق بالخدمة فى دار الخلافة والتقلب فى وظائفها المختلفة.

فى عام (٣٠٩هـ= ٩٢١م) صدر مرسوم الخليفة العباسى المقتدر بالله بتكوين سفارة إلى ملك الصقالبة على النحو التالى.

١ - الرسول: سوسن الرّسى (نسبة إلى نهر الرّس)، ولعله كان القائد الفعلى للسفارة.

٢ - قارىء الكتاب، ومُسلِّم الهدايا، والمشرف على الفقهاء والمعلمين: أحمد بن فضلان.

---

(١) رسالة ابن فضلان . تحقيق د/ سامى الدهان دمشق ١٩٥٩. المقدمة ٩٣.

٣ – غلامان: تكين، وهو غلام ذو أصل تركى، وبارس الحاجب غلام إسماعيل ابن أحمد صاحب خراسان[1].

٤ – حامل الأموال: أحمد بن على بن موسى الخوارزمى الصعلوكى الذى يذكر المسعودى أنه كان أميرا[2].

٥ – الفقيه والمعلم وعدد من الغلمان، وقد عادوا جميعا إلى بغداد خوفا من مخاطر الطريق.

وصحب هؤلاء «عبدالله بن باشتو» رسول ملك الصقالبة فى طريقه للعودة.

وكان السفير بين الخليفة وملك الصقالبة هو «نذير الخرمى»، والسفير هنا بمعنى الوسيط. وقد تخلف عن السفارة الفقيه والمعلم والغلمان التابعون لهما، ثم تخلف أحمد بن على قهرا، وواصل الرحلة خمسة نفرهم: سوسن الرسى، وأحمد ابن فضلان، وعبدالله بن باشتو، والغلامان: تكين وبارس – إضافة إلى الحاشية المصاحبة لرسول ملك الصقالبة.

والشائع عن ابن فضلان أنه كان فقيها، وهذا الاعتقاد نتج عن خطأ فى الاستدلال من قبل بعض الباحثين الذين تتبعوا حركات وسكنات وأفكار ابن فضلان فى رحلته، بيد أن طبيعة المهمة التى تولاها تدل على أنه كان إداريا فى المقام الأول، خاصة أنه قد أُسند إليه –كما يقول– الإشراف على الفقهاء والمعلمين، وتسليم الهدايا، وقراءة الكتاب. والمهمة الأخيرة تغلب كونه موظفا بديوان الرسائل بدار الخلافة[3].

وقد أوقع هؤلاء فى الخطأ قيامه بدور الفقيه الذى تخلف عن السفارة خوفا من البرد، وهو دور فرض عليه، وساعد على قيامه به ثقافته المتنوعة والتزامه تعاليم دينه. ومما تجدر الإشارة إليه أن ابن فضلان كان قادما من «بغداد» عاصمة الخلافة، وكانت بغداد –آنذاك– فى عصرها الذهبى، لذا كان الشعور بالتفوق ملازما له

(١) انظر فى (بارس) المسالك والممالك للإصطخرى ١٦٤.
(٢) مروج الذهب ٣١١/٤.
(٣) رسالة ابن فضلان ٦٨.

ثناء الرحلة، وكان لايفتأ يقارن ما يراه بما رآه فى بغداد، فيرى الفرق شاسعا، ومن ثم كانت معاملته المتعجرفة لملك الصقالبة وغيره ممن قابلهم، وكان كم دهشته كبيرا؛ لأنه لم يكن يظن أن هناك شعوبا متخلفة إلى هذا الحد، وانعكست هذه الدهشة جلية فى نص الرحلة، فجاءت طريفة فى مجملها.

نالت رسالة ابن فضلان شهرة كبيرة فى عصرها والعصور التالية، كما لقيت اهتماما كبيرا فى العصر الحديث، وكان هذا الاهتمام -قديما وحديثا- دليلا على مكانتها السامية.

ذكر ياقوت أن «قصة ابن فضلان وإنفاذ المقتدر له إلى بلغار مدونة معروفة مشهورة بأيدى الناس، رأيت منها عدة نسخ»[١].

واعتمادا على النص المدون للرحلة نقل جغرافيون ورحالة تالون لابن فضلان نصوصا مع الإشارة إلى مصدرها حينا، وإغفال ذلك أحيانا، أو الإشارة إليه بكلمات مبهمة؛ فالإصطخرى نقل عن ابن فضلان كثيرا،[٢] وأضاف بعض المعلومات، مما أحدث لبسا فى بعض النسخ، فأضيف إليها نص من نصوص الإصطخرى على أنه لابن فضلان. وقد فطن محقق الرسالة إلى ذلك، فنقل نص ابن فضلان عن ياقوت بعد تخليصه من إضافات الإصطخرى، وذيل به رسالة ابن فضلان. نقل الإصطخرى عن ابن فضلان، ونقل ابن حوقل -بالتالى- عن الإصطخرى، وكذلك نقل المسعودى والبكرى وغيرهم عن ابن فضلان مباشرة، أو «لعلهم نقلوا جميعا عن «الجيهانى» -الوزير السامانى المشهور -وقد ألف كتابه بعد سنة (٣١٠هـ= ٩٢٢م)- أى بعد رجوع ابن فضلان من رحلته، وكتاب «الجيهانى» ضاع ولم يصلنا لنوازن بينه وبين مؤلفنا.. ابن فضلان»[٣] ومعروف أن الجيهانى قابل السفارة أثناء ذهابها، وأكرم أعضاءها، فقد تقدم -على حد تعبير ابن فضلان-بأخذ دار لنا، وأقام لنا رجلا يقضى حوائجنا ويزيح عللنا فى كل ما نريده»[٤]. ومن الطبيعى أن يقابل ابن فضلان. ولشهرة رسالة ابن فضلان

---

(١) معجم البلدان ٨٨/١.

(٢) قارن بين المسالك المسمالك ١٣١-١٣٢، ورسالة ابن فضلان ١٢٦، ١٣١

(٣) رسالة ابن فضلان ٥٥.

(٤) السابق ٧٦.

وطرافتها تناولتها الأيدى بالتعديل والتحريف المتعمد وغير المعتمد حتى إن «بروكلمان» ادعى أن صاحب معجم البلدان نقل عن مختصر لرسالة ابن فضلان[1].

ومع بدايات القرن التاسع عشر الميلادى (الثالث عشر الهجرى) أحس المستشرقون بأهمية هذه الرسالة، فمضوا يعنون بها دراسة وتعليقا وترحمة وتحقيقا وجمعا لنصوصها، وكان للروس عناية خاصة بها، حتى زادت البحوت حولها عن العشرين[2].

وكانت خدمة جليلة قدمها للأدب العربى الدكتور سامى الدهان، حين حققها ونشرها لأول مرة فى العالم العربى، فكان عمله إعادة كتف وبعث لها.

واعتمادا على النص المحقق ظهرت إشارات -لادراسات- قليلة فى العربية تشهد بمدى التفريط فى حق هذه الرسالة.

ولعل من نافلة القول التأكيد على أنه لم «يقم أدنى ريب حول صحة نسبة الرسالة إليه -إلى ابن فصلان- وإذا كان البعض قد أبدى ارتيابه من وقت لآخر بشأنها -كما فعل عالم الآثار «اسبتزن» - فإن ذلك يمس فى العادة بعض التفاصيل، ولايثبت على محك النقد الدقيق»[3].

* * *

«ألمش بن يلطوار» ملك الصقالبة سياسى ماهر، رأى الاستعانة بسلطان خليفة المسلمين المعنوى فى مواجهة عدوه ملك الخزر «خاقان الأكبر»، فأعلن إسلامه، وأرسل سفارة بقيادة «عبدالله بن باشتو» حاملا كتابا إلى الخليفة، وكان الذى نعهد بالتوسط لدى الخليفة هو «نذبر الخرمى».

وصل الكتاب إلى الخليفة، ورأى الاستجابة لنداء ملك الصقالبة، فأرسل -إليه- سفارة بقيادة «سوسن الرسى» مولى «نذير الخرمى» وكان ابن فضلان أحد أعضائها

(١) تاريخ الأدب العربى «بروكلمان» ترحمة د/رمصان عد التواب دار المعارف ٢٤٢/٥
(٢) انظر. رسالة اس فصلان ٤٤-٤٩، وتاريح الأدب الجعرافى العربى ١٨٦/١ - ١٨٧
(٣) تاريح الأدب الحعرافى العربى ١٨٧/١

البارزين، فقد كلف بقراءة كتاب الخليفة، وكتاب وزيره «حامد بن العباس» وكتاب «نذير الخرمى» كما كلف بتسليم الهدايا، والإشراف على الفقهاء والمعلمين والغلمان.

استغرقت الرحلة أحد عشر شهرا ذهابا، ومثلها -تقريبا- عودة، وتوسط هاتين الفترتين فترة ثبات واستقرار استغرقت ستة أشهر.

وفترة بهذه الطول الزمانى -والاتساع المكانى- مر فيها ابن فضلان بمراحل ومشاهد ومواقف كثيرة وغنية، خاصة أنها تمت بين أناس محتلفين فى اللغة والعادات والتقاليد، وربما العقيدة أيضا، ولأماكن تختلف فى طبيعتها عن بلاده التى كان يعيش فيها.

مالا يعرفه مواطنوه عن هذه البلاد كثير يستحق التدوين والتنويه، وإذا دون فإنه يحتاج إلى وقت وجهد يسترجع فيهما -ثم يدون- ما مربه، وهنا يضطر الرحال للانتقاء والاختيار. ولابد -حينئذ- أن يقع فى حيرة: فأى المواقف يثبت؟ وأيها يغفل؟ الحيرة مبعثها أنه يتوجه بكتاباته إلى جمهور -لا إلى خاصة- وهو مطالب بإرضاء ذوق الجمهور، وليس معنى إرضاء الذوق تملقه، بل محاولة الموازنة بين ما يرضى الجمهور ويريده، وبين مالا يرضيه ولكن لابد منه. وله أن يتوسل -فى تحقيق هدفه- بالحرية المتاحة فى استخدام الأدوات والأنواع الأدبية المختلفة وذوق الرحال هو المتحكم فيما يختار وما يغفل.. ومن ثم ما يدون ومالا يدون.

شغل ابن فضلان بالمذاهب السياسية والاجتماعية والعقدية مرتبطة بالزمان والمكان: من الطبيعى أن يهتم بأمور السياسة؛ لأنه فى مهمة سياسية، وطبيعى اهتمامه بأمر العقيدة عند من يزور، ولكن هذه الأمور لاتذكر إلا مرتبطة بالنسق الاحتماعي الذى أفرزها، لذا فهى أقرب للأعراف الاجتماعية منها للعقائد الفكرية المنظمة.

الحديث عن السياسة -عند ابن فضلان- غير مباشر، ولكنه هام لعصره وعصرنا كليهما:

أما أهميته لعصره فلكونه يستكمل صورة الكرة الأرضية، خاصة فى هذا المكان

المجهول، لذا فإن وصف الأتراك والصقالبة والروس والخزر -وصف معاينة- يكتسى أهمية كبرى يحسها مخططو وواضعو سياسات الخلافة الإسلامية آنذاك. وفى هذا الإطار يمكن تفسير ميل بعض الباحثين لكون رسالة ابن فضلان -فى الأصل- تقريرا رفعه للخليفة.

أما أهميته لعصرنا فتتمثل فى إزاحة الستار عن تلك الفترة المجهولة من تاريخ البقاع التى زارها، ووصفها وصفا واقعيا يكاد يكون المصدر الوحيد الموثوق به لتأريخ هذه الفترة تأريخا شاملا.

استأثر البعد الاجتماعى بالجزء الأكبر من اهتمام ابن فضلان الذى لم ينس -للحظة ـ أنه إنسان، وهو- مهتما بهذا البعد- يتفاعل معه تفاعلا يكاد يكون ذوبانا، وهو ـ كذلك -لايركز عدساته على الطبقة العالية فحسب، وإنما يستهويه أولئك البسطاء العاديون، وقد كان هذا النحو سببا فى صدق تصويره للواقع إلى حد بعيد. لقد ضم معرضه -المتمثل فى رسالته- صورا حية لواقع أحسه.

هو لايقف من الواقع موقف مصور يكتفى بالحكاية الآلية، إنه يضفى لمسات خاصة تكسبه مذاقا جديدا؛ إذ كل موقف اجتماعى يقابله رد فعل: إنكار.. استفهام.. موافقة.. سخرية.. دون أن يصدر حكما أو تقويما يمكن اعتباره محاولة لتشكيل ضمير القارئ. إذا وجد أفراد قبيلة «الباشغرد» يتخذون من رمز بعينه تمثالاً إلهاً، طلب من الترجمان الاستفسار عن المغزى.. وإذا رآهم يعبدون «الكراكى» ألح فى السؤال حتى يتعرف السبب. وإذا رأى نظام ملك الصقالبة أثناء الطعام وافقه عليه موافقة ضمنية.. إنه سيأكل حتى الشبع، وله بعد ذلك أن يحمل ما تبقى على مائدته إلى منزله. ورأى الترك -كلهم ـ ينتفون لحاهم ويتركون أسبلتهم، فربما «رأيت الشيخ الهرم منهم، وقد نتف لحيته وترك شيئا منها تحت ذقنه وعليه البوستين -فإذا رآه إنسان من بعيد لم يشك أنه تيس»[1] . إنها وجهة طريفة فى نقدهم والسخرية منهم، تلك السخرية التى تزيد عند وصفه لرؤسائهم البلهاء الذين

---

(١) رسالة ابن فضلان ١٠٠.

يتحولون من رأى إلى نقيضه -فى لحظة- مقابل هدايا ملونة أو غريبة. وثمة إشارات صريحة خارجة -أحيانا- عن الذوق، وهى ظاهرة انفرد بها ابن فضلان فلم يتعرض لمثلها سابقوه ولاحقوه إلا فيما ندر. ظاهر الأمر أنه يرويها ليستنكرها، والواقع يؤكد أنه يخاطب جمهورا معينا يريده متجاوبا معه، منجذبا إليه فى حالة انبهار وترقب، لذا فقد طعم رسالته بهذه الاشارات حتى تجد القبول والاهتمام. لكن اللافت أنها موظفة توظيفا فنيا جيدا، بحيث يبين خلل بحذفها، ولايتولد شعور بأنها نغمة نشاز مقحمة.

للرحال أن ينقل ماشاء شرط الاتساق الهيكلى للرحلة، فلايكون نتوءا أو بروزا يذهب بروعة البناء وبهائه.

لامجال لمحاكمة الرحال -ها هنا- محاكمة أخلاقية طالما التزم فيما ارتضاها. أما إذا تأكد أنه يقصد إلى الإثارة لذاتها فالتهمة جاهزة، وتقديمه للمحاكمة وارد، ولهيئة المحكمة أن تستمع لدفاعه وتبريره لسلوكه، ثم تحكم بما يقتنع به ضميرها.

الزعم بأن ابن فضلان كان فقيها لايسنده دليل معتبر، والأقرب إلى الصواب أنه كان موظفا ديوانيا. واللافت أن شعوره الدينى فياض، بيد أن هذا ليس مبررا لاعتباره فقيها. وقد جرت هذه المشاعر الفياضة إلى التورط فى بعض المأزق حين تعامل مع الأمور بمنطق العاطفة دون العقل، فأوحى بأن كل ما يرويه حقائق، وماشك فيه نسبه لقائله، أو ركب -قبل روايته- مطية الكذب «زعموا».

لايُطلب من ابن فضلان -أو غيره- أن يكون صادقا صدقا مطلقا، فالصدق المطلق وهم ،المطلوب من ابن فضلان -أو غيره- صدقه نسبيا.. أن يعتقد فى صدق ما يقول، فقد تكون حالته النفسية -فى موقف معين- مؤهلة لتقبل بعض مالا يؤيده الواقع، وهنا يجب ألا يحاسب بمقياس الصواب والخطأ، وتفهم الموقف الذى روى فيه واقعته مطلوب، لكن ليس مقبولا أن يصل صدق وتصديق الرحال إلى حد السذاجة.

حاول ابن فضلان أن يكون صادقا، ولكن عاطفته غلبته، فأصدر أحكاما دون

بيان التهم الموجهة لمن حوكموا، فالغزية -عنده- كالحمير الضالة: لايدينون لله بدين، ولايرجعون إلى عقل، ولايعبدون شيئا، بل يسمون كبراءهم أربابا[1] ولاتستر المرأة -منهم- شيئا من بدنها عن أحد من الناس. وتصديقا لهذا يحكى حادثة مبالغا فيها[2].

وثمة حكاية أخرى تشوبها روح المبالغة والطرافة فى آن، ذلك أنه لما كان من غد لقينا رجل واحد من الأتراك، دميم الخلقة، رث الهيئة، قميىء المنظر، خسيس المخبر، وقد أخذنا مطر شديد، فقال: «قفوا، فوقفت القافلة بأسرها - وهى نحو ثلاثة آلاف دابة وخمسة آلاف رجل- ثم قال: «ليس يجوز منكم أحد»، فوقفنا طاعة لأمره فقلنا له: «نحن أصدقاء كوذركين»، فأقبل يضحك ويقول: «من كوذركين؟! أنا أخرى على لحية كوذركين». ثم قال: «بكند».. يعنى: الخبز بلغة خوارزم -فدفعت إليه أقراصا، فأخذها وقال: مروا فقد رحمتكم»[3].

وهذه الحكاية -على قصرها- مليئة بالدلالات:

١ - فهى ليست صعبة التصديق، فمسرحها أرض معادية غريبة، وثمة خوف من أن يكون الرجل رأس حربة وله أتباع، أو أن يجر التعرض له متاعب ليست فى الحسبان.

٢ - والسفارة كانت ضمن قافلة كبيرة، فهل كانت القافلة -كلها- تابعة للسفارة؟ أم هى من قوافل التجارة التى انضمت إليها السفارة؟ الفرض الثانى أقرب للتصديق.

٤ - ودور ابن فضلان البارز، والذى يحاول تضخيمه دوما، يظهر فى هذه الحكاية؛ فقد أنقذ القافلة. وهذا الموقف وأشباهه أحدث لبسا لدى بعض الباحثين، فاعتبروا ابن فضلان قائد السفارة، بينما يعترف ابن فضلان نفسه أن قائدها «سوسن الرسى».

---

(١) رسالة ابن فضلان ٩٢.

(٢) نفسه ٩٢.

(٣) نفسه ٩٨ _ ٩٩.

ابن فضلان إنسان صادق، وكذلك هو رحال صادق، نقل ما شاهد دون محاولة للكذب، ولكنه لم يستطع مقاومة الرغبة الملحة فى المبالغة، ولكنها -على أى حال- مبالغة مقبولة لاتشكل قاعدة ثابتة.

الرحلة واقعية، تحدث فى زمان ومكان محددين، ويزيد هذه الواقعية ذكر بعض التفاصيل الدقيقة كاسم الدليل فى بلاد الترك «قلواس»، ومجال الخيال ضيق، وإذا استخدم الرحال الخيال فلرغبة فى ملء فراغ إسقاطات الذاكرة؛ ولأن ذاكرة ابن فضلان قوية يبدو الخيال كما لو كان معدوما.

وطبيعة الرحلة القائمة على الحركة الدائبة السريعة لم تتح الفرصة لابن فضلان لالتقاط أنفاسه فنيا، لذا جاءت مواقفه -فى الغالب- إشارات وتلميحات سريعة، ولكنها -رغم ذلك- دالة؛ فلم يطل توقف ابن فضلان عند موقف بعينه -ولم يحاول رسم لوحات كاملة، بل اكتفى بأجزاء منها تاركا فراغات تضمن المشاركة الإيجابية للقارىء بإعماله فكره. إنه يريد من قارئه التجاوب معه ومتابعة كل تحركاته.

عندما يريد رسم لوحة كاملة فإنه لايرسمها دفعة واحدة، إنما يقسمها إلى لوحات صغيرة طريفة لها دلالتها حين انفرادها، فإذا ضمت جميعا تكونت لوحة كاملة ذات دلالة جديدة حاوية لكل الدلالات منفردة. وخير مثال لذلك لوحة البرد التي رسمها أثناء إقامته بالجرجانية[1]، فالجزئيات طريفة، فإذا جمعت لتكون «كلاً» أصبحت متعددة الجوانب غنية بالمعانى.

لايكسر ابن فضلان قاعدة الرشاقة الوصفية تلك إلا فى حالة واحدة فقط، ذلك عندما يصف عادات الروسية فى دفن الميت. استغرق هذا الوصف حوالى عشر صفحات من الرسالة، وهو أمر خارج عن عادة ابن فضلان، لذا فقد جاء وصفه دقيقا إلى درجة مكنت الرسام الروسى «هنرى سميرادسكى» من رسم لوحة «تزين اليوم أزهى متاحف الروس فى «لينينجراد» رفعت اسم ابن فضلان إلى مراتب الخلود

---

(١) رسالة ابن فضلان ٨٣ – ٨٧.

والشهرة، وأكسبت رسالته سمعة عالمية»[1].

تعمق ابن فضلان فى وصف هذا المشهد، ولكن وصفه كان خارجيا، فلم يكن عنصرا فاعلا فيه إلا فى لحات قليلة.

وإذا كان سلبيا فى المشهد السابق فإنه إيجابى فى أغلب المشاهد الأخرى، وتلك الإيجابية صفة هامة يجب توافرها فى كل الرحالة.

لم يكن ابن فضلان ينتظر وقوع الأحداث ليصفها، وإنما كان يتحرك كى يصنع الحدث أو يشارك فيه، ثم يصفه. وإذا كان رأيه مخالفا لغيره -حتى لو كان ملكا- فإنه لايتوانى عن إعلانه، وإذا سمع بشىء تحقق منه بنفسه.

ومن مظاهر هذه الإيجابية أنه رأى وسمع، واستمتع بما رأى، وما سمع، ولم يكتف بذلك، فأمتعنا وعلمنا حين سجل ذلك كله، بينما اكتفى غيره بما رأى أو سمع، ولم ينقله إلى غيره، لأنه خامل فى ذاته، لايرى فائدة لما فعل.

فى بعض المواقف تتحول هذه الإيجابية إلى سلب بيّن؛ فإذا سأله أحد الأتراك: ألربّنا -عز وجل- امرأة؟ استعظم ذلك وسبح الله واستغفره، بدلا من شرح عقيدته الإسلامية الواضحة[2].

وإذا تعرض لخدعة -شارك فيها رفاقه- تقبلها، واكتفى بالتحذير من مغبتها[3]. وإذا سمع أصواتا شديدة وهمهمة عالية -فى الجو- أقبل على التضرع والدعاء[4]. إن الأمور العقدية الغريبة التى شاهدها ابن فضلان كانت تحتاج إلى تفسير، فلم يتوان عن استجلاء حقيقتها، ولذا فإن عقائد القبائل البادية لم تكن لتعرف وتصبح أساسا لدراسات حديثة لولا هذا النشاط الإيجابى[5].

---

(١) السابق ٣٣.

(٢) رسالة ابن فضلان ٩٣.

(٣) السابق ٨٨.

(٤) نفسه ١٢٣

(٥) حول هذه الدراسات، انظر: رسالة ابن فضلان فى وصف رحلته ـ فورى العنتيل، تراث الإنسانية ـ المجلد الثامن، ١١٣ ـ ١٣٦

استقر فى ذهن العرب أن كل من يسافر أو يرحل يرى من بديع صنع الله فى كونه ما يعجز عن وصفه الوصافون؛ لذا فإن مقياس نجاح الرحلة يتمثل فى حجم الغرائب والعجائب التى تقدمها. ترتب على ذلك أن أصبح الكذب مبررا فنيا، وتهافت الرحالة على تقديم هذا الغريب العجيب، فأفردوا له فصولا خاصة مميزة فى أعمالهم.

مفهوم العجائب نسبى، فما يكون عجيبا غريبا عند شعب قد لايكون كذلك عند غيره، بل إن هذا يصدق على مستوى الفرد، وما يكون عجيبا عند شعب فى زمن معين قد لايكون كذلك عند الشعب نفسه فى زمن آخر.. وهكذا.

عجائب ابن فضلان تنقسم قسمين:

١ - ما كان عجيبا بالنسبة إليه وإلى شعبه.

٢ - ما هو عجيب فى كل مكان وزمان (وقد يسمى ذلك غريبا).

العجائب التى رآها ابن فضلان فى رحلة الذهاب تندرج تحت القسم الأول: لأنها عادات وتقاليد ومعتقدات وظواهر طبيعية غير مألوفة له ولشعبه، ولو لم تكن كذلك لما نقلها. وهذا السلوك يجب أن يكون مفهوما لدى قارىء الرحلات حتى لايسيء فهم ما كتب.

ويبدو أن ابن فضلان تنبه -فجأة- إلى أن القسم الأول لم يبلغ من نفوس قارئيه ما يريد، فقرر أن يتحف قراءه بعجائب مما يندرج تحت القسم الثانى، وهنا يشرع فى تعريض نفسه للتهمة والظّنة، حتى المقدمة التى بقدم بها لهذه العجائب يشتم منها رائحة المبالغة، يقول: «ورأيت فى بلده- الملك - من العجائب مالا أحصيها كثرة»[1].

ولايضيع وقته فى شرح هذه المقدمة أو تفسيرها نظريا، بل يأتى بمثال تطبيقى، ذلك أن «أول ليلة بتناها فى بلده رأيت قبل مغيب الشمس بساعة قياسية أفق السماء وقد احمرت احمرارا شديدا، وسمعت فى الجو أصواتا شديدة وهمهمة عالية، فرفعت رأسى فإذا غيم أحمر مثل النار قريب منى، وإذا تلك الهمهمة

(١) رسالة ابن فضلان ١٢٣

والأصوات منه، وإذا فيه أمثال الناس والدواب، وإذا في أيدى الأشباح التى فيه -تشبه الناس- رماح وسيوف أتبينها وأتخيلها، وإذا قطعة أخرى مثلها أرى فيها أيضا رجالا ودواب وسلاحا، فأقبلت هذه القطعة تحمل على هذه كما تحمل الكتيبة على الكتيبة. ففزعنا من ذلك وأقبلنا على التضرع والدعاء وهم يضحكون منا ويتعجبون من فعلنا. قال: وكنا ننظر إلى قطعة تحمل على القطعة فتختلطان ساعة جميعا ثم تفترقان. فمازال الأمر كذلك ساعة من الليل، ثم غابتا فسألنا الملك عن ذلك، فزعم أن أجداده كانوا يقولون: إن هؤلاء من مؤمنى الجن وكفارهم، وهم يقتتلون فى كل عشية، وأنهم ما عدموا هذا منذ كانوا فى كل ليلة»[1].

ويلاحظ على هذا النص ما يلى:

١ - أن ابن فضلان استخدم كل ما يوحى بأن ما يرويه حقيقة، فالزمان محدد بالسنة والشهر واليوم والساعة، ورد الفعل مرصود رصدا ذاتيا، واللوحة مرسومة بدقة مستعينة ببعض الصور البلاغية.

٢ - أنه يستخدم «إذا الفجائية» خمس مرات فى ثنايا سطور لاتتعدى أصابع اليد عدا، واستخدامه لها محاولة لإيهام القارىء بأن ذلك حقيقة عن طريق تصوير الجو النفسى الموحى.

٣ - أن رد فعل ابن فضلان لم يكن فريدا. بل شاركه فيه رفقاؤه وكان رد الفعل -هذا تلقائيا، لجأوا فيه إلى الله تعالى طالبين العفو والمغفرة، مما كان مثيرا لسخرية وضحك وتعجب أهل البلد.

٤ - أن ابن فضلان مارس هوايته فى السؤال عما لايعرف، وأجابه الملك إجابة لم تقنعه، وقدمها بقوله: «زعموا». فهل شك فى اختراع الملك للإجابة؟ أم شك فى الإجابة نفسها؟ بإلقائه هذه الظلال من الشك أراد أن يبرئ نفسه من تهمة الكذب أو المبالغة فى تفسير الظاهرة، ليلقى فى روع القارئ أنها صحيحة فى ذاتها، ولكن تفسيرها غير مقنع.

---

(١) رسالة ابن فضلان ١٣٩.

ثم يشرع في ذكر بعض عجائب القسم الأول إلى أن يصل إلى إحدى عجائبه الكبرى، عجيبة هذا المخلوق المنتمى إلى «يأجوج ومأجوج»، ورغم أنه لم ير هذا المخلوق الغريب الذى وصل إلى بلاد الملك ولم يكن ينظر إليه صبى إلا مات، ولا حامل إلا طرحت حملها، وكان إن تمكن من إنسان عصره بيده حتى يقتله[1]، فإنه اقتنع بحكاية الملك عنه، خاصة أنه قال له: «إذا أردت أن تنظر إلى عظامه ورأسه مضيت معك حتى تنظر إليه» فقلت: «أنا والله أحب ذاك» فركب معى إلى غيضة فيها شجر عظام، فتقدمنى إلى شجرة سقطت عظامه ورأسه تحتها، فرأيت رأسه مثل القفير الكبير، وإذا أضلاعه مثل عراجين النخل، وكذلك عظم ساقيه وذراعيه، فتعجبت منه وانصرفت[2] ويمكن -هنا- ملاحظة ما يلى:

١ - أن ابن فضلان نقل رواية الملك كما هي.

٢ - أن الملك رأى عدم الاقتناع باديا على وجهه، فأراد أن يثبت له صحة زعمه، وذلك بمعاينة آثار هذا المخلوق.

٣ - أن ابن فضلان أراد أن يقرب صورة بقايا هذا المخلوق إلى أذهان قارئيه؛ فربط بينها وبين شيء مألوف إلى هؤلاء، وهو النخلة بعراجينها، أو القفير الذى يكتنز فيه التمر ليصير «عجوة».

٤ - إن رد فعل ابن فضلان كان أن: تعجب وانصرف -وكأنه -بذلك - يدفع إلى الشك في روايته.

٥ - أن العجب لايقف عند حد وصف هذا المخلوق، بل يتعداه إلى المعلومات المحيطة به وبجنسه.

ومن عجائب هذه البلاد حيوان «الكركَدَن» الذى «إذا رأي الفارس قصده، فإذا كان تحته جواد أمن منه بجهد، وإن لحقه أخذه من ظهر دابته بقرنه، ثم زج به في الهواء، واستقبله بقرنه، فلايزال كذلك حتى يقتله. ولايعرض للدابة بوجه ولاسبب،

---

(١) رسالة ابن فضلان ١٣٩ - ١٤٠.

(٢) السابق ١٤٢.

وهم يطلبونه فى الصحراء والغياض».

هدف رحلة ابن فضلان محدد بدقة، ومعروف أنه تحقق بوصوله أرض الصقالبة، رغم أن عددا من الباحثين يرون أن السفارة لم تحقق نتائج إيجابية، بل حققت نتائج سلبية كثيرة. وفى النهاية تبقى الرحلة نصا أدبيا مميزا، ووثيقة غنية تزداد نفاستها بمرور الزمان، ولم يكن ذلك لولا تدوين ابن فضلان لها، ووصولها بعد أكثر من ألف عام.

خط سير الحدث محكوم بواقع لايمكن التصرف فيه، والإطار الموضوعِي الذى احتوى على هذا الحدث يمكن -بوسيلة أو بأخرى- التأكد من وجوده. وعى ابن فضلان هذه الحقيقة، وخضع لها خضوعا تاما، فجاءت أحداث رحلته منطقية فى أغلبها.

الخُطة الحدثيّة -فى الرحلة- موضوعة مسبقا، وهناك ما يُلزم السفارة التزام هذه الخطة: كُتبٌ يجب تسليمها، وهدايا يجب أن تُحمل، أموال يجب أن تؤخذ من مكان لتصل إلى آخر. حركة الحدث محددة سلفا، وأى خروج عليها يعود إلى روح الرحال الحقيقى المتأصلة فى ابن فضلان. ولكن هذه الخطة وذلك التحديد يحويان داخلهما قدرا من المرونة والحرية التى تتيح الفرصة للتعامل مع الظروف والطوارىء التى ليست فى الحسبان؛ لأن الرحلة ستخترق أماكن وبلاد أناسٍ لايُعرف عنها إلا القليل.

كل حدث مرتب فى زمانه ومكانه الحقيقيين، ولايمكن تقديمه أو تأخيره إلا إذا كان مُمهِّداً أو معقِّبا على حدث آخر مهم.

ووحدة الحدث واضحة؛ لأنها ترتبط فى النهاية بحدث أكبر هو الحركة، وقد بث ابن فضلان -بإدراكه هذه الحقيقة- الحيوية فى رحلته، بيد أنه لايستطيع -أحيانا- تكييف معلومة هامة ببث هذا الروح فيها، فيضطر لقطع الحدث بهذه المعلومة، ويخفف من هذه العقبات أنها عارضة وليست أساسا. والنهج الذى اتبعه فى تقديم المعرفة نجح فيه إلى حد كبير، فهو يقدم المعلومة فى إطار حدث، فإذا أراد الحديث عن البرد وشدته قال: «ولقد كنت أخرج من الحمام، فإذا دخلت إلى

البيت نظرت إلى لحيتى وهى قطعة واحدة من الثلج، حتى كنت أدنيها من النار. ولقد كنت أنام فى بيت جوف بيت، وقبة لبود تركية، وأنا مدثر بالأكسية والفرى، فربما التصق خدى على المخدة»[1]. وإذا أراد التعريف بسذاجة بعض الصقالبة حكى لنا أنه «أسلم على يدى رجل يقال له» «طالوت» فسميته «عبدالله» ، فقال: أريد أن تسمينى باسمك «محمدا»، ففعلت وأسلمت امرأته وأمه وأولاده، فسموا كلهم «محمدا»[2].

ووصفه لمشهد عبادة الروس وتقديمهم القرابين لأصنامهم ينطوى على قدر كبير من الفكاهة التى تبين سذاجة هؤلاء[3].

وابن فضلان -كرحال- يظل الرابط المنطقى الأكبر للأحداث، وإذا جاز التعبير فإن الأحداث مثلت الكواكب تدور فى فلك ابن فضلان الذى لايتيح لها فرصة للإفلات.

العقدة -بمفهومها القصصى- لايمكن تحققها فى الرحلة، فالعقدة القصصية وهمية، قد يستطيع القاص إقناع القارىء بها وحلها، وقد لايستطيع. أما عقدة الرحلة فنابعة من واقع محسوس لايمكن التصرف فيه.

تحتوى الرحلة على عقدة، وهى نوعان: عقدة أساس، وعقد ثانوية. العقدة الأساس تبدأ من لدن التفكير أو التكليف بالرحلة، وتشمل الاستعداد وتوديع الأقارب.. إلى غير ذلك، ثم تدخل مرحلة جدية مع بداية الرحلة، وتأخذ فى التعقد والتشابك كلما مضى الرحال فى طريقه حتى تصل إلى ذروتها ببلوغ الحد الأقصى الذى خطط له الرحال، ويكون الخط البيانى فى صعود دائم، ولكن ما يلبث الرحال أن يفكر فى العودة، وحين يبدؤها ينحدر الخط البيانى حتى يصل إلى نقطة البداية، عندئذ يصل الرحال إلى نقطة الانطلاق، فتحل العقدة. باختصار: تبدأ العقدة بالخروج وتحل بالعودة. أما العقد الفرعية فتتمثل فى كل الصعوبات التى

---

(١) رسالة ابن فضلان ٨٤.
(٢) السابق ١٣٥.
(٣) نفسه ١٥٢ - ١٥٤.

تواجه الرحال وتتطلب منه جهدا لحلها، وهذا النوع من العقد كثير.

من حيث النوع الأول يرتكب معظم الرحالة خطأ منهجيا حين يعلنون -إما صراحة وإما رمزا- أنهم يكتبون أو يدونون رحلتهم بعد عودتهم، ومعنى ذلك أن القارىء يطالع الرحلة وهو يعلم أن عقدتها قد حلت فيقل استمتاعه بها. وقد وقع ابن فضلان فى هذا الخطأ المنهجى حين قال فى المقدمة: «فسلمت الهدايا له ولامرأته وأولاده وإخوته وقواده، وأدوية كان كتب إلى «نذير» يطلبها»[1]. على هذا فإن عقدة رحلة ابن فضلان الأساسية تصبح غير ذات قيمة.

أما العقد الثانوية -التى تكوّن فى النهاية العقدة الرئيسية- فقد أفاض ابن فضلان فى سردها. ويمكن إحصاء ثمانى عقد ثانوية تعرض فيها لمآزق -تختلف عسرا ويسرا- حاول حلها، وأفلح فى ذلك، إما بسبب التدخل الذاتى منه، أو بحل خارجى. وهذه العقد أكسبت الرحلة نوعا من الحيوية والمتعة.

الزمان والمكان يلعبان دورا بارزا فى الرحلة، فالزمان والمكان المحددان يكسبانها الواقعية التى هى أساس الرحلة.

من حيث الزمان أورد ابن فضلان عددا من الإشارات الزمنية -خاصة فى رحلة الذهاب- ترفع من الثقة فى صحة الرحلة وواقعيتها، فهو يروى حوادث ومشاهدات تؤكد الوقائع التاريخية صحتها. وللزمن دور هام فى تشكيل الحدث، فرحلة الذهاب كانت -فى غالبها- أثناء الشتاء، وكان متوقعا تلوُّن الأحداث والشخصيات بهذا البعد، وقد حدث ذلك بالفعل -وعندما يصل إلى أرض الصقالبة يكون الصيف قد حل، وعرَّفه أهل البلد -حينئذ- أنه «إذا كان الشتاء عاد الليل فى طول النهار، وعاد النهار فى قصر الليل، حتى إن الرجل منا ليخرج إلى موضع يقال له «أتل» -بيننا وبينه أقل من مسيرة فرسخ- وقت طلوع الفجر فلا يبلغه إلى العتمة»[2].

(١) رسالة ابن فضلان ٦٩.
(٢) السابق ١٢٦ ـ ١٢٧

وفي الصيف تنحل مياه الأنهار، فينزل «الرجال والنساء إلى النهر، فيغتسلون جميعا عراة لايستتر بعضهم من بعض، ولايزنون بوجه ولاسبب»[1].

والمكان محدد بدقة كذلك، فيمكن تتبع خط سير الرحلة على خريطة، وهذا التتبع سيمدنا بحقيقة هامة هي: أنهم اختاروا طريقا متعرجا غير مستقيم أطول من الطريق المعتاد[2].

ثم إن المكان يزداد أهمية لدي الرحال عن غيره من المبدعين، فقد يصف المكان لذاته دون أن يكون مسرحا لحدث، أو مشاركا في هذا الحدث، وهنا يبرز الطابع المعرفي التعليمي كغرض من أغراض الرحلة. لكن يلاحظ أن ابن فضلان -في استخدامه للمكان- يجعله مسرحا لأحداثه ومشاركا فيها، لاكما يفعل الرحالة حين يصفون أماكن بعينها وصفا طويلا مملا يستخدم الذراع والشبر.. إلى غير ذلك من وحدات القياس.

كلما كان المكان غريبا جديدا لم يوصف من قبل -كان نصيبه من المشاركة في الرحلة أكبر وأعظم، وهذا ما حدث مع ابن فضلان، حتي إنه لم يسبقه أحد في وصف معظم الأماكن التي زارها في رحلته، وكذا لم يتله أحد في وصف هذه الأماكن نفسها؛ لذا عدت رسالة ابن فضلان مصدرا -عظيم القيمة- لهذه الأماكن، ينقل عنه لاحق عن سابق عن ابن فضلان.

كي يثبت ابن فضلان أنه وصل إلى هذه الأماكن بالفعل نقل بعض المعلومات الخاصة بها، كنقودها وعاداتها ولغتها، فقد رأى «دراهم خوارزم مزيفة، ورصاصا وزيوفا وصفرا، ويسمون الدراهم «طازجة» ووزنه أربعة دوانيق ونصف. والصير في منهم يبيع الكعاب والدوامات والدراهم. وهم أوحش الناس كلاما وطبعا، كلامهم أشبه شيء بصياح الزرازير. وبها قرية يقال لها «أردكو» أهلها يقال لهم «الكردلية» كلامهم أشبه شيء بنقيق الضفادع. وهم يتبرءون من أمير المؤمنين على بن أبي

---

(١) السابق ١٣٤.

(٢) انظر مقال «فوري العنتيل» السابق

طالب -رضى الله عنه- فى دبر كل صلاة»[1].

فى أدب الرحلة لامجال للحديث عن شخصيات رئيسية وأخرى ثانوية، وإنما الحديث عن شخصيات ثابتة وشخصيات عارضة.

والشخصية الثابتة -دائما- شخصية الرحال نفسه، وقد يرافقه بعض الصحاب، لكن لايمكن عدهم شخصيات ثابتة إلا إذا كانت مشاركتهم فى الحدث إيجابية. أما الشخصيات العارضة فهى تلك التى يقابلها الرحال فى حولاته المختلفة. وهى لاتعد كذلك، ولاتدخل فى دائرة البحث إلا إذا كانت إيجابية، حتى لو كانت إيجابيتها لاتستغرق حيزا كبيرا.

فى رحلة ابن فضلان شخصية ثابتة، والثبات -هنا- لايعنى السلبية، وإنما يعنى الحضور الدائم فى كل مراحل الرحلة بحيث تصبح محورا تدور حوله الأحداث، وكذا تصنع الأحداث، وهده الشخصية الثابتة هى ابن فضلان نفسه. ٠

أماالشخصيات الأخرى التى صاحبته فى الرحلة فإنها لا تتدخل فى الأحداث ولا تظهر على شاشة الرحلة إلا حين يريد ابن فضلان. كان ممكنا عد هذه الشخصيان تابتة، ولكن لأن دورها تافه لا يستطاع ذلك.

يبرز من بين هذه الشخصيات «تكين» الذى يحظى بقدر من الاهتمام يزيد قليلا على أصحابه، ولكن هذا الاهتمام لا يغير من الدور الهامشى له.

تتلوها شخصيات: عبد الله بن باشتو، وسوسن الرسى ـ الذى كان رئيسا للسفارة، والغلام «بارس» ، فهذه الشخصيات تتساوى فى حجم الدور الذى تلعبه.

ثم يلى هؤلاء شخصيات: الوزير الجيهانى، والأمير نصر بن أحمد والأمير محمد ابن عراق الحوارزمى، ثم الفضل بن موسى النصرانى وكيل ابن الفرات، «وكوذركين» و «ينال»و «أترك» و«طرخان» و «إيلغز» قواد الترك، ثم الدليل «قلواس» والترجمان الذى لم يذكر اسمه.

تبقى شحصية واحدة استأثرت باهتمام ابن فصلان، وهى شخصية ملك

(١) رسالة ابن فصلاں ٨٢

الصقالبة، تلك الشخصية التى قدمها فى صورة واضحة، وإن كان رسمها رسما كاريكاتيريا ساخرا فى البداية، ثم طرأ تحول فى نظرته إليها، فرسمها تحوطها مظاهر الاحترام. هذا التغير حكمته عوامل نفسية.

لصفات وخصائص معينة كُلِّف ابن فضلان بالقيام بهذه المهمة الخطيرة، وهذا يعنى أنه سيؤدى عملا رسميا، والعمل الرسمى يبعث - فى مثل هذه الظروف - على الملل، لشبهة الإجبار وعدم الحرية. كان متوقعا أن يسيطر هذا الملل على ابن فضلان ورفاقه، ولكنه أصابهم وأخطأه. وكلما تقدمت الرحلة سيطرت روح المغامرة على ابن فضلان وخبت عند صحبه. كان لديه الشوق لأن يرى، وأن يسمع، وأن يدون، فكسر - بذلك - دائرة الملل المفرغة التى كادت تسيطر عليه بسبب العقبات المستمرة التى واجهت السفارة فى مراحلها المختلفة.

نسى ابن فضلان أنه فى مهمة رسمية طوال رحلة الذهاب، وأخذ ينقب عن الجديد والغريب والعجيب. كانت روح الرحال حبيسة صدره، فلما أتيحت لها الفرصة لتنطلق خرجت كالمارد، وأبدعت لأنها وجدت الظروف ملائمة ومواتية. ولولا هذه الروح المغامرة لعاد - كما عاد غيره - منذ بداية الرحلة، فقد «تأخر - عنهم - الفقيه والمعلم والغلمان الذين خرجوا - معهم - من مدينة السلام، فزعا من الدخول إلى ذلك البلد»[1]. الشديد البرد.

وإذا اعترضهم من يعوق سيرهم قال ابن فضلان: «انصرفنا عنه ذلك اليوم ثم عاودنا، ولم نزل نرفق به ونداريه ونقول: هذا أمر أمير المؤمنين، فما وجه المراجعة فيه؟.. حتى أذن لنا»[2].

وإذا أصابهم برد شديد، وأشرفوا على الموت، لم يثنهم ذلك عن مواصلة الرحلة. قال ابن فضلان: «ثم أوغلنا فى بلد الترك لا نلوى على شىء ولا يلقانا أحد، فى برية قفر بغير جبل. فسرنا فيها عشرة أيام ولقد لقينا من الضر والجهد والبرد الشديد وتواصل الثلوج الذى كان برد خوارزم عنده مثل أيام الصيف، ونسينا كل ما مر بنا، وأشرفنا على تلف الأنفس»[3].

---

(١) رسالة ابن فضلان ٨٧
(٢) السابق ٨١
(٣) نفسه ٨٩

بل إن ابن فضلان لا يتورع عن استخدام الرشوة ـ تحت اسم الهدية ـ في سبيل مواصلة السير. قال:«فلما وصلنا إلى الموضع الذى هو فيه (أى قائد تركى) قال: «لا أترككم تجوزون لأن هذا شيىء ما سمعنا به قط، ولا ظننا أنه يكون». فرفقنا به إلى أن رضى بخفتان جرجانى يساوى عشرة دراهم، وشقة ـ باى باف، وأقراص خبز، وكف زبيب، ومائة جوزة. فلما دفعنا هذا إليه سجد لنا»[1].

وحب الرحلة والمغامرة يدفعان ابن فضلان للمرور وسط أراضى «الباشغرد» هؤلاء الذين يصفهم بقوله: «فحذرناهم أشد الحذر، وذلك أنهم شر الترك وأقذرهم وأشدهم إقداما على القتل، يلقى الرجل الرجل فيفرز هامته، ويأخذها، ويتركه»[2].

- وقد ساعد على أداء المهمة أن ابن فضلان كان مؤهلا نفسيا وجسديا للقيام بها.
- ولأن ابن فضلان محب للمهمة التى يقوم بها كان لابد أن ينتج عن ذلك وصف للرحلة يتوافق وهذا الحب، ويكون قوامه قوة الملاحظة، والذكاء فى التقاط الصور والملامح والمعالم، وبخاصة ما يدق منها على النظرة العابرة.

إنه يصف الجرجانية وبردها وآثاره، يقول «فرأينا بلدا ما ظننا إلا أن بابا من الزمهرير قد فتح علينا منه، ولا يسقط الثلج فيه إلا ومعه ريح عاصف شديد. وإذا أتحف الرجل ـ من أهله ـ صاحبه، وأراد بره، قال له: «تعال إلى حتى نتحدث فإن عندى نارا طيبة» ـ هذا إذا بالغ فى بره وصلته ـ إلا أن الله تعالى قد لطف بهم فى الحطب وأرخصه عليهم: حمل عجلة من حطبُ الطاغ بدرهمين من دراهمهم، تكون زهاء ثلاثة آلاف رطل»[3].

وهذا الربط بين البرد والنار والحطب والعادات الاجتماعية والرحمة الإلهية ذكاء من ابن فضلان. وحديثه عن الأتراك ممتع، رغم أنه يعتمد على لمحات عابرة، فقد: «قال بعضهم ـ وسمعنى أقرأ قرآنا ـ واستحسن القراءة ـ وأقبل يقول للترجمان: قل له: «لا يسكت». وقال هذا الرجل يوما على لسان الترجمان: «قل لهذا العربى: ألربنا ـ عزوجل ـ امرأة؟ فاستعظمت ذلك وسبحت الله واستغفرته، فسبح واستغفر كما فعلت. وكذلك رسم التركى كلما سمع المسلم يسبح ويهلل قال مثله»[4].

---

(١) نفسه ٩٨.
(٢) رسالة ابن فضلان ١٠٧ ـ ١٠٨
(٣) السابق ٨٣-٨٤.
(٤) نفسه ٩٣.

وهى ملاحظة دقيقة تماثل ملاحظة سابقة، إذ سمع بعض الأتراك «يقولون: (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) تقربا بهذا القول إلى من يجتاز بهم من المسلمين، لا اعتقادا بذلك»[1].

ومن مظاهر تلك الدقة هذه الملاحظة المقارنة عن قبائل «البجناك» التركية، إنها أول مرة يمر بديارهم «وإذا هم شديدو السمرة، وإذا هم محلقو اللحى، فقراء، خلاف الغزية، لأنى رأيت من الغزية من يملك عشرة آلاف دابة ومائة ألف رأس من الغنم، وأكثرها ترعى الغنم ما بين الثلوج، تبحث بأظلافها تطلب الحشيش، فإذا لم تجده قضمت الثلج فسمنت غاية السمن، وإذا كان الصيف وأكلت الحشيش هزلت»[2].

وهذه الملاحظات لم تكن لتتأتى لولا اختلاط ابن فضلان بمن يمر بهم، فقد أتاح له هذا الاختلاط فرصة السؤال والاستفسار والنفوذ إلى الحقائق والأسرار، كما أتاح له أن يصف وصفا صحيحا يعتمد عليه.

مر ابن فضلان بقائد تركى ـ اسمه أترك بن القطغان ـ وأهداه هدية عبارة عن «ثياب ، وزبيب، وفلفل،و جاورس. فرأيت امرأته ـ وقد كانت امرأة أبيه ـ وقد أخذت لحما ولبنا وشيئا مما أتحفناه به، وخرجت من البيوت إلى الصحراء فحفرت حفيرة، ودفنت الذى كان معها فيها، وتكلمت بكلام، فقلت للترجمان: ما تقول؟ قال:«تقول: هذه هدية للقطغان أبى أترك أهداها له العرب»[3].. وعندما وصل إلى أرض الصقالبة لم يركن إلى العيش المرفه الرغد بجوار الملك، وإنما انطلق ليعايش الشعب وليخبره، ثم ليصفه فيسعد قراءه فى نهاية المطاف.

وإذا رأى الرحال أن ثمة إحصاءات وبيانات ومعلومات يجب أن تضمن رحلته، فعليه أن يلتزم الدقة حين إيرادها. وقد كان ابن فصلان دقيقا فى وصفه خاصة فيما يتعلق بالزمان والمكان، فقد خرج من بغداد يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خلت من صفر سنة (٣٠٩هـ = ٩٢١م)، وأقام فى «بخارا» ثمانية وعشرين يوما،

---

(١) نفسه ٩٢

(٢) رسالة ابن فضلان ١٠٦ ـ ١٠٧.

(٣) رسالة ابن فضلان ١٠١ ـ ١٠٢.

ورحل من «الجرجانية» يوم الاثنين لليلتين ـ خلتا من ذى القعدة، فترك رباطا يقال له «زمجان»، ثم رحل فى غده، ونزل بمنزل يقاله له: «جيت»، ثم جاءهم «ثلج مشت فيه الجمال إلى الركب»، وكانت القافلة نحو ثلاثة آلاف دابة، وخمسة آلاف رجل. وهدية أحد قادة الأتراك عبارة عن «خمسين دينارا ـ فيها عدة دنانير مسيبية ـ وثلاثة مثاقيل مسك، وجلود أديم، وثياب مروية، وقطعوا له قرطقين، وخف أديم وثوب ديباج وخمسة أثواب حرير».

والمعركة الجوية بين مؤمنى الجن وكفارهم رآها فى أول ليلة له فى بلاد الصقالبة قبل مغيب الشمس بساعة قياسية. والليل ـ عند أهل «ويسو» ـ أقل من ساعة، ثم تبلغ الدقة مبلغها حين يصف مشهد دفن الزعيم الروسى.

يمكن تقسيم رحلة ابن فضلان إلى ثلاثة أقسام رئيسية:

يبدأ القسم الأول مع المقدمة القصيرة المهمة التى توضح سبب الرحلة وهدفها، ويلاحظ هنا عدم وجود مقدمات جغرافية خالصة ـ كما فعل رحالون كثيرون ـ مما يؤكد الطابع الأدبى الصرف لرحلة ابن فضلان.

والقسم الثانى يمثل حالة خاصة مر بها ابن فضلان ورفاقه، فقد كانت بداية الرحلة بداية اكتشاف عوالم جديدة لم يتعرضوا لها من قبل، وبداية التعرض لمواقف جديدة فى ظروف مختلفة غير معهودة، ولذا فإن الشعور السائد بينهم جميعا كان القلق، والقلق يمثل الحركة على كافة المستويات: الحركة الذهنية، والحركة النفسية، والحركة الجسدية.

ترتب على هذا أن جاء تصوير هذه المرحلة مواكبا لذلك الشعور، جاء مليئا بالحركة، ومليئا بالحيرات، مليئا بالقلق الذى لم يستطع ابن فضلان إخفاءه، بل نجح فى تصويره ـ بدقة ـ فى عدة مواضع. وبوصول ابن فضلان إلى بلاد الصقالبة يبدأ القسم الثالث، فقد قوبل ـ وصحبه ـ بحفاوة بالغة أنسته كل ما لاقى فى رحلته الطويلة التى استغرقت أحد عشر شهرا، وبدأ القلق الذى يساوره فى الزوال. ولم يلبث ـ بعد مدة قصيرة ـ أن تأقلم مع الظروف الجديدة، وأورثه هذا التأقلم شعورا بالاستقرار الذهنى والنفسى والجسدى

شرع ابن فضلان فى التعرف على العالم المحيط به، ولكن النظرة اختلفت قدر الاختلاف بين القلق والاستقرار. أصبح هناك خط فكرى منظم يمكن تتبعه، أصبحت هناك نظرة موضوعية للأمور، وكان من الممكن أن يؤدى هذا لشيىء من الجمود والسلبية، لولا تلك الروح الفكهة التى وشى بها ابن فضلان وصفه لهذا الجزء من رحلته، تلك الروح الناشئة عن شعوره بأنه من أمة متحضرة متقدمة خطب ودها ملك شعب متخلف، ملك ضعيف يستبيح حماه الملوك المجاورون. وكأنه أحس بأن سفارته هذه ستقلب موازين قوى المنطقة، وأنه سفير فوق العادة، ينظر إلى ما حوله من عل. هذه النظرة ـ بتلك الصفة ـ لا تعوق الموضوعية، ولا تقف فى سبيلها حجر عثرة.

حاول ابن فضلان ـ فى هذا القسم ـ الموازنة بين عقله وعاطفته، بينما ـ ولأنه فى ظروفه غير طبيعية ـ طغت عاطفته على عقله فى القسم الثانى، فجاء أفضل ـ فنيا ـ حيث توفرت له عوامل النجاح، ليبسط ابن فضلان فى القسم الأول كل ما يتعلق بالسفارة كفكرة ثم كواقع، وهو نوع من التوثيق فى المعلومات يرفع من شأن الرحلة، ويكسبها قيمة تاريخية وحضارية وأدبية. ولا يعكر من صفو هذه المقدمة إلا تلك القفزة غير المنطقية التى أخبر فيها ـ دون داع ـ أنه قد وصل إلى بلاد الصقالبة، ونفذ ما أسند إليه من مهام، فأفسد متعة منتظرة.

فى القسم الثانى تبدأ الرحلة بداية سريعة يتوالى فيها الحركة والسكون، إلى أن يصل «بخارا» فيضطر لالتقاط أنفاسه، ثم يقص حكاية خدعة تعرض لها، وعندما تصل حكاية الخدعة إلى نقطة حاسمة وم.. سيرية يتوقف عن السرد ليحشر بعض المعلومات عن دراهمها. ثم يتستأنف سرد نصة الخداع.

ويواصل ابن فضلان الحركة التى ما تلبث أن تتوقف حين يصل إلى «خوارزم» بسبب رفض الأمير السماح بمواصلة السير، وهنا تحدث حركة من نوع أخر تتمثل فى تلك المجادلة التى جرت بين الأمير وأعضاء السفارة، إلى أن وافق ـ بعد لأى ـ على مواصلة الحركة الطبيعية. يستغل ابن فضلان التوقف الطويل فى «الجرجانية» ليتحدث عن البرد والنار، ويلح على شدة هذا البرد الذى لا تفلح معه كل المحاولات باستخدام عدسته فى التقاط صور له من مختلف الزوايا، ولكنه لا يفلح ـ مع ذلك

فى إعادة الدفء إلى حركته رغم استخدام النار.

بعد بيات شتوى طويل أخذ ابن فضلان يستعيد القدرة التدريجية على الحركة شيئا فشيئا. وتبلغ الحركة ذروتها أثناء مرور السفارة فى ديار الأتراك. وتتنوع ما بين حركة ذهنية ونفسية وجسدية ولعل الجزء الخاص بوصف هذه القبائل المتبدية من أفضل أجزاء الرحلة. بوصول ابن فضلان إلى بلاد الصقالبة تبدأ مرحلة جديدة من الاستقرار يكون لها أثر كبير فى بنية القسم الأخير من الرحلة، فقد التقط عدة صور من هذه البلاد، وساعد على دقة هذه الصور فى التعبير عن الواقع المكانة الخاصة التى تمتع بها هذا المندوب السامى.

فى الصورة الأولى: ينقل ابن فضلان مراسم الاستقبال الرسمى للسفارة.

فى الصورة الثانية: نتعرف على رد فعل الملك بسبب عدم وصول المال المدون فى الكتاب، وما دار حول هذا الموضوع من مواقف.

فى الصورة الثالثة: يعرض بعض العجائب ـ من وجهة نظره ـ التى رآها فى بلاد الصقالبة.

فى الصورة الرابعة: يفصل عادات الصقالبة وعقائدهم.

فى الصورة الخامسة: يصف ذلك المخلوق الغريب الذى اعتقد أنه من «يأجوج ومأجوج».

وفى الصورة السادسة: يذكر ـ بطريق غير مباشر ـ بعض نتائج سفارته على المستويين: العقائدى، والسياسى.

والصورة السابعة: تختلف عن الصور السابقة، لأنها تتناول بعض الإشارات عن الروس، وهذه الإشارات بمثابة مقدمة منطقية لمشهد دفن أحد رؤسائهم، هذا المشهد الذى تجمعت له عدة عوامل ساعدت على أن يكون مشهدا فريدا.

وأخيرا ـ وفى الصورة الثامنة ـ نشاهد ملك الخزر، ولكنها صورة متوهة بسبب اختلاط ألوانها وضياع أجزاء منها. وكان متوقعا أن توجد صورة تاسعة تختتم بها هذه المجموعة، ولكنها لم تصلنا.

ويستفاد من ذلك أن بنية رسالة ابن فضلان ثلاثية، وأقسامها هى:

١ ـ المقدمة ٢ ـ رحلة الذهاب (حركة) ٣ ـ وصف المنطقة هدف الرحلة (استقرار).

ويلاحظ أن التوازن متحقق بين القسمين: الثانى والثالث، بينما الجزء الأول قصير، وهو مقدمة هدفها توضيح الظروف المحيطة بالرحلة. ويجب أن يكون قصيرا، لأن القارىء يكون مشتاقا لمعرفة الرحلة ذاتها مفصلة.

الثابت أن ابن فضلان وصف رحلته بعد عودته من مهمته، بيد أن هذا لا يمنع كونه قد دون بعض ملاحظاته أثناء الرحلة، فأسماء الأنهار والمواضع التى مر بها ـ والتى أثبت البحث الحديث صحتها وصحة ترتيبها ـ من الكثرة والغرابة بحيث يسهل نسيانها، ولم يكن ابن فضلان ليذكرها إلا إذا كان قد دونها. يقول ـ على سبيل المثال ـ: فعبرنا «يغندى» فى السُّفر أيضا، ثم عبرنا «جاخش»، ثم «أذل»، ثم «أردن»، ثم «وارش» على هذه الصفة التى ذكرنا، ثم عبرنا بعد ذلك نهرا يقال له «جام» ثم «أختى»، ثم «ونتا»، وهذه كلها أنهار كبار»[1]. وهذا لا يتعارض مع كون ذاكرة ابن فضلان قوية، بيد أن هذه الذاكرة تفقد كثيرا من فاعليتها حين يكون هناك اضطراب وقلق نفسى كالذى مر به ابن فضلان وصحبه.

الغالب أن ابن فضلان كان يدون أسماء المواضع التى يمر بها ليقدمها ـ مرتبة بدقة ـ فى تقرير للسطات الرسمية، على أساس أن هذا التقرير سيعول عليه فى رسم سياسات مستقبلية.

بافتراض أن ابن فضلان قدم تقريرا، فإن هذا التقرير ليس هو الرسالة التى بين أيدينا، بل اتخذه مصدرا ومرجعا، لأنه يحوى معلومات جافة مباشرة، أما ما بين أيدينا فهو نتاج لقاءات بين ابن فضلان وجمع من أصدقائه الذين رأى أحدهم فيما يقول ما يستحق التدوين، فدونه ثم عرضه على ابن فضلان الذى صاغه فى صورته الأخيرة.

إن وصف الرحلة بعد العودة أتاح الفرصة لابن فضلان كى يتأمل انفعالاته، لذا

---

(١) رسالة ابن فضلان ١٠٥ ـ ١٠٦.

فقد الوصف بعض حرارته، ولم يفقدها كلها بسبب براعة ابن فضلان وقوة ذاكرته وروح الرحال المتأصلة فيه.

وقد أتاحت المباشرة ومراعاة مقتضى الحال فرصة طيبة ليتخلص من كل القيود والعوائق التى تربط أدب الرحلة بالجغرافيا، ففعل وجاءت رحلته أدبية خالصة.

تبقى مشكلة فى سؤال: من أطلق اسم «رسالة» على نص الرحلة؟ وما نصيب هذا الاسم من الصحة؟ الظن الغالب أن هذا الاسم لم يكن لابن فضلان يد فيه، وأن المعاصرين له أو المتأخرين عنه هم الذين اخترعوه.

لكن: ما المقصود بهذا الاسم؟ هل يقصد أنها رسالة ـ بالمعنى الشائع ؟ ليس ثمة دليل على صحة هذا الزعم. وهل يقصد أنها رسالة أدبية كرسائل الجاحظ ؟

لهذا الرأى بعض وجاهة، باعتبار أن المعاصرين لابن فضلان لم يجدوا وصفا يحويها سوى هذا الوصف، فقد كان مستقرا فى أذهانهم أن الرسالة الأدبية «أشبه بالمقالات...، وفيها يتناول الأديب موضوعا ما: فردبا أو اجتماعيا– تناولا أدبيا مبنيا على إثارة عواطف القارئ ومشاعره»[1] ولم يكن مصطلح «رحلة» معروفا، فأرادوا تصنيف ما كتب تحت مظلة مصطلح شائع معروف. ووجدوا مطلبهم فى مصطلح «رسالة» ، ونسبوها إلى صاحبها، فأصبح الاسم «رسالة ابن فضلان».

لغة رسالة ابن فضلان غريبة على عصرها، بل إن قارئها ـ دون معرفة زمن تدوينها ـ لن يفطن أبدا إلى أنها مكتوبة فى القرن الرابع الهجرى.

إنه ـ خلاف عصره ـ لا يستخدم المحسنات البديعية بعامة، والسجع منها بخاصة، فقد أغنته قدرته على الوصول إلى هدفه من أقصر الطرق وأسهلها عن اللجوء لمثل هذا السجع، كما أغنته القيمة الذاتية الموضوعية عن اللجوء إليه. وكأنما أحس ـ بروح الفنان ـ أن السجع معوق، فنحاه عن طريقه.

ولم يحاول ـ فضلا عن ذلك ـ الاستعانة ببعض المزينات الأخرى، فقد خلت الرسالة من الشعر، بينما تضمنت عدة آيات قرآنية وحديثا شريفا ورد نصا. وهذا التضمين لم يكن بغرض التزيين وإنما كان متوافقا مع خط سير الأحداث.

---

(١) أسس النقد الأدبى عند العرب. د/ أحمد بدوى. دار نهضة مصر ١٩٧٩، ص٥٨١.

والرحال يسعى دائما إلى التخلص من كل القيود حتى يصل إلى هدفه، والرحلة حركة فى مجال رحب فسيح..الرحلة حرية، ولقد تحرك ابن فضلان حركة حرة فى إطار المهمة المكلف بها، وكان سرده لتفاصيل هذه الحركة حرا كذلك. صحيح أنه اتبع منهجا محكوما بالزمان والمكان، إلا أن هذا الإطار كان مرنا بحيث أتاح له حرية الحركة والوصف فى آن. سرد ابن فضلان لأحداث قصته رشيق خفيف منسق، لا فجوات فيه.

والمفردات المستخدمة سهلة مألوفة معبرة، مستقرة فى موضعها. ولا يعكر صفوها إلا بعض المفردات الحضارية التى تخص أماكن بينها، وكذا بعض الأعلام الأعجمية. وثمة أفعال بعينها تحتم طبيعة الرحلة تكرارها مثل: رحل وسار... إلخ. وفى رحلة ابن فضلان تتكرر أفعال: رحلنا ـ سرنا ـ أقمنا ـ رأينا ـ نزلنا ـ حوالى عشرين مرة لكل، وتليها ـ فى المرتبة الثانية ـ أفعال: صرنا ـ قدمنا ـ وصلنا ـ عبرنا ـ انصرفنا ـ أهدينا ـ خرجنا ـ أخذنا ـ أوغلنا، ثم تأتى فى المرتبة الثالثة أفعال صادقنا ـ قطعنا ـ انحدرنا ـ تزودنا ـ اكتريبا ـ أفضينا ـ اجتزنا ـ مضينا. ويلاحظ أن معظم الأفعال وردت مضافة إلى «نا الفاعلين» وشيوع هذه الأفعال التى هى «أحداث فى زمان» يتناسب وجو الرحلة المعتمد على الحركة.

– واستخدامه لأدوات العطف دقيق يخدم غرضه، ويوحى بالبعد الزمانى، يتحدث عن أمير خراسان الذى رفض السماح لهم بمواصلة السير فيقول: «فانصرفنا عنه ذلك اليوم، ثم عاودناه، ولم نزل نرفق به ونداريه ونقول: «هذا أمر أمير المؤمنين وكتابه، فما وجه المراجعة فيه؟ حتى أذن لنا، فانحدرنا من خوارزم إلى الجرجانية»[1] استعراض طريف لأدوات العطف، واستخدام دقيق معبر لها.

– وفى بعض تعبيراته يبلغ مبلغا من السهولة، فيقارب العامية، مثل: «نزعوا ثيابهم وشروروها»[2]، و «لما سمعت تثنيته للإقامة نهيته وصحت عليه»[3]، و«هو رجل من صفته ونعته»[4]، «وأنا أعلم أنه يطالبكم» [5] «ولقد لقينا من الضر والجهد والبرد الشديد وتواصل الثلوج الذى كان برد «خوارزم» عنده مثل أيام الصيف»[6].

(١) رسالة ابن فضلان ٨١
(٢) السابق ٩٠
(٣) نفسه ١٢١ .
(٤) نفسه ٧٨.
(٥) نفسه ٨٨
(٦) نفسه ٨٩.

وقد يحكى ابن فضلان بعض مفردات أجنبية، ثم يترجمها، مثل: «بيرتنكرى» وتعنى بالتركية ـ كما أوضح ـ «الله الواحد». ومثل «بكند» بمعنى الخبز.. وهذه الحكاية تؤكد واقعية الرحلة. ويستخدم ابن فضلان الحوار بشكل مكثف لا يدانيه فيه رحال آخر، هو يدرك أن الحوار يعبر عن الحياة الاجتماعية الحقة التى تقوم على التواصل بين أفرادها باللغة، ومن خلال الحوار بالأخص، وهو يعى أن الحوار أفضل عوامل الكشف عن الشخصيات، وعن أسلوب تفكيرها، لذا فإنه يقدم مواقف حوارية عديدة تاركا للقارىء حرية استنباط الدلالة.

ولقد كان هذا الحوار سببا فى شهرة رحلة ابن فضلان وتعدد الدراسات حولها. وقد ساعد هذا على تثبيت.رحلته كنمط أدبى بعيد عن النمط الجغرافى، لأن الحوار من السمات المميزة للأدب. أكثر من خمسة عشر موقفا حواريا قدمها ابن فضلان، وهى فى أغلبها ـ قصيرة تضفى الحيوية على الرحلة، مؤدية لغرضها، تضيف جديدا دائما، تخفف من غلواء السرد المتواصل، فتعطى القارىء فرصة لالتقاط الأنفاس، والتقاط الحقائق من بين ثنايا الكلام.

***

ـ ٩ ـ

وإحدى الرحلات العربية الشهيرة ما سمى رحلة «الفتية المغررين» أو «المغرورين»؛ فقد أثارت جدلا كبيرا، واشتط بعض الباحثين فى استخلاص نتائجها.

وأول من تعرض لها كان الإدريسى، وعنه نقل معاصره «أبو حامد الغرناطى» ثم ابن الوردى وابن فضل الله العمرى. بيد أن رحلة مشابهة قام بها فتى أندلسى ذكر المسعودى أن اسمه «خشخاش» يمكن أن تنطبق على تلك الرحلة، أو تكون رحلة مشابهة مثلت المثير الذى ألهب حماس الفتية المغررين.

القيمة العلمية لهذه الرحلة تفوق قيمتها الفنية. وأقل ما يمكن أن يقال عن قيمتها العلمية: إنها كانت فتحا أتاح الفرصة ـ ومهد السبيل ـ «لركوب المحيط الأطلسى» الذى عرف «ببحر الظلمات» ومن ثم فإن باحثا يرى أن الخصومة

القائمة بين الأوروبيين لتعيين أى شعوبهم سبق إلى ركوبه، والكشف عن غوامضه ـ خصومة على غير أساس، وأن «السابقين إلى ذلك كانوا أولئك الفتية المغررين من أهل لشبونة»[1] وفى مقال بعنوان: «عرف العرب أمريكا قبل أن يعرفها أبناء الغرب» أصر الأب «نستاس الكرملى» على أن العرب المسلمين قد وصلوا أمريكا قبل الأوروبيين، وأخذ يدلل على ذلك بأدلة عقلية ونقلية ولغوية ـ وإن كان اتكاؤه على الجانب الأخير، ثم ختم بحثه قائلا: «وأنا أتحدى كل أديب ينكر علىّ هذه الحقاق، أن يفندها تفنيدا علميا: إما على طريق التاريخ، وإما على سبيل اللغة، وإما على سبيل النقل عن السلف. بشرط أن يكون التفنيد طلبا للحقيقة، لا للمماحكة والمعارضة والمعاندة والمباهاة»[2] . ثم دعم رأيه ـ فى عدد تال ـ بنص منقول عن أبى الثناء الأصفهانى، يؤكد فيه وجود حياة على الجانب الآخر من المحيط الأطلسى[3] .

ولعل هذه الرحلة «لم تكن مجهولة فى العصور الوسطى، بل لعل «كولومبس» كان يعرفها، ويعرف قصصاً أخرى من أخبار من حاولوا ركوب المحيط الأطلسى، وكشف غوامضه»[4] .

والفتية المغرورون ثمانية من أبناء العمومة، تحالفوا على القيام بمغامرة تنتهى بأحد شيئين: الوصول إلى الجانب الآخر، أو الموت؛ فأعدوا مركبا كبيرا، وحملوا فيه من الزاد ما يكفيهم مدة طويلة. وانتظروا الريح الملائمة للإبحار، فساروا فى المحيط أحد عشر يوما انتهت بدخولهم بحراً مخيفا، فحولوا دفتهم، وساروا اثنى عشر يوما، حتى وصلوا إلى جزيرة الغنم فذبحوا بعض غنمها الذى اتضح أن طعم لحمه مر، فأخذوا كمية كبيرة من جلودها، وتزودوا الماء العذب. ثم أبحروا عشرين يوما، فوصلوا جزيرة ذات عمارة، فقصدوها فأحاطت بهم الزوارق، واعتقلوا، وسيقوا إلى ملكها فى اليوم الرابع بشفاعة ترجمان يعرف العربية، وعندما حكوا حكايتهم للملك ضحك، وأخبرهم بتجربة مماثلة قام بها، فباءت بالفشل.

(١) مجتلة الثقافة . د/ عبد الحميد العبادى. عدد ١٩٤١/٨/٢ ص٦ وانظر نص الرحلة فى الروض المعطار ١٦ ـ ١٨ والرحلات لشوقى ضيف ٤٢ ـ ٤٤

(٢) مجلة المقتطف عدد فراير ١٩٤٥، ص ١٦٠.

(٣) محلة المقتصف عدد مارس ١٩٤٥ ص ٢٨٧.

(٤) الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ٥٠

ولما هبت ريح موافقة عصب رجال الملك أعين الفتية، ووضعوهم فى زورق، ثم سافروا بهم مدة طويلة، حتى وصلوا ساحلا، فتركوهم معصوبى الأعين، وعادوا. فلما انصرفوا أخذ الفتية يصيحون، فسمعهم سكان الساحل، فأقبلوا نحوهم، وحلوا عن أعينهم ثم أخبروهم أن بين هذا الموضع وبلدهم شهرا. فلما عادوا إلى بلدهم حدثوا الناس بحديثهم، فتعجبوا وأطلقوا اسمهم على الحى الذى يقطنونه. ورغم أن الرحلة لم ترو على لسان أصحابها ، فقد أجاد الإدريسى وصفها، وتصوير الظروف والملابسات التى أحاطت بها، ولابد أن بعض بصماته تظهر عليها.

إن أهم ما يميز هذه الرحلة فنيا أنها تؤكد على صفة رائعةفى هؤلاء الفتية، تجعلهم فى مصاف الرحالة الكبار، ذلك أنهم امتلكوا روح المغامر الشجاع الذى لا يعبأ بخطر أو مجهول، بل يتمنى الخطر والمجهول ليقتحمهما، ثم ليخرج سالما من أجل مواجهة خطر أو مجهول جديد.

صحيح أن الرحلة تحمل طابع الاستكشاف، ولكن هل كان متاحا أن يصير هذا الاستكشاف واقعا لولا الدافع الذاتى الملح فى نفوس هؤلاء الفتية؟!

إن التركيز على أن هؤلاء المغامرين فتية يكشف عن توفر إمكانات مؤهلة لنجاح الرحلة؛ فهم فتية، صغار السن، يستطيعون تحمل المشاق كما أن لهم من العقل والذكاء ما يضمن لهم العودة سالمين وإن لم يتحقق هدفهم كاملا. وهم واعون تماما بأن ما يقومون به ليس عبثا أو تسلية. بل يعون أنهم يبغون خير البشر، وسعادتهم. وفى سبيل هذا الخير وتلك السعادة يبذلون أرواحهم رخيصة. من هذا المنطلق قدر لهم معاصروهم الأقربون سمو هدفهم، وعظيم تضحيتهم. وكان إطلاق اسمهم على مكان بعينه بمثابة التكريم المعنوى الذى يلمح ضرورة أن يكون فعلهم هاديا لمن يلى، ووعيا بأن كل تكريم مادى مرتبط بآنه فحسب.

لقد كان ما قام به هؤلاء عجيبا، ومن ثم استحق الذيوع والانتشار، وتعددت رواياته بتعدد من يحكونه، فاضطر الذين سجلوه إلى الاقتصار على المعالم الأساسية مغفلين كل تفصيل. ولم يكن تعدد الروايات فى صالح الفن بحال. فقد تواطأت هذه الروايات على إخفاء كل ما هو فردى ذاتى، وكل ما هو إنسانى قد حكاه

الفتية. لتبقى الرواية النهائية تلخيصا قد يكون وافيا ومعبرا عن الرحلة.

ولأن الرواية النهائية تلخيص واف، فقد تضمنت الوحدات الأساسية لكل رحلة، فالمقدمة أكدت بما لا يدع مجالا للشك إصرار الفتية على تحقيق هدفهم، وكانت رحلة الذهاب شاهد صدق على إخلاصهم لهذا الهدف. ثم دارت الأحداث فى الجزيرة البعيدة المأهولة كبديل للبر الغربى، وكانت رحلة العودة الغربية إمعانا فى تمجيد هؤلاء الفتية وتقديرهم. وبوصول الفتية إلى بلادهم تحل عقدتهم، ويقتنعون بأنهم فعلوا ما يستطيعون. ومن ثم يكون مبررا أن يحكوا قصة رحلتهم مع غير قليل من الفخر والاعتزاز.

فى حال النص الغيرى يصبح صعبا تقويم طريقة الأداء اللغوى. فهل ينسب النص إلى راويه؟ أم إلى صاحبه الفعلى؟

الحل التوفيقى يقتضى اعتبار النص حاملا للخصائص الأصلية التى أداه عليها صاحبه، ثم جاء صائغه ليضفى عليه بعض لمساته التى تغير فى التشكل الخارجى دون مساس بالجوهر. إن طبيعة الرحلة ـ كحدث متكامل الحلقات ـ تفرض على مسجلها التزام سبيل التوحيد والتوصيل، ذلك أنه لا يخترع أحداثا ووقائع، وإنما يصفها. وليس مطلوبا منه إلا أن يؤديها كما وصلته، مع بعض تدخل ـ إذا اقتضى الأمر ـ لصالحها، لا عليها.

الوحدة الموضوعية ـ إذا ـ أمر واجب توفره على المستويين: النظرى والتطبيقى، ولأن الوحدة الموضوعية متحققة كإطار، يصبح من السهل حسو هذا الإطار بتفاصيل متناسقة. وقد أدى اتساق الإطار العام واستقامة الخطوط إلى الوضوح على كافة المستويات، وكان المستوى اللغوى أبرزها، فجاءت المفردات مختارة بعناية، رغم أنها لا تقصد لذاتها، كما يمكن التغاضى عن بعض المفردات التى تعسر على الفهم المعاصر مستقلة، وإن كان سياقها الواضح يعوض هذا النقص، فتبدو مألوفة.

والحوار ـ رغم أنه لا يشغل حيزا مناسبا ـ دليل أمانة فى النقل، ودليل حيوية تمتعت بها الرحلة الأصلية، وانعكس هذا التفاعل البشرى على النص.

ألف الربان «بزرك بن شهريار الرامهر مزى» كتابه «عجائب الهند: بره وبحره وجزائره»، فى منتصف القرن الرابع الهجرى، لينال شهرة عظيمة، واهتماما علميا متناميا.

برزك بن شهريار لم يكن معروفا فى عصره، وكل ما وصل عنه أنه كان ربانا، وأنه مؤلف الكتاب الرائع، الذى نشر لأول مرة عام ١٨٨٦ بليدن، فى طبعة فاخرة تضارع أحدث الطبعات ـ إن لم تفقها، مشتملة على النص الأصلى الذى حققه «فون ديرليث» تحقيقا يحتاج إلى مراجعة شاملة، وترجمة قام بها ـ مارسيل ديليك وضعت فى الشطر الأسفل للصفحة. كما قدم له «فون ديرليث» بمقدمة قصيرة، وختمه بتعليقات وفهارس متنوعة.

وقد استخلص ناشر مصرى النص العربى من هذه الطبعة، ونشره عام ١٩٠٨، حاويا الأخطاء الكثيرة فى طبعة ليدن، بل أضاف إليها. ويبدو أنه كان يقصد إلى تقديم الكتاب للطبقات الشعبية، فتجاهل أصول النشر العلمية. ولعل دلالة واضحة ينطوى عليها هذا التصرف. وحتى الآن مازال الكتاب ينتظر من يحققه تحقيقا علميا جديرا به، ثم يدرسه دراسة شاملة تزيل عنه ما علق به من غبار الإهمال والنسيان.

ولقد عرف باحثون كثيرون لهذا الكتاب قيمته، فأثنوا عليه بما يستحق ـ فكراتشكوفسكى يراه «مصنفا أدبيا ممتازا، لا يقل قيمة، عن أفضل مواضع «أسفار السندباد» بل يفوقها أحيانا»[1] وليس غريبا ـ بعد ذلك ـ أن يعتبره د/ حسين فوزى «صورة من الحياة على ظهر البحر الشرقى وفوق شواطئه وجزائره، تساعدنا على فهم كثير مما ورد فى كتب الجغرافيا العربية. بل نجد فيه أكبر المعونة على شرح القصص البحرية وتحليلها فى الأدب العربى. وإذا صدقنا بعض روايات صاحب الكتاب، فإننا نجد فيه سجلا قيما جدا لما كانت تتناقله الألسنة والأسماع فى موانىء سيراف ورامهرمز) وغيرهما) عن ربابنة «بحر الهند والصين»[1].

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافى ١٤٣/١.

(٢) حديث السندباد القديم ٤٤

ويبصر د/ شوقى ضيف فى الكتاب «قصة ملاحى العرب فوق متن المحيط الهندى والهادى على توالى العصور، وما شاهدوا فيهما من عجائب الملاحة وغرائب العواصف، وما أبصروه من حيوانات وأسماك بحرية، وطيور ونسور مائية»[1].

كتاب برزك موسوعة بحرية شاملة، اجتهد هذا الربان فى جمع مادتها متبعا وسائل عدة، أهمها السؤال المباشر، بل استنطاق كل من له صداقة مع البحر ما يعرفون عنه من غرائب وعجائب وحوادث، عاينوها بأنفسهم، أو حدثت، لهم أو نقلوها عن غيرهم. وحين يجد البحار آذانا صاغية تنساب حكاياته، فلا يستطيع سكوتا أو تواضعا، بل يشرع فى الكلام، ويستزاد فيزيد، فإذا ما أوشك محصوله على النفاد شحذ زناد فكره ليخترع مالم يحدث، أو ليضخم حوادث صغيرة. المهم أن يكون حاضرا وفاعلا.

إذا، أفلح بزرك فى مهمته، مستغلا صداقته لأبناء مهنته، فجمع مواد تلك الموسوعة، وأداها كما سمعها، دون محاولة لمصادرة رأى، أو تكذيب حادثة، أو تشكيك فى ثقة، فجاء الكتاب صورة مطابقة لحياة البحريين التى لا يحكمها منطق.

الدور الرئيسى لبزرك فى هذا الكتاب هو لم شتات تلك الحكايات البحرية، وهذا ليس دليل سلب، فالحس الحضارى المرهف دفعه إلى تسجيل صورة عصره، وجاء التسجيل أمينا. ثم دفعه هذا الحس المتميز لتقريب صورة عصره إلى الأذهان؛ فقدمه فى صورة فنية قصصية، يسمع القصة من صاحبها، ويلم بأركانها الأساسية، ثم يعيد صياغتها بأسلوبه هو.. وبألفاظه هو.. إنه يعيد خلقها.. يبدعها من جديد، فتتحول إلى «قصة مغامرات، أو دراما أخلاقية معروضة بالكثير من المهارة الفنية. ويُحس من هذا العرض العام للقصص أنها لشخص يتمتع بأسلوب حى سلس، ويجيد الفن القصصى، ويعرضه – أحيانا ـ بطريقة وجدانية مؤثرة»[2]. إنه لا غلو

---

(١) الرحلات ٣٣.

(٢) تاريخ الأدب الجغرافى ١٤٣/١.

حين القول بأن بعض قصص بزرك تضارع كثيرا من النماذج المشرقة المتميزة للقصة القصيرة المعاصرة– هذا إن لم تتفوق عليها.

إن عدة رواة بزرك ثلاثون راويا سوى المجهولين، وتتراوح مساهمتهم بين مساهمة واحدة واثنتي عشرة، ولأبى محمد الحسن بن عمر بن حمويه بن حرام النجيرمى البصرى، وأبى عبد الله محمد بن بابشاد بن حرام ابن حموريه السيرافى أن يفخرا بأنهما أكبر مساهمين؛ إذ تساويا فى الإيجابية التى أفرزت اثنتى عشرة مساهمة لكل. يليهما ـ فى المركز الثانى اسم عيلويه الناخدا بسبع مساهمات، فجعفر بن راشد المعروف «بلاكيس» بأربع مساهمات.

والكتاب ينقسم إلى قسمين، أولهما ضعف الثانى. ولا أساس يحكم هذا التقسيم. وكل قسم يحتوى على مادة معرفية تتخذ شكلين أساسين:

١ ـ قصة بحرية هدفها إلقاء ضوء أو تقديم معلومة، أو إثارة شفقة، أو زيادة إيمان.

٢ ـ معلومة مباشرة ، قد تقدم فى سطر واحد، أو فى بضعة أسطر. وما يميز الكتاب قصصه البحرية الرائعة التى تنتمى إلى أرض الواقع ولا يدخلها الخيال إلا خلسة ولا تقل صفحاتها عن الواحدة، ولا تزيد عن العشر، يركز أغلبها على حادث أو فكرة واحدة، فى حين تتشابك الحوادث وتتداخل فى بعضها. وفى كلتا الحالتين تلتزم القصة الإطار العام للقصة البحرية التى «يصور المؤلف حدوثها فى داخل البحر أو فوق سطحه أو على سواحله وجزائره. ويكون البحر حاضرا فى ذهن المؤلف والقارئ وأشخاص القصة كلهم أو بعضهم. وللبحر أثر واضح فى حوادثها، أو على أشخاصها»[1]. ولعل أروع تلك القصص وأنضجها فنيا قصة الشيخ الأندلسى (ص١٥) والرقيق الطائر (٢٣) والملك العبد (٣٨) والقرد الإنسان (٥٠) والمرأة الشجاعة (١٠٣)، والمصيبة الكبرى (١٢٥) [2] ففى بعضها يصل التحليل النفسى لشخوصها إلى درجة عالية، وفى بعضها يبلغ الوصف حدا بعيدا من الإجادة، وفى كلها تستخدم عناصر فنية. ولعل الميزة الكبرى لهذه القصص وغيرها أن العلاقة بينها وبين الواقع لا تنفصم بحال.

---

(١) حديث السندباد القديم ١٨٨.

(٢) الأسماء السابقة مقترحة، وما بين القوسين رقم الصفحة فى طبعة القاهرة.

ويلاحظ أن برزك اكتفى بنقل القصص أو المعلومات من غيره، ولم يشر إلى ما يمكن أن يعد من تجاربه الشخصية، أو معارفه الخاصة. فهل كان الأمر كذلك؟ الإجابة على هذا التساؤل تحتمل افتراضين:

١ ـ أن بعض ما رواه نتاج تجربة شخصية حقيقية، غير أنه تحرج من نسبتها إلى نفسه حتى لا يتهم، ومن ثم اخترع رواة وهميين نسب إليهم ما يريد. وكثير من رواته مجهولون ـ بمعنى أنه لم يذكر أسماءهم ـ وهذا يؤدى إلى القول بأن بعض ما رواه عنهم ربما كان من روايته هو.

٢ ـ أن بزرك كان ـ دوما ـ يستمع إلى الإطار العام للقصة، ثم يتولى بنفسه حشو هذا الإطار، معتمدا على تجاربه الخاصة، وقد ذهب إلى هذا الرأى د/ حسين فوزى بعد قراءته لقصة منسوبة لأبى الزهر البرختي ـ أعنى قصة الشيخ الأندلسى ـ يقول: «لقد كنت أتساءل أيام قراءتى لكتاب عجائب الهند قراءة عابرة ـ إذ رأيت بزرك بن شهريار ينقل إلينا طول كتابه أحاديث غيره::لماذا لا يحدثنا بزرك بن شهريار الناخداه عن أسفاره هو؟ إلى أن لاحظت بعد دراستى تلك الصفحات المختارة أنها إما من قلم أبى الزهر البرختى نفسه، أو أن أبا الزهر قص على بزرك قصته، فلما أخذ هذا فى كتابتها تصور حال مركبه وهو وسط العواصف، فوصف إعصارا من الأعاصير التى خبرها بنفسه فى حياته الطويلة»[1]. ويجمل فى هذا الموضع نقل هذا الوصف الرائع لذلك الإعصار. تحدث بزرك عن مسافرين «وهم يسيرون فى بحر «ملانو» وقد قربوا من أطراف أرض «صين» وأبصروا بعض جبالها، فلم يشعروا إلا وريح قد خرجت عليهم من تلك الجهة التى يقصدونها، فلم يسعهم إلا الانصراف معها حيث توجهت، وركبهم من هول البحر ما لا طاقة لهم به.

ومرت بهم الريح إلى سمت سهيل، ومن اضطر فى ذلك البحر إلى أن يصير سهيل على قمة رأسه فقد دخل بحرا لا رجعه له منه، وتنكس فى لحة هابطة إلى الجنوب،مصوبة إلى تلك الجهة. كلما مر مركب علاما وراءها من جهتنا،

---

(١) حديث السدباد القديم ٤٩ ـ ٥٠

وهبط ما بين يديها من تلك الجهة، فلا يستطيع الرجوع بريح عاصف ولا بغيره، وهوت في لجج البحار المحيطة. فلما رأوا أمرهم يؤدى إلى الدخول تحت سهيل، ودخل عليهم الليل وأظلم وادلهم، وحال بخار البحر ودجنته ونداه وزخره بيسهم وبين النجوة، فلم يروا ما يهتدون به، وهول البحر وأمواج ترفعهم إلى السحاب وتخفضهم إلى التراب، وهم يحرون في قارو ضباب طول الليل، وأصبح عليهم، فلم يشعروا به لشدة ظلمة ماهم فيه، واتصال قار البحر، مع ضباب الجو وغلظ الريح وكدورته. فلما طال عليهم الليل وهم يجرون في قبضة الهلكة قد حكم عليهم الريح العاصفة، والبحار الزاخرة، والأمواج الهائلة ومركبهم يئط ويئن، ويتقعقع ـ توادعوا، وصلى كل منهم إلى جهة على قدر معبوده، لأنهم كانوا شيعا من أهل الصين والهند والعجم والجزائر، واستسلموا للموت، وجروا كذلك يومين وليلتين لا يفرقون فيهن بين الليل والنهار»[1].

ومما يدل على أن ثمة تدخلا من قبل بزرك تفصيله لقوانين البحر ـ العرفية ـ التي ارتضاها أصحاب وربابنة وبحارة المراكب، كقوله على لسان أبي الزهر ردا على رجاء الركاب أن يقلب بهم المركب: اعلموا أنه قد يجرى على المسافرين والتجار أهوال هذا أسهلها وأرحهما، ونحن ـ معشر الربانية ـ علينا العهود والمواثيق ألا نعرض سفينة إلى العطب وهي باقية لم يجر عليها قدر. ونحن ـ معشر ربانية السفن ـ لا نطلعها إلا وآجالنا وأعمارنا معنا فيها، فنعيش بسلامتها، ونموت بعطبها. فاصبروا واستسلموا لملك الريح والبحر»[2].

والكتاب ـ بعد ذلك ـ يمكن أن يطلق عليه «معجم رحلات» أو «موسوعة رحلات» إنه لا يعتمد على رحلة واحدة فحسب يقوم بها رحال ـ أو رحالون، وإنما يعتمد على رحلات عديدة ذات ملامح متباينة حينا، متقاربة أحيانا. غير أن جمع هذه الرحلات كان بمثابة محاولة جادة لوصف رحلة واحدة هي: «رحلة العرب إلى الهند» ولأن هذه الرحلة الكبرى مكونة من وحدات صغيرة كثيرة، اتسع الحرق على الراقع، ولم يستطع بزرك لها ضبطا أو تنسيقا. فوضعها كيفما اتفق.

(١) عجائب الهند ١٦ ـ ١٧.

(٢) نفسه ١٧ ـ ١٨.

وباستعراض الصورة العامة لتلك الرحلة يتضح ذلك:

فهو يبدأ بمقدمة تقليدية: يحمد الله تعالى، ويصلى على رسوله (صلى الله عليه وسلم)، ثم يوضح أن العجائب عشرة أقسام، تسعة منها فى الشرق، وجزء فى بقية المعمورة. وثمانية من التسعة فى الهند والصين. ونظرا لهذا التفوق العجائبى فإن الهند ـ والصين ـ تستحق أن يفرد لها هذا الكتاب.. ويلاحظ هنا أن بعض ما أورده يتفق وما أورده التاجر سليمان، مما يدل على صحة المصدرين معا.

فى القسم الأول يركز بزرك على محورين:

١ ـ القصص البحرى.

٢ ـ العجائب المتصلة بالبحر: الأسماك، والحيوانات، والطيور.

وفى القسم الثانى يركز على محورين أيضا:

١ ـ العجائب البحرية.

٢ ـ العجائب البرية فى الهند، خاصة فيما يتصل بالعادات والتقاليد ونظم الحكم.

وإذا كان ذلك كذلك، فإن العنوان الذى اختاره لكتابه يكون معبرا تعبيرا دقيقا عن المضمون. وذلك ما يسجل لصالح بزرك. وتكون المحاور التى اعتمدها بزرك ثلاثة:

١ ـ القصص البحرى.

٢ ـ العجائب البحرية.

٣ ـ العادات والتقاليد الهندية العجيبة.

وليس معنى الثقة فى بزرك أن كل ما يرويه صدق محض، فتلك العجائب التى يرويها منها الممكن ـ باعتبار اختلاف البيئات، ومنها المحتمل؛ فالله قادر على كل شىء. ومنها ما يكاد يكون مستحيلا. ولكن تجدر الإشارة إلى أن العلم الحديث قد أثبت أن بعض قصص بزرك التى ملئت بالمبالغات والأعاجيب... لا تخلو فى

أساساها من الصدق فى أغلب الأحيان»[1]. وقد تتبع متخصص فى علوم البحار كثيرا من روايات بزرك التى تبدو مستحيلة للوهلة الأولى، وأثبت أنها قائمة على حقائق علمية عاينها بنفسه[2].

ولعل أهم ما يميز هذا الكتاب أسلوبه الفريد، الذى يعد مستشرفا آفاقا من السمو فوق كل مما حكة أو تكلف.

لقد عبر بزرك عن نفسه هو، وبأسلوبه هو، وكان صريحا؛ فلم يجنح إلى تمويه ملفوظ، أو إغراب ممجوج. كان يستدعى أركان حكايته ويعرضها على ذهنه كشريط أحداث متصل، ثم يفيض من مشاعره وأحاسيسه عليها، وعندما تتمثل الحكاية فى ذهنه كاملة يترك العنان لقلمه، فينطلق مسحلا ماجل ودق، وتخرج الحكاية طبق الأصل الذى فى ذهنه.

ولأن الألفاظ الحاملة للمعانى كانت تحرج بلا تكلف ودون استكراه أو معاودة، فقد أصاب بعضها ضعف، فخرجت عن إطار الفصيح، واندرجت فى سلك العامى. كما ظهر الخلل فى تركيب بعض الجمل أما الأخطاء النحوية والإملائية فكثيرة فجة، وليس معروفا إذا ما كانت هذه الظواهر أصلية عند بزرك، أو دخيلة عليه بسبب النساخ أو المحقق.

لم يتعلم بزرك البلاغة فى مدرسة بغداد أو البصرة، وإنما تعلمها فى مدرسة الحياة، ولذلك فإن «المطالع المنصف لا يتمالك أن يحس بالنفحة البحرية تهب على صفحاته، والقوة والحركة تسرى فى أعطافه. لقد طالعت أكثر ما جاء بالأدب الرسمى العربى عن البحر، فلم أجد فيه ما يدانى ـ ولو من بعيد ـ ما جاء بكتاب «عجائب الهند» صدقا فى الوصف، وقوة على الإيحاء بالجو البحرى. وليس هذا أثرا من آثار التقعر البديعى والبيانى، وإنما هو نتيجة إيضاح المتكلم إيضاحا مباشرا عن تجاربه الشخصية، فهى بلاغة كثيرة الشبه ببلاغة المشاهدة فى يوميات الرحالين والرواد فى كل اللغات، بلاغة ترتفع باللغة إلى نوع من السهولة والصفاء، يجعل

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٦١٧/٣

(٢) حديث السندباد القديم ٦٢ ـ ٦٤

من عريها جمالا؛ ومن عطلها حليا نادرا لا تراه العيون، وإنما تشعر به النفوس»[1].

والجزء الوحيد الذى يشذ عن هذه القاعدة هو المقدمة، التى بدا فيها بزرك حريصا على السجع، متكلفا على غير العادة، مما يحمل على الظن بأنها ليست من صنعه، وأنها منحولة عليه من قبل أحد نساخ مخطوطته. يقول ـ مثلا ـ «صلى الله عليه وآله مالمع برق. وأشرقت شمس من شرق». وهذه الجملة الأخيرة ذات دلالة ترتفع بها عن أن تكون مجلوبة للسجع فحسب، فمغزى طلوع الشمس من الشرق واضح، ثم إن ذلك كان بمثابة حسن تخلص رابط بين المقدمة والموضوع ذاته. واتساقا مع الواقع الفعلى يحكى بزرك بعض المفردات الأجنبية مثل: «إنسترتوا، معناه، ما أعمل لهم»[2]. و«فقال لها: أنا بلا وجزك. وهو بكلام الهندى: إنى أفعل بنفسى مثل ما بصيبك»[3].

وليست هذه هى المفردات الصعبة فحسب، بل تواكبها مفردات عديدة من القاموس الخاص بالبحارة مثل: الأنجر ـ السكان ـ الدبدبان ـ مطيال ـ دونيج ـ قارية... إلخ. وقد ينم أسلوبه عن دهشته؛ ففى مواضع كثيرة يحتم الحكاية أو المعلومة بقوله: «تبارك الله أحسن الخالقين» أو شكه بالتعقيب التشهير «والله سبحانه وتعالى أعلم». وكل ما يرويه بزرك نتاج حوار: خارجى وداخلى. والحارجى بينه وبين راوى القصة أو المعلومة، والداخلى ما كان متضمنا فى القصة نفسها.

ولعل استخدام الحوار بهذا التكثيف دليل تمكن بزرك من أدواته، ودليل إدراكه لطبيعة قارئه الذى لا يصبر على التلقى الممل الجاف المباشر طويلا، بل يطمع فى سماع وجهات نظر، فى الإحساس بتفاعل.. بحركة وحيوية. وتأتى المواقف الحوارية تلك لتؤكد على تشبع بزرك بروح الفنان الواعى.

---

(١) حديث السندباد القديم ٤٥

(٢) عجائب الهند ٢٧

(٣) نفسه ٨٦

المصادر والمراجع

١- المصادر:

١- القرآن الكريم.

٢- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم:

المقدسي: تحقيق / دى خويه. مطعة بريل ليدن ١٩٦٧.

٣- إحياء علوم الدين:

أبو حامد الغزالي «مكتبة الدعوة الإسلامية» القاهرة د. ت

٤- أخبار الزمان:

ينسب للمسعودي (؟) تحقيق / عبدالله الصاوى. دار الأندلس . بيروت ١٩٨٣.

٥- الأعلاق النفيسة:

ابن رسته، تحقيق دي خويه. ليدن ١٩٦٧.

٦- الأغاني:

أبو الفرج الأصفهاني ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠ ومابعدها.

٧- الإفادة والاعتبار:

عبد اللطيف البغدادي. تحقيق / أحمد غسان سبانو، دار قتيبة، بيروت ١٩٨٣.

٨- الإكسير في فكاك الأسير محمد بن عثمان المكناسي. تحقيق: د/ محمد الفاسي. الرباط ١٩٦٥.

٩- الإمتاع والمؤانسة:

أبو حيان التوحيدي. تحقيق/ أحمد أمين وأحمد الزين. لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة. ١٩٥٧.

١٠- تحفة الألباب ونخبة الإعجاب:

أبو حامد الغرناطي. تحقيق/ جبرائيل فيران. باريس. ١٩٢٥.

١٢- تلبيس إبليس:

ابن الجوزي. مكتبة المتنبي. القاهرة ١٣٨٦ هـ.

١٣- التنبيه والإشراف:

المسعودي. تحقيق / دي خويه بريل ليدن ١٩٦٧.

١٤- التنبيه والإشراف:

المسعودي. تحقيق/ عبد الله الصاوي. القاهرة

١٥- خريدة العجائب وفريدة الغرائب:

عمر بن الوردي. البابي الحلبي. القاهرة ١٩٣٩.

١٦- خطط المقريزي:

المقريزي . دار التحرير . القاهرة. د. ت.

١٧- دمية القصر:

الباخرزي. تحقيق د/ سامي مكي العاني . مطبعة المعارف. بغداد ١٩٧٠.

١٨- رحلة الإمام الشافعي:

نشرها محب الدين الخطيب. المطبعة السلفية القاهرة ١٣٥٠ هـ

١٩- الرحلة في طلب الحديث: الخطيب البغدادي. تحقيق/ نور الدين عنتر. دار الكتب العلمية. بيروت ١٣٩٥ هـ/١٩٧٥م.

٢٠- رسالة ابن فضلان:

ابن فضلان. تحقيق د/ سامي الدهان. دمشق ١٩٥٩ .

٢١- الرسالة الثانية:

أبو دلف مسعر بن مهلهل. تحقيق/ بطرس بولغاكوف وأنس خالدوف. ترجمة د/ محمد منير موسي . عالم الكتب. القاهرة ١٩٧٠ .

٢٢- الروض المعطار في أخبار الأقطار (صفة جزيرة الأندلس) .

الحميري تحقيق: ليفي بروفنصال. لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٣٧ .

٢٣- سلسلة التواريخ:

التاجر سليمان. تحقيق/ لانجليس . باريس ١٨١١ .

٢٤- صفة جزيرة العرب:

ابن الحائك الهمداني. تحقيق محمد بن عبد الله بن بلهيد. مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٣ .

٢٥- صورة الأرض:

ابن حوقل. تحقيق / كرامرس. ليدن ١٩٦٧ .

٢٦- عجائب المخلوق وغرائب الموجودات:

زكريا بن محمد بن محمود القزويني. مكتبة محمود توفيق القاهرة. د. ت.

٢٧- عجائب الهند: بره وبحره وجزائره:

بزرك بن شهريار الناخداه الرامهرمزي. مطبعة السعادة. القاهرة ١٩٠٨ .

٢٨- الفهرست: ابن النديم. تحقيق/ رضا تجدد. طهران. د. ت

٢٩- كتاب أسماء جبال تهامة وسكانها، وما فيها من القري، وما ينبت عليها من الأشجار، وما فيها من المياه:

عرام بن الأصبغ السلمي. تحقيق/ عبد السلام هارون. القاهرة ١٣٧٣ هـ.

٣٠- لسان العرب:

ابن منظور. تحقيق/ لجنة من دار المعارف. دار المعارف. القاهرة ١٩٧٩.

٣١- لطائف المعارف:

الثعالبي النيسابوري. تحقيق/ إبراهيم الإبياري وحسن كامل الصيرفي. البابى الحلبي . القاهرة ١٩٦٠.

٣٢- مختصر تفسير ابن كثير:

ابن كثير. محمد علي الصابوني. دار القرآن. بيروت ١٩٨١.

٣٣- مختصر كتاب البلدان:

ابن الفقيه. تحقيق/ دي خويه. ليدن ١٩٦٧.

٣٤- مروج الذهب ومعادن الجوهر:

المسعودي. تحقيق/ محمد محيي الدين عبد الحميد. دار المعرفة. بيروت١٩٦٤.

٣٥- المسالك والممالك:

ابن خرداذبه. تحقيق دي خويه. ليدن ١٩٦٧.

٣٦- المسالك والممالك:

الإصطخري. تحقيق د/ محمد جابر الحيني. دار القلم. القاهرة ١٩٦١.

٣٧- المطرب في أشعار أهل المغرب:

ابن دحية. تحقيق/ مصطفي عوض الكريم. الخرطوم ١٩٥٤.

٣٨- معجم الأدباء:

ياقوت الحموي. ط أحمد فريد رفاعي. القاهرة د. ت.

٣٩- معجم البلدان:

ياقوت الحموي. دار صادر . بيروت ١٩٨٦.

٤٠- مقدمة ابن خلدون:

ابن خلدون . تحقيق د/ علي عبد الواحد وافي. دار نهضة مصر ١٩٧٩ .

٤١- المقصور والممدود: .

الفراء. تحقيق/ عبد العزيز الميمني الراجكوتي. دار المعارف ١٩٧٧.

٤٢- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر:

الثعالبي. تحقيق/ محمد محيي الدين عبد الحميد. ذار الكتب العلمية بيروت .د .ت.

٢- المراجع العربية:

٤٣- الأدب الأندلسي من الفتح إلي سقوط الخلافة:

د/ أحمد هيكل. دار المعارف ١٩٧٩ .

٤٤- أدب الرحلات عند العرب:

د/ حسني محمود حسين. الهيئة المصرية العامة للكتاب (المكتبة الثقافة) ١٩٧٦.

٤٥- أدبيات الجغرافيا والتاريخ:

حويدي. القاهرة .د. ت

٤٦- أسس النقد الأدبي عند العرب:

د/ أحمد بدوي. دار نهضة مصر ١٩٧٩.

٤٧- الإسلام والفكر الجغرافي:

د/ صلاح الدين الشامي. منشأة المعارف. الإسكندرية ١٩٧٨ .

٤٨- أصول الفقه الإسلامي:

د/ زكريا البري. دار النهضة العربية. القاهرة.د.ت.

٤٩- الأعراب الرواة:
د/عبد الحميد الشلقاني. دار المعارف ١٩٧٧.
٥٠- أنيس منصور ، حياته وأدبه:
مأمون غريب. المكتبة العصرية. بيروت. د. ت.
٥١- التراث الجغرافي اللغوي عند العرب:
د/ حسين نصار. مطبعة المجمع العلمي العراقي.
بغداد ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧م.
٥٢- الجغرافيا والرحلات عند العرب:
د/ نقولا زيادة. دار الكتاب اللبناني المصري- ١٩٦٢.
٥٣- جهود المسلمين في الجغرافيا:
نفيس أحمد. ترجمة/ فتحي عثمان. القاهرة. دار الهلال . د. ت.
٥٤- جوائز الدولة في الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية:
المجلس الأعلي للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية. جوائز عام ١٩٦٣ . القاهرة ١٩٦٥.
٥٥- جولة في ربوع الشرق الأدني:
محمد ثابت. النهضة المصرية ١٩٥٢ .
٥٦- حديث السندباد القديم:
د/ حسين فوزي. دار المعارف ١٩٤٣ .
٥٧- حول العالم في(٢٠٠) يوم:
أبيس منصور. دار المعارف ، ١٩٧٥ .
٥٨- دائرة المعارف:
بطري الستاني. مطبعة المعارف. بيروت ١٨٨٤ .

٥٩- دراسات في الرواية الإنجليزية:
د/ أنجيل بطرس سمعان. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨١.
٦٠- الرحالة المسلمون في العصور الوسطي:
د/ زكي محمد حسن. دار المعارف ١٩٤٥.
٦١- الرحلات:
د/ شوقي ضيف. دار المعارف ١٩٧٦.
٦٢- الرحلة: عين الجغرافيا المبصرة:
د/ صلاح الدين الشامي. منشأة المعارف. الإسكندرية ١٩٨٢.
٦٣- عصر الدول والإمارات (الجزيرة والعراق وإيران).
د/ شوقي ضيف. دار المعارف، ١٩٨٣.
٦٤- عصر الدول والإمارات (مصر والشام):
د/ شوقي ضيف. دار المعارف ١٩٨٤.
٦٥- الغابة:
مصطفي محمود. القاهرة. د. ت.
٦٦- فن المقال:
د/ محمد يوسف نجم. دار الثقافة. بيروت ١٩٦٦.
٦٧- المسعودي:
د/ علي حسني الحربوطلي. دار المعارف ١٩٨٠.
٦٨- مفهوم النثر الفني:
البشير المجدوب. تونس ١٩٨٢..

٦٩- نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي:

د/ حسين نصار. النهضة العربية . القاهرة ١٩٦٦ .

٧- النقد الأدبي الحديث:

د/ محمد غنيمي هلال. دار مطابع الشعب. القاهرة ١٩٦٤

٣- المراجع المترجمة:

٧١- بلدان الخلافة الشرقية:

لى سترنج. ترجمة : كوركيس عواد.. بغداد ١٩٥٣

٧٢- تاريخ الأدب الجغرافي العربي:

أغناطيوس كراتشكوفسكي. ترجمة/ صلاح الدين عثمان هاشم. لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٣-١٩٦٥.

٧٣- تاريخ الأدب العربي:

بروكلمان. ترجمة عبد الحليم النجار وآخرين. دار المعارف .

٧٤- الجغرافيا العربية في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين (الثالث والرابع الهجريين) : س.م. ضياء الدين العلوي. تعريب وتحقيق د/ عبد الله يوسف الغنيم ود. طه محمد جاد. دار المدنى. جدة ١٩٨٤ .

٧٥- الجغرافيا عند المسلمين:

كرامرس وآخران. كتب دائرة المعارف الإسلامية (٩) دار الكتاب اللبناني. بيروت ١٩٨٢ .

٧٦-- الجغرافيا في القرن العشرين:

جريفيث تيلور وآخران. ترجمة د/ محمد السيد غلاب ومحمد مرسي. القاهرة ١٩٧٤ .

٧٧- الحضارة الإسلامبة في القرن الرابع الهجري:

آدم متز. ترجمه د/ محمد عبد الهادى أبو ريدة. مكتبة الحانجي، دار الكتاب العربي القاهرة - بيروب ١٣٨٧ هـ/ ١٩٦٧م.

٧٨- دائرة المعارف الإسلامية:

لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية. القاهرة.

٧٩- دراسات عن المؤرخين العرب:

مرجليوت. ترجمة د/ حسين نصار. دار الثقافة. د. ت

٨٠- ضرورة الفن:

آرنست فيشر. ترجمة/ أسعد حليم. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦ .

٤- فهرست الدوريات

٨١- الأهرام:

عدد ٢ مايو ١٩٨٦ ، بعنوان: باحثة سورية تكتب عن أدب الرحلات الغربية في البلاد العربية.

٨٢- ترات الإنسانية:

المجلد الثامن ١٩٧٠ ، رسالة ابن فضلان في وصف رحلته إلي بلاد البلغار والخزر. فوزي العنتيل.

٨٣- الثقافة:

عدد ٥ أغسطس ١٩٤١ ، مقال د. عبد الحميد العبادي: «حديث الفتية المغررين» .

٨٤- عالم الفكر:

عدد يناير ١٩٨٣ ، الكويت، بعنوان «أدب الرحلات» مقالا: د. صلاح الدين الشامي، ود / نادية محمود عبد الله.

٨٥- العربي:

عدد يناير ١٩٨٧ ، بعنوان «أدب الرحلات في حياتنا الثقافية» د/ سيد حامد النساج.

٨٦- المأثورات الشعبية:

عدد يناير ١٩٨٧ ، الدوحة ، بعنوان : «التراث الشعبي في أدب الرحلات» د/ حسين فهيم.

٨٧- المصور:

عدد ٢٣ يونيو ١٩٧٢ . مقال محمود تيمور.

٨٨- معهد المخطوطات العربية:

عدد ٢٣ مايو ١٩٥٨ ، قطعة من كتاب مفقود: «المسالك والممالك للمهلبي» . د/ صلاح الدين المنجد.

٨٩- المقتطف:

١- عدد فبراير ١٩٤٥ ، مقال: «عرف العرب أمريكا قبل أن يعرفها أبناء الغرب» ، الأب «نستاس الكرملي» .

٢- عدد مارس ١٩٤٥ . تكملة المقال السابق.

٩٠- الهلال:

عدد يوليو ١٩٧٥ ، بعنوان «الرحلة في الأدب الإنجليزي» د/ أنجيل بطرس سمعان.

٥- المراجع الأجنبية:

1- Abu- Dulaf Misar Ibn Muhalhil's Travels in Iran . W. Minorsky. Cairo university Press. 1955.

2- A Dictionary Literary Terms. J.A. Cuddon. New York. 1977.

3- A Dictionary of Literary Terms. Magdi Wahba. Lebanon.

4- Hudud Al- Alam. W. Minorsky and Bartold's preface. London. 1937.

5- Travel and Travellers of the Middle ages. Newton. A. P. London. 1930.

6- Travel Quest. M. A Michael. London. 1950.

الفهرست

الفهرست

الفهرست

رقم الإيداع : ٢٤٢١ / ١٩٩٥م

I . S . B . N : 977-5526 -21-3

مطابع الوفاء - المنصورة

شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت ٣٤٢٧٧٢١/٣٥٦٢٢٢٠/٣٥٦٢٣٠

ص ب ٢٣٠ فاكس ٣٥٩٧٧٨

هذا الكتاب

محاولة لتتبع الرحلة العربية : نشأتها ، وتطورها من حيث هى ، ثم المراحل التى مرت بها ــ نصاً مدوناً ــ حتى أمست أثرا أدبيا ، وغاية لذاتها .

وقد كان على هذا الكتاب أن يلتفت إلى شيئين :

أولهما :أنه ليست ثمة دراسات نقدية حقيقية فى الأدب العربى تُوفى هذا النوع حقه .

وثانيهما :أن الدراسات الحالية تقتصر على رحَّالين بأعينهم ولا تتعداهم، مما ألحق الغبن بآثار أدبية ممتازة، وبرحَّالين مميزين، وبفترات زمنية بعينها .

ولهذا اقترح الكاتب بعض الأسس التى يمكن ـ على هدى منها ـ دراسة هذا النوع ، وهى أسس قابلة للمناقشة والتعديل ـ طالما كان ذلك فى صالح هذا النوع ـ كما سعى إلى تتبع الجذور الأولى لتدوين الرحلات ، والمتمثلة فى تسرب بعض تفاصيل الرحلات إلى كتب الجغرافيا الوصفية التي اعتمدت الدراسة الميدانية منهجا ، ثم فى كتب الأدب الجغرافى التى أحدثت شيئا من التوازن بين الرحلة ـ كأدب ـ والعلم، ثم أخيرا تستقل الرحلة بذاتها ، ويدرك العرب أهميتها، فينشئون لها نوعا يواكبها هو: «أدب الرحلة » .

ودار النشر للجامعات المصرية يسعدها أن تقدم هذا الكتاب إلى قرائها الكرام لعلها تكون قد أسهمت فى إثراء المكتبة العربية ، واللهَ تسأل أن يعم به النفع .

الناشر



دار النشر للجامعات المصرية ـ مكتبة الوفاء

٤١ ش شريف ت ٣٩٣١٢٣٤٠/ ٣٩٣٤٦٠٦ فاكس ٣٩٢١٩٩٧

تطلب جميع منشـوراتنا من



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ـ المنصورة ش.م.م

الإداره والمطابع : المنصـورة ش الإمام محمد عبده المواجـه لكليـة الآداب

ت ٣٤٢٧٢١/ ٣٥٦٢٢/ ٣٥٦٢٣

المكتبه : أمام كلية الطب ت ٣٤٧٤٢٣ ص ب ٢٣٠ فاكس ٣٥٩٧٧٨